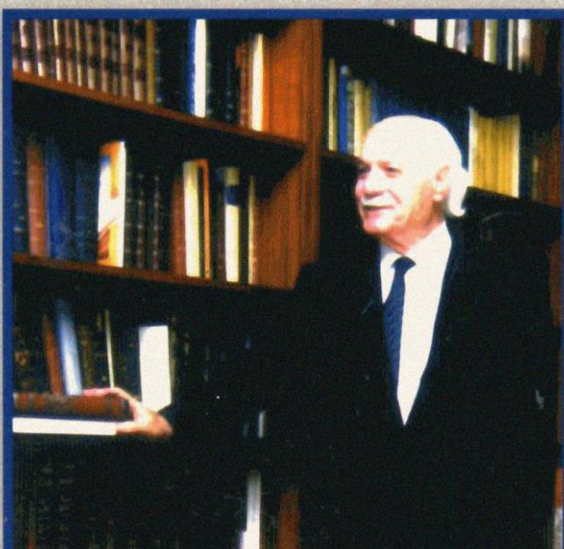
احسان عباس

غربة الراعي

سيرة ذاتية



غربة الراعي

سيرة ذاتية

غربة الراعي

سيرة ذاتية

إحسان عبّاس

لا تستطيع أن تخطو في النهر نفسه مرتين

هرقليطس

2006

- غربة الراعي – سيرة ذاتية .
- إحسان عباس .
- الطبعة العربية الأولى : الإصدار الثاني 2006 .
- رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية 1996/2/181 .

الناشر:

دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس : 4610065
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11110 عمان – الاردن
دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله: المنارة - شارع المنارة – مركز عقل التجاري هاتف 02/2961614
غزة: الرمال الجنوبي قرب جامعة الأزهر هاتف 07/2847003

■ التنضيد والاخراج الداخلي وتصميم الغلاف وفرز الألوان و الأفلام :
دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190/1 فاكس 4610065 / ص.ب . 926463 عمان (11110) الأردن

Email : shorokjo@nol.com.jo

مقدمة

فاتحني عدد غير قليل من الأصدقاء في أن اكتب سيرتي الذاتية، فأخذ اقتراحهم يمثل هاجسا يدور في نفسي، ويستثير ذاكرتي، ولذا توجهت إلى أخي بكر عباس أسأله رأيه في الأمر، فكان جوابه المباشر أن قال: لا أنصحك بذلك، لأنّ حياتك تخلو أو تكاد من أحداث بارزة، تثير اهتمام القارئ وتطلعاته.

كان ما قاله أخي وصديقي بكر صحيحاً، فأنا أعرف أنني لم أشارك في أحداث سياسية، ولم أتولَّ مناصب إداريّة، ولم اكن عضواً في حزب، ولم أكن مسؤولاً عن مشروعات اقتصادية؛ إلى آخر ما هنالك من نشاطات تعرّض الفرد للمسؤوليات الاجتماعية والوظيفية.

وعلى الرغم من ذلك كله وجدتني أميل إلى كتابة سيرتي. ومنهجي فيها التزام الصدق، فيما أسرده. لا لأن ما أكتبه تاريخ مهمّ، بل لأنه يمثل تجربة إنسان حاول في كل خطواته أن يخلص للعلم بصدق ومحبة.

لقد قرأت كثيراً من السير الذاتية، أغرتني قراءتها أن اكتب في مطلع شبابي كتيباً في « فن السيرة» فأنا على علم بمختلف الأساليب التي سلكها كتاب قبلي في كتابة سيرهم(ولعل من أخر ما قرأته منها فصول من سيرة الروائي الكبير ، نجيب محفوظ)، ومع ذلك وجدتني أختار في كتابة سيرتي أسلوباً بسيطاً كأنه حكاية ممتدة، مراعياً إلى حد كبير التدرج الزمني، لاعتقادي أنني لا أنوي أن أقدم للناس رواية، حيث يستبيح الكاتب لنفسه أن يتلاعب بالزمن فيقدم ويؤخر؛ ويطلق العنان لخياله في بناء شخصيات لم تعش على هذه الأرض.

وإنما أقدم حقائق يستطيع أن يستمد منها الدارسون معلومات صحيحة عن حياة مؤلف هذه السيرة وشيء من عصره، وأنا أعتذر لهؤلاء لأني غيرت عامداً بعض الأسماء وهي قليلة جداً.

وكنت في شبابي متحمساً للصراحة الكلية في كتابة السيرة الذاتية ولكني حين وقفت أمام التجربة بنفسي، وجدت أن حماسة الشباب لا تستمر بعد عهد الشباب، وأني لا أستطيع أن اتحمل مسؤولية تلك الصراحة، وأن مجتمعي لا يزال يصدّ عن تقبلها.

بل إنني في سبيل البساطة تجنبت – لأول مرة – ما ألفته من أسلوب قائم على الايجاز والايماء والعبارة المكتنزة وآثرت

أسلوباً سردياً بعيداً عن المستوى الشعريّ ذي الجزالة المتعمدة، رغبة في أن تصل هذه السيرة إلى جمهور كبير متنوع.

واذا كان هناك من عيب في الاقدام على كتابة مثل هذه السيرة فذلك هو أنها تأخرت في الزمن، وكان من الحق أن اكتبها قبل حلول الشيخوخة وامتلاء النفس بألوان من المرارة والخيبة.

و يجب أن أقرّ بأنني لم أدّون لنفسي مذكرات تعينني في كتابة سيرة ذاتية، اللهم إلا أشياء يسيرة متقطعة كما أني لم أحتفظ بصورٍ من رسائلي أو من الرسائل الواردة عليّ وكان الاحتفاظ بها يمكن أن يمنح ما اكتبه مزيداً من الدقة والحيوية والتنويع. وقد قرأ هذه السيرة قبل نشرها صديقان هما الدكتور ابراهيم السعافين وبكر عباس، وكان لملاحظاتهما أثرها في كثير من التعديلات والتوضيحات التي أجريتها فلهما كل الشكر والتقدير.

احسان عباس

عمان في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٦

تحية عام جديد

في دفتر لي قديم		كتبت هذي السطور
«أمس الذي عاش فينا		أمسى وراء الدهور
يمور فينا سناه		لكنَّه لا يحور

شكراً له قد نعانا		لوشكِ عامٍ جديد
أماتَ مُقبلَ عمرٍ		ذبحاً بشفرٍ حديد
فضاع ما نترجَّى		وعاشَ ما نستعيد»

I

رموز الخوف

١- كان حينئذ يتوجه نحو ختام السنة الرابعة من عمره، وكانت تلك أول مغامرة يقوم بها خارج صحن الدار الواسع الصخري؛ وحين اطمأن إلى الدرب التي تشق الحارة الشمالية من القرية جعل وجهته صوب الغرب وأخذ يتدحرج حافياً، ولما بلغ منعطف الدرب إلى اليسار، تجافى عن السير فيه لأنه لا يعرف إلى أين يفضي، وظلّ مستمراً في تدحرجه مع انحراف إلى اليمين، فاذا هو يقف فوق مزبلة كأنها رابية.

هنالك طاب له الوقوف،لأنه يرى البحر، ويرى السحب السود وهي تتجمع فوقه، تتجمع وتتشكل وهو يرقبها ولا يخشاها لأنها بعيدة، وفيما هو مشدود العينين إلى التشكيلات التي تأخذ مواضعها على الأفق الغربي ، رأى بينها غيمة قد أصبحت في شكل جمل فاغر فمه، عندها أدركه شيء من الخوف حفزه إلى

العودة ، فعاد يهمس لنفسه . جمل في الأفق السماوي. لعله، لعله....... الاله الذي يكثر الناس من ذكره.

لم يكن يفهم الرموز في ذلك العمر ، ولوكان يفهمها لما فاته أن يرى أن درب الحياة التي يسلكها ويسلكها الناس تفضي بهم إلى مزبلة، ولكنه حين عاد إلى صحن الدار ودخل البيت الكبير (بيت العائلة) كان يتوقع أن تسأله أمه عن رحلته، ولكنها لم تفعل، فقنع بهذا الصمت، وانضمَّ إلى سائر أفراد الأسرة : أمه وجدته وأخته، وهم يتحلقون حول الموقد، فقد كان الفصل شتاء، وكان من حسن حظه أن المطر لم ينهمر في ذهابه وإيابه.

٢- أخذت أمه بيده، وسارا معاً في الدرب الذي سار فيه أمس ولكنهما عند المنعطف على اليسار اتجها في طريق قد توصلهما إذا شاءا إلى الساحة العامة في القرية، ولكنهما قبل أن يصلاها دخلا بيتاً واسعاً وقالت له أمه : سنزور عمك سلامة الخليل فانه مريض، وحين تدخل عليه ستجده نائماً في فراشه، قل له : كيف حالك ياعمي سلامة ، ولا تزد؛ وكررت عليه ما يقوله لعمه؛ هو يذكر هذه الزيارة ولكنه لا يتذكر شيئا عن الرجل المريض.

ولم يطيلا المكث عنده، بل عادا إلى البيت، وهو لا يعرف من ماذا كان يشكو عمه سلامة، وما كان سبب مرضه، ولكن قصة

سلامة الخليل تكررت من بعد على مسامعه كثيرا. لم يكن مريضاً وإنما كان مصاباً بطلق ناري. من أطلق عليه النار ولماذا؟ «يا بهية خبريني من قتل ياسين؟». لم يكن يجرؤ على سؤال مثل هذا حينئذ، ما دامت امه لم تقل شيئاً عما حدث فمعنى ذلك أن الأحداث فوق مستوى ادراكه، والأيام كفيلة أن تظهر الأسرار.

٣- أحمد الريشان الجار غير القريب وغير ذي القربى، الشاب الجميل ذو الشعر الأحمر المسترسل، «لويّح» الدبكة في الأفراح الذي يسكن وأهله بيتاً مسوّجاً بشجر العبهر ذي الشذا العطر، رأى على احدى الشجرات في حديقتهم عشا، فتسلق الشجرة ومدّ يده في العش، فنكزته الحية اللابدة هنالك، فقيل إنه خرَّ واقعاً، وقيل بل تحامل على نفسه ونزل عن الشجرة رويداً، ومع أن العادة قد علمت الريفيين ما يصنعون للسيطرة على لدغ الحية وغيرها، وبخاصة وليس في القرية طبيب، فانهم في حال أحمد الريشان لم يجدوا سوى اللجوء إلى الشيخ الصوفي يونس، فاستدعي من قرية إجزم، المجاورة لقرية أهله، فجاء ومعه مريدوه، وقضوا الوقت كله يضربون بالصنوج، لئلا ينام الملدوغ، فانه إذا نام سرى السم في عروقه حتى يصل القلب- هكذا كانوا يقولون.....

لا تزال صورة الشيخ يونس ماثلة في ذاكرة الطفل، رجل ربعة نحيل أسمر، قد لف حول رأسه عصابة بيضاء وكان صديقاً لوالد الطفل رشيد عبد القادر عباس، ولعله هو الذي قام باستدعائه لأنه قدر أن لو دعاه غيره لم يجب، وقد احتفى به كثيراً، وأقام له ولمريديه وليمة، كان استدعاء ذلك الشيخ طلباً للبركة اكثر منه لتحقيق الشفاء؛ ومن الغريب أن الوالد لم يسأل الشيخ أن يقرأ شيئا فوق رأس ابنه، بل لعله فعل ونسي الصغير ذلك كله.

ومات أحمد الريشان، كما مات سلامة الخليل، لأن الموت حق، وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

٤- في البيت الكبير تنام العائلة كلها، يفرشون الطراحات فوق حصير، يلتف كل منهم بلحاف. وفي إحدى الليالي أصابه الأرق، فلم يعرف طعم النوم حتى مضى شطر كبير من الليل، كان هنالك شيء لا يدري ما هو يتكّ على مقربة من رأسه، تّكاً منتظماً لا يفتر،وهو صاحٍ يفكر: ما هذا الذي يصرّ على ازعاجه ويحرمه الراحة، ولم يكتشف السرَّ إلا حين قال له والده: إنها ساعة، ولم يكن قد رأى ساعة في حياته.

والده كان يملك ساعة جيب وهو ينزعها عند النوم ، ويضعها على مقربة من وسادته.

كان قادراً على أن ينسى هذه الحادثة الصغيرة، ولكن عدم حصوله على ساعة حتى أصبح شاباً، ووالده يقول له: لقد أصبحت رجلاً وغدوت في حاجة إلى ساعة ومع ذلك كله لم يشتر له والده ساعة ، وظلت الساعة في ذهنه مقترنة بالرجولة ، وظل محروماً من الحصول عليها . لأن والده لا يملك من النقد ما يشتري به ساعة جيدة.

إضافة:

ويتكون البيت الكبير من مصطبة ، ودونها قاع البيت وعند حافة المصطبة مذود يوضع فيه العلف من تبنٍ وقصل وشعير لثورين يقفان في القاع، أحدهما يسمى «ارمان» والثاني يسمى «خيمان» وهما ثوران للحرث، وديعان هادئان قد انتزعت منهما القدرة على الهياج والنطح والرفس وذلّلا تذليلا.

II

رموز الطمأنينة

١- بنى والده في أقصى ساحة الدار من الجهة الجنوبية غرفة بالحجر والشيد والاسمنت لتكون ديواناً يستقبل فيه الضيوف ، وجعل لها شرفتين ، واحدة داخلية، وأخرى خارجية أكلت قسماً من الطريق العام .

ربما كان ارتفاع الشرفة الخارجية مترين ونصف المتر ، وهي واسعة تصلح للسهر في الليالي المقمرة كما تصلح للنوم في غير فصل المطر .

ومنذ ابتناء هذه الغرفة أخذ والده ينام فيها إذا لم يكن هنالك ضيوف، كما كان الصغير ينام فيها إلا إذا كان البرد شديدا، وكان والده يحافظ على صلاة الصبح في وقتها ، ولذلك كان أحبّ شيء إلى نفس الطفل أن ينصت وهو ما يزال في فراشه، إلى صوت والده وهو يقرأ آيات من القرآن الكريم بعد الفاتحة بصوت

عذب رخيم. كان يستمع إليه يقرأ في الركعة الأولى (**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**) (التوبة: ١٢٨) وكان يقرأ في الركعة الثانية (**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير**) (آل عمران: ٢٦) وكان لايكاد يخل بقراءة هاتين الآيتين دون غيرهما من آيات القرآن الكريم.

وكان والده يملك كتابين اثنين لا ثالث لهما، هما نسخة من القرآن الكريم، قد دلق الحبر على بعض صفحاتها فصارت زرقاء ونسخة من تغريبة بني هلال.

ولوأن سائلا سأله في أية مرحلة من حياته : هل كان والده متديناً، لما وجد لديه إجابة حاسمة. كان والده يقضي اكثر وقته مسافراً، ليشتري الحلال من شمال فلسطين ويسوقه إلى سوق طولكرم ليبيعه، ولهذا لم يكن يجزم أن والده يحافظ على الصلوات الأخرى كما يحافظ على صلاة الصبح، ولم يكن يشهد معاملاته للآخرين ليعرف إن كان يتوخى الحق أو يتجانف عنه.

ولم يكن يلزم أبناءه بالصلاة، وكان يحب الشيوخ المعممين ، ويعتقد أن لديهم علماً غزيراً، وكان كغيره من أبناء الريف يخلط بين التدين والأسطورة، ويعتقد ببركات الشيخ يونس وغيره من أصحاب الطرق.

ونشأ لدى الصغير منذ البداية افتتان بالصوت العذب الرخيم وكان المؤذن ذو الصوت الجميل يحلق به في عوالم مثالية، ولكن كان ينغصه الصوت المنكر غير الجميل ويبعث في نفسه النفور والأرق.

٢- وفي الأماسي حين يتوافد الناس إلى الديوان ، كانت تسليتهم أن يستمعوا إلى والده وهو ينغم لهم أخبار التغريبة الهلالية وأسفارها ، ويردد في صوت أقرب إلى التحزين:

قالت عزيزة بنت سلطان تونس الايام والدنيا تسوي العجايب

يا ما مضت لي أيام وأنا عزيزة خدام تخدمني بأعلى المراتب

لا السعد ساعدني ولا العز دام لي ....

ولولا الجدّ الذي يتلبس بتصرفات الريفيين لتواجد هذا، ونتف لحيته ذاك وضرب بالحائط رأسه ثالث.

أو أن يلعبوا لعبة الخاتم والفنجان» ، وذلك ان ينقسم الحاضرون في فريقين، ويحضرون صينية ويصفّون عليها فناجين القهوة مكفأة على أفواهها، ويعهد الفريق(أ) إلى واحد منهم بوضع خاتم تحت أحد الفناجين، وعلى الفريق (ب) أن يحزر أي الفناجين يحتضن الخاتم؛.

والفريق الذي عليه أن يكتشف أين يختبئ الخاتم يركز نظراته في عيني الشخص الذي قام بتخبئة الخاتم، ويستمر التفرس مدة، حتى إذا خانت مخبئ الخاتم عيناه، وتوجهتا نحو أحد الفناجين بادر المتفرس من الفريق (ب) فكشف عن الخاتم وانتقل إلى الفريق (ب) أمر تخبئته وسجل انتصار للفريق(أ).

وعدد الانتصارات يقرر أمر الفريق الغالب والمغلوب، وعلى فريق المغلوبين أن يشتروا حلوى ويقدموها للاعبين جميعاً .

كانت اللعبة تعتمد على الفراسة ، ولذلك – وعلى بساطتها – كانوا يرون فيها إلى جانب الحظ نوعاً من اللماحية ، ويعدونها لعبتهم الليلية المفضلة، اذ كانت لعبتهم النهارية هي «السيجة». وهاتان لعبتان للكبار وليس للصغار فيهما نصيب.

٣– وفي أيام الشتاء كان يلذ له أن يقف عند عتبة البيت الكبير يشهد المطر وهو يهطل بغزارة، ويملأ الجرن في وسط الدار، وتقف على حافته طيور الدويري، وتمدّ رؤوسها

الصغيرة لتشرب، وينثر لها حبات الذرة فتلقطها في حرص، وكانوا يقولون له إن الدويري طائر حذر. وقد أدرك ما يعنون، ولكن الدويري على الرغم من حذره كان يقترب منه كثيراً، ثم يطير كالسهم في الفضاء.

٤- وكان يحبّ منظر المطر، ولكنه كان يحب موقد النار داخل البيت الكبير اكثر ويجد الدفء في أطرافه وجسمه، ويستمع الى جدته وهي تقصّ على الجالسين حول الموقد قصصاً مألوفة يلذ ترديدها ولا يسأمه، عن الشاطر حسن، وعن الغول الذي اقترب منه الشاطر حسن وقال له: السلام عليك يا سيدنا الغول، فيرد عليه الغول، لولا سلامك سبق كلامك، لخليت وحوش البر تسمع قَرش عظامك. فيقترب الشاطر حسن من الغول، ويقص له بعض شعره، ويقلم له أظافره، فتنشأ بينه وبين الغول معرفة تدرأ عنه خطر الغول، لما قدّمه له من معروف.

٥- وكان فصل الشتاء سخياً بما تحضره أخته من البقول: وبخاصة من الشومر والدر يهمة والخردلّة والسنارية وغيرها - من نباتات تنبت في البرّ، وهو يستقبل بارتياح عودة أخته التي كانت تؤثره بحبها ورعايتها، وكأنها أمّ له ثانية. حين تنشغل أمه عنه أو حين تغيب.

٦- ولكنه ومع إحساسه بأشياء جميلة في الحياة، لا يكاد يذكر أحداً من أصدقاء تلك المرحلة المبكرة. مع أنه لم ينس

جولاته معهم في الوادي الشامي.

- كان يستمتع بما يقدم له من طعام بسيط في الصباح، من زيت زيتون قد وضع فيه بعض الملح أو وضع الى جانب السعتر، والبيض المسلوق، وهو لا ينسى طعم الشاي الذي يصنعه والده ويقدم في كؤوس زجاجية صغيرة، ومن بعد فقد طعم ذلك الشاي، وظل يطلبه فلا يجده. أتراه كان شاياً معطراً؟ ربما.

٧- وكان ينزل على أهله ضيفاً رجل يدعونه العمّ ورّاد، ويحمل على رأسه صينية كبيرة، وقد صفّ عليها أصنافاً من الحلوى على شكل تماثيل حيوانية، وكان يصنعها في بيت أهله. ولكن الطفل لم يكن يجد فيها شيئاً يجذبه اليها الا أن تكون دقيقةً في تمثيلها لديك أو دجاجة أو غير ذلك.

٨- لكن فصل الربيع والصيف كان أرحب للحركة، والذهاب الى الحقول، وأغنى بأنواع من الفاكهة كثيرة. غير أنه ظل لديه ذلك الاحساس البدائي بتوالي الفصول ولم يفارقه الا بعد سنوات كثيرة. وكان كرمهم في بطحاء الوادي الشامي غير بعيد من البيت يقدم العنب والتين والخوخ والدراق. ثم من بعد أصبح وقفاً على اللوز. كما كانت الحقول في السهل تزرع بالخيار والكوسى والبطيخ والباذنجان.

III

ماقبل الرموز

حين حاولت استخراج جواز سفر لأول مرة (سنة ١٩٤٦) ذهبت الى دائرة النفوس في مدينة حيفا واستخرجت شهادة ميلاد، فعرفت أني من مواليد شهر كانون الاول(ديسمبر) سنة ١٩٢٠(أو على وجه الدقة ٢/١٢/١٩٢٠)، ومعنى ذلك أنني ولدت في الشتاء وقيل لي بعد بضع سنوات إن المهنئين من عائلتنا، جاءوا لتقديم التهاني، وقدمت لهم جدتي (أم والدي) صاحبة الأمر والنهي بطيخاً (في غير موسم البطيخ) كانت -قد احتفظت به، ورفضت أن تشتري القطين أوالملبس أو الهريسة ، لأن في ذلك إسرافا لا لزوم له، مع وجود بطيخ نادر في ذلك الأوان.

أما مكان الميلاد فهو قرية عين غزال وتقع على احد امتدادات الكرمل إلى الجنوب من حيفا على مسافة تقارب ٢٥ كيلو متراً، وينبسط أمامها السهل الساحلي الذي يمتدّ على موازة البحر،

ووراء القرية إلى الشرق أرض جبلية، واكثر أهل القرية مزارعون يملكون قطعاً من الأرض موزعة في أرجاء السهل وقطعاً أخرى في الجبل يزرعون فيها كل مايحتاجون اليه في موسمين شتوي وصيفي، وتقع بيوت القرية بين جبلين متقاربين في الارتفاع جبل الرأس العالي في الجنوب وجبل العرنين المتطامن في الشمال وبينهما عين هي مصدر الماء للقرية، وعلى مقربة من العين في وسط البلد ساحة عامة تسمى المطامير لأن فيها مطامير كانت اهراءات للغلة أيام العثمانيين وفي القرية أربع حمائل (عائلات كبيرة) هي من الجنوب إلى الشمال: المناصرة والعثامنة والعيوش والزياتنة والأخيرة هي أسرتنا، وهي تعيش في حيّ العيوش ويجمع بينهما حقوق الجوار والنسب.

واكثر الناس يقتنون البقر لأعمال الزراعة، والماعز للبن، وقلما تجد فيها ضأناً.

وتمر في السهل طريق معبدة تمتد بين حيفا ويافا، وفي القرية جامع صغير ليس له مئذنة، وكان الجامع هو مكان الكتّاب قبل بناء المدرسة الحديثة. وكان المؤذن يقف على سطح الجامع، وفي رمضان بالذات كان صعوده على سطحه ضرورياً لأنه يرى الشمس تغيب في البحر، وذلك دقيق في تحديد موعد الأفطار.

وكانت أمي فاطمة محمد عباس بنت عم والدي رشيد عبد القادر عباس وكان اسمها غزالة فغيّره والدي الى فاطمة ، وكانت طويلة القامة مثل أخويها، وعلى مثالها نشأت أختي «نجمة» ، وكانت غزالة من قبل زوجة لحسن عبد القادر عباس أخي والدي ولها منه ولد اسمه محمود ، وقد قتل حسن وأخوه محمد عتيق عندما ذهبا مجندين في جيش الدولة العثمانية في الحرب العظمى الأولى.

وقررت جدتي عندما فقدت ولديها أن يتزوج وحيدها الباقي (رشيد) زوجتي أخويه وذهب (رشيد) بعيد زواجه مجنداً، ولكنه، اتعظ بمصير أخويه فكان اذا دعي للمشاركة في القتال تمارض ودخل المستشفى (الخاست خانة) وأعجبته الحياة في استانبول فكانت اللغة التركية والأناشيد والأغاني التركية والموسيقى هي زاده من تلك السفرة، ولهذا أطال البقاء هنالك ولم يرجع إلا في أواخر (سنة ١٩١٩).

وقد رزق قبل ذهابه إلى الحرب بابنة سماها نجمة . هي شقيقتي الكبرى، ولم يرزق من المرأة الأخرى نسلاً، وإنما تكفل بتربية ابنتها عائشة من أخيه محمد عتيق، كما تكفل بمحمود بن أخيه حسن.

كانت أمي ريفية بسيطة اكثر ما يميزها حب الصمت أوقلة الكلام والامتثال لما تأمر به جدتي ، وكانت مثل أبي تؤمن ببركات الفقراء والزهاد، فمرّ بها عبدالله المؤذن ذو العنق المعوج فأعطته صاعاً من الحنطة وسألته أن يختار اسماً لوليدها ، ، فتمتم قليلاً ثم قال لها سمِّه «احسان لله» فكان كذلك، وتكرر الشيء نفسه حين وضعت طفلاً آخر بعد سنتين فان عبدالله المؤذن هو الذي اختار لهذا الثاني اسم توفيق وكأنه كان يتلو في سره « وما زادهم إلا إحساناً وتوفيقاً».

وقد شاع في محيط الأسرة الصغيرة ان الطفل الذي حمل اسم «احسان» كان طفلاً مبروكاً ، وكان المسؤول عن إشاعة ذلك هو والده ، فقد حدث أنه على أثر ميلاده، ملأ صحارتين بالطماطم (البندورة) من أرضنا ، ووضعهما متعادلتين على بغلٍ شديد الحران جمّاز، فكان في قفزه ينثر حبات البندورة من الصحارتين وكان والدي يلمّ ما يتناثر ويعيده إلى موضعه وقد تجرح وعلق به التراب، ولما وصل «الحسبة» في حيفا ، باع البندورة بثمن عالٍ قبل الآخرين، وقدّر أن هذا حظ مستغرب ، وان ذلك لم يتم الا ببركة مولوده الجديد.

إن هذا الاعتقاد الخاطئ حمل محمداً ابن خالي علي عباس – حين كان في حيفا بعد سنوات – أن يشتري باسم الطفل ورقة يانصيب أصدرته مدرسة للبنات ، في تلك المدينة وأن يحملها إلى القرية ويسلمها لعمته(أمي).

وعندما أعلنت نتائج السحب ، تبين أن الورقة قد كسبت ثلاثة جنيهات فقر قرار الوالد أن يأخذ ابنه الى حيفا ليتسلّم الجائزة ، كان ذلك بعد أن دخل الطفل المدرسة وتعلم الكتابة، وغلبه الفرح حين قالت له مديرة المدرسة : «إن خطك جميل» أكثر من فرحه بالجائزة وتسلم الجائزة فسلمها لوالده، فوضعها في جيبه وعاد الاثنان الى القرية.

كانت زيارة قصيرة لحيفا ، لم يرَ فيها شيئاً من المدينة ولم يكن يعلم أنّ حيفا ستكون القبلة التي يتوجه اليها بعد سنوات.

IV

ما بعد الرموز مباشرة

الأطفـــال في الريف مــحـرومــون من أن يكون في أيديهم لعب أو دُمى، ولهذا فهم يلجأون إلى ابتكار ألعاب جاسية تتيحها لهم بيئاتهم؛ وألعابهم نوعان منزلية وخارج المنزل ، فأما المنزلية فهي اللعب بالكرات الملونة اللامعة، أو لعبة «القحشة» وهي اختيار ثلاثة مكعبات من الحجارة يوضع اثنان منها على ارض الغرفة على مسافة بينهما، ويرمى الثالث في الفضاء إلى نحو نصف متر، وتجمع اليد بين الحجرين الارضيين وتتلقى في الوقت نفسه الثالث من الهواء، دون أن يسقط أحدها ، وفي جمع الثلاثة معاً بدقة وانتظام يتم الفوز، ويتكرر ذلك حتى يسأم اللاعبان.

وأما الألعاب خارج المنزل فأهمها : تكوين امتداد من التراب في مثل ظهر الجمل ، ثم قسمته وتخبئة قطعة نقد أو عود قصير فيه، والطلب الى اللاعب الآخر أن يضع يده على الجزء الذي يضم

قطعة العملة أو العود وهذه لعبة متوارثة منذ الجاهلية واليها أشار الشاعر بقوله : «كما قسم التربَ المفايل باليد» وهناك ألعاب أخرى منزلية تقوم على الحزر والتخمين، مثل تخبئة قطعة نقود في إحدى اليدين، والحزر في أي يد خبئت.

ومن الألعاب التي تمارس في المنزل عادةً لعبة « طار الحمام. حط الحمام» وهي بسط اليدين على الأرض، والخصم يتحفز لضربهما فيسرع صاحب اليدين إلى رفعهما في الهواء قبل نزول الضربة عليهما ثم تحط اليدان وهكذا بالتبادل. (وقد جعل محمود درويش هذا الشعار محور قصيدة محكمة البناء من أجمل ماقرأته من شعر حديث، وأخرجها عن سذاجة تلك اللعبة القروية وعمّق دلالاتها).

ومن الألعاب خارج المنزل تحديد عيدان من طرف واحد مثل بري القلم، واختيار قطعة من الوحل ، وضرب العود فيها حتى ينغرز. ومحاولة قلع عودٍ غرزه الخصم بعودٍ مثله، وهذه اللعبة لا تكون إلا في الشتاء، وتثير لدى اللاعبين حماسة شديدة، غير أن أجمل تلهية كان يزاولها الأطفال هي التخويض في الوادي الشامي (الشمالي) إذا جرى فيه الماء في الشتاء ، وقد شمر كل طفل عن ساقيه ، واستمتع ببرودة الماء، ولم يبال بما يمكن. أن يسببه الحصى والحجارة من تجريح للقدمين. في خلال عام

وبضعة شهور مارست كل هذه الألعاب وغيرها ، اذ كان مما يلحق بالتلهي ان أذهب إلى الكرم وأتسلق شجرة التين ، وأن انصب الفخ لصيد العصافير . وأن استمتع بكلّ مايرى فيه أبناء القرية متعة أو تسلية .

حتى إذا كدت أنهي السنة الخامسة من العمر وأدخل في السادسة ، أوصى أبي صانع الأحذية في القرية أن يصنع لي «بوتيناً» حذاء له عنق يحتضن جزءاً من الساق، فلم أعد استطيع أن العب في الطين، ولا أن أخوض الوادي الشامي؛ كان الدخول الى المدرسة لا يمكن أن يتم قبل بلوغ السابعة ، ولكن صداقة والدي للمعلم الأول (المدير) في مدرسة القرية ذللت هذه العقبة، فقبلت وأنا في سن السادسة، وبذلك قضى البوتين اللعين على طفولتي حين حدد لها نهايتها.

V

في مدرسة القرية

لم تكن مدرسة القرية اكبر عمراً مني بكثير، بل لعلنا كنا متقاربين في السنّ ، وحين تداعى أهل القرية لبناء مدرسة اختاروا لها أحد سفوح جبل الراس المطلّ على ساحة القرية من الجهة الجنوبية.

وقد تميزت عن معظم دور القرية التي كانت تبنى بالطين، فكانت في نظر الصغير أفخم بناء في القرية ، وهي مكونة من غرفتين كبيرتين متقابلتين في كل غرفة صفان (فصلان) في احداهما الصف التمهيدي والاول وفي الثانية الصف الثاني والثالث.

وفي المدرسة معلمان احدهما المعلم الأول – وهو مدير المدرسة – واسمه عبد الرحيم الكرمي والثاني مساعد له وهو شيخ معمم تخرج في جامع الجزار بعكا واسمه محمد حجازي ، وكل منهما وقت الدوام يدّرس صفين معاً.

وهذا الترتيب يعني أن الطالب يقضي في المدرسة أربع سنوات ، وليس من المسموح به أن يعفى الطالب من احدى السنوات مهما يكن تفوقه ، ولكن المحيّر هو الصف التمهيدي فلماذا وجد هذا الصف؟ لماذا يفرض على كل طالب أن يتخرّج في الصف الثالث وقد قضى في المدرسة أربع سنوات؟!

كان عبد الرحيم أقرب إلى الطول ذا وجه أسمر وشعر جعد لا تفارق العصا يده، وكان ينظم مشيته على حسب منازل العصا ، بين صعود مقدر وهبوط ، وكان يلبس دائما بدلة كاملة مؤلفة من بنطال وجاكيت ، وكانت ثقافته هي ثقافة المدرسةالعصرية.

أما الشيخ فكان يعتمر العمامة ويلبس الجبة وربما لبس تحتها جلابية أقصر منها، وثقافته في معظمها دينية، وكانا يقومان بتدريس كل الموضوعات التي يحتاج اليها الطالب الريفي من حساب ولغة عربية (إملاء، خط، قواعد، محفوظات) وتجويد وتاريخ وجغرافيا وعلم الأشياء وغير ذلك.

أشهد أنهما كانا مخلصين في مهمتهما، كما كان اكثرنا مخلصا في حب التعلم، وكنا نهابهما فلا نحب أن يريانا ونحن نلعب، هذا مع أنهما لم يعرفا معنى العقوبة البدنية في التعليم.

وعندما بدأت حياتي المدرسية ذهبت إلى بيت خالي شحادة وهو قريب من بيتنا لكي اصطحب ابنه (عباسا) إلى المدرسة - وكان أحد لداتي. فصارحني خالي بأنه يؤمن أن المدرسة تفسد الأطفال وأنه لن يبعث بابنه إلى المدرسة . لم أسأل خالي أن يشرح لي وجهة نظره، ولكن مع الأيام سمعت من جدتي تفصيل ما أجمله خالي حين كانت تشير إلي وتقول : انني لم أعد أصلح لعمل أي شيء في الحياة الزراعية ، لا أستطيع أن أحرث أو أحصد أو أدرس المحصولات على البيادر.

فاذا كان هذا ما يعنيه خالي بافساد المدرسة للأطفال فانه غير بعيد عن الصواب.

ولكن بعد سنوات غير قليلة حين قرر أهل القرية بناء مدرسة للبنات، كان خالي شحادة أول المتحمسين لهذه الفكرة والمتبرعين في سبيل تحقيقها، وسبحان المغيّر.

أدخلت المدرسة إلى نفسي ابتهاجاً لم يكن لها به عهد، بما وفرته من تنوع، فالى جانب حل ألغاز الدروس، وازدياد منسوب الثقافة عوضتني عن الألعاب الريفية الخشنة ألعاباً لم اكن اعرفها ، فهنالك لعبة كرة القدم ، وركض المسافات المعينة وشد الحبل ، والقفز فوق الحبل ، والتمرينات الرياضية.

واقترح الأستاذ عبد الرحيم أن يتعهد كل طالب منا، برعاية شجرة، تضاف الى اسمه، فهو يرويها بالماء، عند حاجتها إليه ، وقد كانت هذه العلاقة من أقوى العوامل التي حببت الينا المدرسة.

وعندما كنت أعود إلى القرية – من بعد – كان اول شيء أقوم به هو الذهاب إلى المدرسة للاطمئنان على الشجرة التي غرستها، صحيح إنها أصبحت لشخص آخر، ولكن حنيني إليها لم يكن يقل عن حنيني إلى البيت والأسرة وأصدقاء القرية .

وكنا نستمتع بما نتعلم لأنه كان في كل يوم يمثل اكتشافا وأظنني لو كنت كسولاً لتغيرت الحال، ولكان ما حسبته مصدر ابتهاج هو مصدر عبء ثقيل من الواجب.

وكان عبد الرحيم قد عمد إلى تشجيع الطلاب المجتهدين بتخصيص جوائز لهم. كانت الجائزة شيئا بسيطا لا تزيد عن دفتر جميل الغلاف ، نقي الورق، ولكنها كانت حافزاً.

وقد حصلت في خلال السنوات الأربع على عدة جوائز ، حتى قام في وهمي أن الدفاتر هي خير ما يقتنيه الانسان ، وكنت أحرص أن احتفظ بتلك الدفاتر دون أن اكتب شيئاً فيها، لأن الكتابة تذهب حسنها.

ولم تكن تلك الدفاتر مما يباع في دور القرطاسية، بل كانت مما تستورده ادارة المعارف بفلسطين وتوزعه على مدارس القرى والمدن .

وكان المعلمان عبر الرحيم والشيخ حجازي يخرجان أحيانا عن حدود الدرس ويقصّان علينا شيئا على سبيل الاستطراد. أذكر أن عبد الرحيم حدثنا أنه كان مرة في زيارة طبيب – في بيته لا في عيادته، وأن ذلك الطبيب حين حضر وقت الغداء أحضر لنفسه صحن سلطة لا غير وختم الوجبة ببضع حبات من الملبس، وكان هذا هو كل غدائه، ولعله كان يريد من ذلك تصوير بخل بعض القادرين على الانفاق.

وأما الشيخ حجازي فحدثنا ونحن في الصف الثاني أنه ينظم الشعر في الحض على مكارم الاخلاق وفي الغزل ، وأذكر أني لم أفهم هذه اللفطة حينئذ، ولم أجرؤ على أن أسأل الشيخ عنها.

وفي احد الدروس قال لنا الشيخ هل تعرفون من هو المتكبر، فبقينا صامتين ننتظر شرحه، فقال المتكبر رجل يحمل عصا ويلوّح بها وهو يمشي – في خيلاء – على ايقاعها، وفهمنا رسالة الشيخ، وعجبت انا في سري من هذا اللمز واخذت اقدر أن الصفاء بين الرجلين ليس تاماً، وان الظاهر لا ينبئ عن الخفايا في النفس.

وكان كل طالب يعلق في كتفه كيساً يضع فيه كتبه ودفاتره وأدواته المدرسية الأخرى، واذا كان مثلي نهماً في الجوائز (أي في الحصول على الدفاتر) تضخم كيسه بسرعة .

كنا بسطاء و كانت جوائزنا بسيطة ، ولكن الشيء المحيّر أننا ظللنا بسطاء نرضى باليسير، هل كانت هذه لعنة الدفاتر أو عقوبة التفوق ؟ أياً كان الأمر فيبدو أنه ليس من السهل التخلص مما واكب الطفولة .

وعلى الرغم مما قدمته لنا المدرسةمن مجالات جديدة متنوعة وصداقات ونشاطات بقينا نعاني الهموم التي تتصل بحياة الأسرة ، وأحداثها : اتضحت لدي قصة عمي سلامة الخليل ، فقد أخذ أفراد الاسرة يحكونها على مسمعي دون حرج. عمي سلامة أنجب ابنين هما أحمد وآمنة، وكان له أخ اسمه سالم الخليل توفي وخلّفَ ابنة واحدة اسمها مريم. وحرصاً من سلامة على الأراضي الكثيرة التي كانت مريم مرشحة لوراثتها قرر أن يسميها (خطيبة) لابنه أحمد، وهو ما يزال غلاماً يومئذ ومريم فتاة جميلة طويلة تكبره سناً، وهي ترفض هذا الزواج لأنها لا ترى ابن عمها رجلاً يكافئها في السن، وهذا الصراع جعل مريم تقع في حب شخص من عائلة أخرى اسمه موسى الصاردي، وذاع أمر هذه العلاقة في القرية الصغيرة بسرعة .

وكانت مريم ذات شخصية قوية محبة للتحدي فخرجت في تصرفاتها عن الحدود التي تقرها القرية . وذات يوم كانت جماعة من رجال القرية فيهم رشيد عبد القادر عباس وسلامة والصاردي يتمشون في غابة الزيتون في أرضنا بالمدق، فوقع تلاسن بين سلامة وموسى فما كان من الثاني إلا أن استخرج مسدسه و أطلق رصاصة منه على سلامة أصابت منه مقتلاً؛ في هذه الأثناء كان رشيد قد غادر الجماعة وذهب الى أرضنا في قرقر حيث والدته (جدتي آمنة) تحرس مقثأة البطيخ، وهو يحمل لها عشاءها ، فما كاد يصل العريش الذي تقيم فيه حتى سمع طلقاً نارياً، فقال يخاطب نفسه وأمه في آن واحد: قتل سلامة.

كان قد سمع بداية الملاسنة ولكنه لم يطل البقاء ليسمع نتائجها . وحمل سلامة الى البيت دون أن يستدعى له الطبيب، وظل يعاني من جرحه أياماً ثم توفي ، وسألت محدثي ولكن أين أحمد ابن عمي سلامة؟ قال لي : إن الأسرة الكبيرة بعد هذا الحادث، رأت - بمشورة أحمق - أن تتخلص من مريم، فسلمت أحمد مسدساً وشخصاً آخر من آل عباس مسدساً آخر وعلمتهما أن يطلقا الرصاص على مريم وأن يتخلصا منها، ففعلا وكانا لا يحسنان التصويب، فمس الرصاص طرف كفلها ولم يؤثر فيها،

وسيق الصبيان بعد التحقيق والمحاكمة إلى الاصلاحية، نظراً لصغر السنّ.

أما رجال الأسرة الكبيرة فأعلنوا عن انتكاس حالهم بأن صاروا يمشون في القرية وقد وضعوا الكوفيات على رؤوسهم دون أن يثبتوها بعقالات. كانوا يستشعرون الخزي والعار، ويضمرون حقداً على الصاردي واسرته، اذ ان لهم عندهم ثأرين، ثأر العرض وثأر القتل.

ومع الزمن أخذت أدرك أن والدي لم يكن راضياً عن الزواج الذي فرضته عليه أمه. كنت أعرف ذلك في بعض مايدور من حديث في البيت، وفي بعض الاشارات والهمسات.

لقد توفيت الزوجة الثانية، وبقيت أمي بين تحكم جدتي، وطموح والدي إلى الزواج بعيداً عن إرادة أمه، وكنت أحس حولي بجو يشبه المؤامرة، فجدتي القوية المتحكمة تدعو والدي إلى الجلوس كلما استقر في البيت وتأخذ في تأنيبه وتقريعه على أمور لا أعرفها ، ولكنها لا تشير أبداً إلى إزماعه الزواج.

وينصت والدي إلى تأنيبها الذي قد يستمر ساعة كاملة، وهو منكس رأسه، لا يتفوه بكلمة، فاذا صمتت لتعب اعتراها سألها: هل انتهيت ياأمي؟ فاذا قالت : نعم انتهيت، قام من مجلسه وغادر البيت.

وكانت أمي دائمة الحزن، ولكنه حزن مقرون بالصمت الكامل، وبعد توفيق وضعت بنتين تباعاً ولكنهما لم يعيشا طويلاً، فكانت جدتي تندد بها وتقول: كيف يمكن لأطفالك أن يعيشوا وأنت ترضعينهم لبن الكآبة؟

هل هو سلطان الأمومة وحده الذي كان يعطي جدتي حق الهيمنة على كل أفراد البيت؟ كان والدي قد تخلى جزئياً عن الاهتمام بالزراعة وأخذ يجرب حظه في التجارة، وتسلم دفة السفينة بعده أخي لأمي (محمود) غير أن محموداً كان يحس أنه يقوم بالعمل مقابل الطعام والمأوى.

وكان الديوان قد فرض عليه أن يكون الشخص الذي يدق البن في الهاون، ويصنع القهوة (السادة) ويقدمها إلى الضيوف والزوار، وهذه المهمات مجتمعة كانت تجعله شديد الادلال، وفي حال الزراعة - ميالاً إلى التهاون، فكانت جدتي هي المسؤول الأعلى عن كل الأعمال الزراعية، كانت توظف الحراثين، وتتعاقد مع الحاصدين، وتشرف على درس القمح والشعير، وجمع السمسم، وبيع البطيخ و...............

وكانت إلى كل ذلك هي التي تبني الغرف الطينية في جوانب الدار لخزن الغلال، والتبن والكرسنة، وهي المسؤولة عن خزن زيت الزيتون بعد عملية الجداد والجمع والعصر.

شيء واحد لم تكن تقوم به وهو الحصول على ماء الشرب، فذلك عمل كانت تقوم به أمي وأختي.

تركت كيس كتبي يتضخم عامداً لأنه كان في نظري الشاهد الوحيد على أنني كبرت، وكنت أقطع المسافة من بيتنا وأخترق ساحة القرية ثم أصعد إلى المدرسة وإذ أمرُّ في طريقي ببيت يجلس فيه فتاتان جميلتان، كنت أتعمد تسوية الكيس حتى أمنح نفسي فرصة لالقاء نظرة على إحداهما، كنت أراها من بعيد بيضاء ذات شعر أسود حالك مفروقٍ من وسطه، ولكني لم أرها أبداً واقفة لأصف طولها وقوامها، كنت أعرف أني مخطئ تمام الخطأ في أن أتخذ الناحية الثقافية علامة على مابلغته في سن الثامنة أو التاسعة.

ولكن كانت تلك هواجس امرئ لا يجد حوله ما يدلُّ به على نفسه، وكنت أعلم أن الفتاة لا تعبأ بي، وأن مظهر الطفل كان أغلب عليَّ، وكنت أعلم أيضاً أن الحبَّ ممنوع في الريف. وان قصة (مريم) قد حددت كل شيء بخطوط سوداء أو حمراء لا قبل بمحوها أو طمسها أو التغاضي عنها. لكنها خفقة صبيانية بريئة لا أحب أن أهملها وأنا أوشك أن أغادر القرية.

VI

إلى حيفا

كان الحديث حول رحيلي عن القرية، في الشهر الأخير من إقامتي فيها يجري – في محيط الأسرة – كلَّ ليلة، ولم أتنبه إلى أن الرحيل قد وافق رسوخ جذوري العاطفية فيها، فقد وضعت أمي قبل ثلاث سنوات أو أربع طفلاً، تشبثت بأن اسميه، فاخترت له اسم «بكر»، وكنت متعلقاً به لأنه كان عجيباً في جرأته ونادرته وبخاصة في حديثه مع الكبار؟

وقبل السفر بيوم أمضيت يوما كاملاً في صحبة أمي بين زيتون المدق وشاركت في جمع الزيتون، وحين أتيح لي أن أبتعد قليلاً عن العاملين الآخرين وجدت على الأرض عصفورين كأنهما سقطا لتوهما من عش ولم يستطيعا الطيران، ففرحت بهما كثيرا وأخذتهما إلى أمي.

وفي اليوم الثاني اتفق والدي والأستاذ عبد الرحيم على مكان اللقاء في حيفا، وذهبت بصحبة والدي إلى الحافلة التي تقف

على مقربة من زيتون المدق ، وكانت أمي طوال الوقت قوية وقد نظرت إلي وأنا أودعها نظرة عميقة طويلة كأنها تعاتبني لأنني أختار أماً غيرها، وكنت كلما تذكرت هذه النظرة من بعد أحسست باستقواء على كلّ ما قد يواجهني من صعوبات .

وعادت أمي إلى القرية، وسافرت برفقة أبي إلى حيفا ونزلنا عند الشيخ أحمد السعدي وكان يسكن في وادي الصليب، وقضينا الليل في داره ، ولكني لم أستطع النوم لأني كنت أنظر إلى المباني العالية من حولي ، وأحاول أن أحزر أيها هي المدرسة .

قياساً على مدرسة القرية لا بد أن يكون المبنى المخصص للمدرسة أجمل بناء واكبر بناء. وشغلني هذا الهاجس عن النوم، فلما التقينا عبد الرحيم في صباح اليوم الثاني، ذهب بنا إلى مبنى عادي جداً قد علقت عليه لافتة كتب عليها، « المدرسة الاسلامية التابعة للجمعية الاسلامية» وهي مبنية على مرتفع ، ولكنها ليست أعظم ولا أجمل مبنى في حيفا .

إذن أنا سأدخل مدرسة خاصة لا مدرسة حكومية، والمدرسة الخاصة تتقاضى أقساطاً ، أما الحكومية فهي مجانية . وزاد استغرابي عندما طلب عبد الرحيم تسجيلي في الصف الثالث، وأنا قد أنهيته في القرية ، وجعلت أسائل نفسي: لم فعل ذلك فلا أجد جواباً.

في الحافلة من عين غزال الى حيفا مسافة تستغرق ساعة، لم انشغل فيها برؤية القرى أو مناظر الطبيعة التي نمر بها إلا عفواً ودون تركيز. كان رأسي تملأه هواجس غريبة: الناس يقولون إني ذهبت الى حيفا لأتعلم ولكني ذاهب لتحقيق غرض آخر.

اريد ان اكتشف أين تسكن «مريم» لعلي أسهل الطريق إلى التخلص من عارها وأريح الاسرة من عنائها. هذا «هدف سري» لم أبح به لأحد.

عرفت فيما بعد أن المدرسة الاسلامية أنشأها الشيخ كامل القصاب وهو رجل سوري، يقال إنه كان من مناوئي الاستعمار الفرنسي وأنه غادر دمشق إلى فلسطين، ومعه مجموعة من الشيوخ السوريين المدرسين منهم ابنه أبو الحسن الذي كان يعلمنا التجويد، وكان أبو الحسن شيخا وضيئا له لحية سوداء، وكان في اكثر الدروس يختار التلميذ الأسمر أحمد عطية لكي يرتل القرآن بصوته الجميل، ويمضي سائر الطلاب حصة القرآن مستمعين. وشيخ آخر كان يعلمنا الحساب برموز جبرية، والشيخ رضا المسؤول عن العقوبات في المدرسة، ومع هؤلاء معلمون مدنيون منهم حسين حماد وكان يعلمنا العربية والجغرافيا، وغيرهم.

وبعد التسجيل اخذني عبد الرحيم إلى بيت أهل زوجته « بيت بوكمال السيد» وهو واقع في حارة اليهود (هكذا هو اسمها وليس فيها يهود) ووجدت نفسي في بيت نظيف ، تقطن فيه أسرة مكونة من بوكمال السيد وزوجته (أم كمال) وابنهما كمال الاكبر وحسن الأصغر وابنة واحدة اسمها شفيقة. وقد أقمت عند هذه الأسرة سنة دراسية كاملة.

كانت سنة قليلة المنغصات سواء في البيت أو في المدرسة أما في البيت فكانت ام كمال تعاملني بحنو الأم ورعايتها وكنت لها الابن المتوسط بين كمال وحسن. سيدة فضلى رأتني نحيلاً ضعيفا فقدرت أن ذلك ربما كان من سوء التغذية ، فخصصت لي كل يوم صباحا شرب زيت السمك، وأكل البيض نيم برشت، وكنت اكره هذين الصنفين كراهية شديدة لأن الفلاحين لا يعرفون زيت السمك ويبالغون في سلق البيض كثيراً، ومع ذلك فان كراهيتي للصنفين إنما كان مردها إلى عدم التعود.

يضاف إلى ذلك أن الطعام في المدينة يطبخ بالسمن الحيواني وأن الريفيين يطبخون بزيت الزيتون، فرأيت أن أعود نفسي على ما تقدمه البيئة المدنية، ولكن ذلك التعود لم يتم الا بصعوبة بالغة.

ولم تستطع الآنسة شفيقة أن تتقبلني ، لأني كنت فلاحاً جلفاً أغطي جلافتي بقشرة رقيقة من الحياء ومن الهدوء . لم اكن أحسن النظام بدقة فأضع كل شيء في مكانه الخاص به ولم تكن لهجتي الريفية خفيفة على مسامع المدينيين.

وكانت تسكن على مقربة من بيت السيد ، سيدة يعرفها أهل البيت باسم امرأة السهلي. لا أعرف هذه المرأة ولم أرها أبداً، ولكنهاكتبت جميع أسماء الأطفال في الحي الذين يدرسون في المدرسة الاسلامية واتهمتهم بانهم يرشقون بيتها بالحجارة.

تسلم قائمة الأسماء الشيخ رضا الموكل بالعقوبات في المدرسة وصفّ الطلاب على محاذاة الحائط، وأخذ يستدعيهم واحداً بعد آخر ويرفع رجلي كل طالب في الفلقة، آلة للعقاب أراها لأول مرة، ومن حسن حظي أنني كنت آخر الصف، وأن الشيخ رضا تعب من كثرة الضرب.

فصرفني لأذهب إلى لعنة الله، وهي – أي لعنة الله – ربما كانت يومئذ أسهل لأنها آجلة وعقوبة الشيخ رضا عاجلة.

وأما في المدرسة فلم أجد أي عناء في الدروس ، فأكثر الموضوعات قد درسنا أطرافها من قبل، وكانت اعادة الصف الثالث مضيعة للوقت.

وعندما رصدت جائزة لدرس النحو ، أحرزتها ، ولم تكن دفتراً بل كانت كتاباً عنوانه « أساس الاقتباس » قرأت فيه فلم أفهم منه شيئا ،وكان الذي قدَّم هذه الجائزة معلما لا يدّرسنا اسمه جميل عبد النور وقد دفع المسكين ثمن الكتاب قرشين من مرتبه.

وتعجبت كيف أنال جائزة النحو وأنا في امتحان سابق وقد جاء في الامتحان جمل مثل :

احترق المنزل

انكسر الزجاج

قلت : لا يمكن أن يكون المنزل فاعل الاحتراق، ولا يمكن أن يكون الزجاج فاعل الكسر ، ولكنهما غير منصوبين أي ليسا مفعولين، ولا أدري كيف أعربهما.

وحين انتهى العام وعدت إلى القرية ومنها إلى المدينة واجهت حادثين هزا وجودي أما أحدهما فهو وفاة حسن البريء الجميل الذي انعقدت بينه وبيني روابط الأخوة ، ورأيت من واجبي – وقد عدت إلى المدينة – ان أذهب إلى متجر أبيه في السوق فاعزيه، ولم أجرؤ على مواجهة أمه لتعزيتها.

وأما الحادث الثاني فهو أنني كنت ذات يوم امشي على مقربة من جامع الاستقلال فرأيت جميل عبد النور وقد أمسك حجرين بيديه وهو يضرب أحدهما بالآخر وجمهور من الاولاد وراءه يفعلون فعله ، ويلاحقونه أنى اتجه، وقلت في نفسي: أهذه نهاية«المعلم» !! إنا لله وإنا إليه راجعون.

شيء ما انكسر في نفسي، بين فقد الطفل البريء وجنون المعلم المتفاني في عمله.

لكن هل يمكن التراجع وقد بدأ المشوار؟ أعلم أن الطريق طويل ولكني أعلم أيضاً أني لا أستطيع العودة ولا احبها لأسباب كثيرة.

وفي أحد الأيام أهداني شفيق أخو السيدة أم كمال مفكرة قد فات وقتها، فذهبت الى غرفتي وكتبت فيها أول قصيدة نظمتها، أحرض فيها أهل عين غزال ليثوروا على الانجليز ومطلعها :

ألا ياأهل عين غزالَ هبوا بأكبركم لأصغركم معينا.

ونظمت بعدها قصائد كثيرة، ولكني لم أثبت منها أية قصيدة وان كان زملائي في المدرسة يتخاطفونها ، وكنت أعتقد أنها قصائد لا تستحق أن تبقى ، ولهذا حذفت كلّ مانظمت بين سنتي ١٩٣٠ - ١٩٤١، وكان حسي النقدي صارماً ، وكنت مأأزال ضعيفاً في اللغة والنحو، وأجد في تلك القصائد خربشات صبيانية.

كانت طبيعة السنة الأولى التي قضيتها في بيت آل السيد بما فيها من راحة ورفاه ووفرة ماء للاستحمام ونظافة وقلة مضايقة وعدم مرض هي التي جعلتني أجهل كلّ ما قد يعترض طريقي من صعوبات في السنوات التالية.

وكنت كلما فكرت في حالي اعتراني الخوف من تلك الهوة التي قبلت التردي فيها طائعاً، فأنا معرّض للمرض ولا أعرف طبيباً، وإذا وجد الطبيب لم يكن معي ما أعطيه لقاء فحصه لي، ولا ما أشتري به ما يصف لي من الدواء.

ثم إني لم أسأل نفسي كيف أحلُّ مشكلة العثور على مسكن آوي اليه، إذ لم يكن في حيفا منازل خاصة بالطلاب، وكانت أجور الغرف - دع الشقق - باهظة وقد وجدت من غير اللائق حين انتهت السنة الأولى وبلغني نبأ وفاة حسن أن أرجع فأعيش في بيت آل السيد. لأنهم مهما يبلغ عطفهم لن اكون في نظرهم إلا مصدر شؤم عليهم، وقد حدثت بهذا الأمر والدي فأيدني فيه وقال: سأبحث لك عن منزل آخر؛ ولا أنسَ اني ودعت المدرسة الإسلامية بحضور تمثيلية لاول مرة عن حياة الكتّاب الذي كان قبل ظهور المدرسة الحديثة، وضحكت كثيراً، ومن بعد جمعت عدداً من ابناء القرية واعدنا تمثيل المسرحية فكانت صورة جديدة في حياة القرية نفسها.

وبعد أيام أعلمني والدي أنه كلم امرأة صديق له من قرية الطيرة (القريبة جداً من حيفا) وأنها وافقت على أن أسكن عندها.

ولأول وهلة وافقني البيت الجديد لأنه كان قريبا من المدرسة الحكومية في وادي النسناس حيث قدمت أوراقي لدخول الصف الرابع الابتدائي فيها.

وفي غمرة الحياة الجديدة نسيت «الهدف السريّ» إلى حين لأن تحقيقه أمر يكاد يكون مستحيلاً.

VII
سنة ثانية في حيفا

كانت (أم محمود) صاحبة البيت الذي قدر لي أن أعيش فيه تعول ابناً هو محمود وابنتين، وكانت هي الزوجة الثانية لصديق والدي وهي تعتمد في معيشتها على بيع الأرز المطبوخ في اللبن الرائب، ولا أدري مبلغ ما قدمه والدي اليها من مساعدة مالية.

وكان البيت الذي تستأجره يقع تحت الأرض في بناية ذات أربعة طوابق ، وكنت أنزل إليه على أربع درجات أو خمس، وكان طعامنا اليومي هو ما لم تبعه من «اللبنية»؛ ومشت الأيام دون تذمر أو شكوى.

وكان في آخر الشارع الذي يقع فيه المسكن عمارة فخمة يسكن في أحد أدوارها آل الزيبق، وقد تعرفت على هنري وأخيه توفيق بل أصبحت أزورهما في بيتهما أو نذهب معاً في الصباح إلى المدرسة، وكان يلفت انتباهي قبل أن نصل المدرسة بقليل مدرسة تدعى « المدرسة الانجليزية للبنات » وكنت أعجب بأزيائهن الموحدة وجمال الصبا لديهن.

وفي مرة كنت في بيت آل الزيبق فرأيت فيه قزماً قصير الساقين، فسألت هنري: لماذا يتردد هذا على بيتكم؟ فقال لي – دون أن يتلعثم – إنه يحب أختي فصدمتني هذه الحقيقة، وفتحت أمامي باباً لفهم فرق شاسع بين ابن القرية والمدينة.

لا ريب في أن جوّ المدرسة الحكومية أرحب من جوٍّ المدرسة الاسلامية، وأساتذتها أظهر كفاية تعليمية .

لكن الصدمة الثانية التي تلقيتها بعد الصدمة الزيبقية كانت هي ما قام به مدير المدرسة ذات يوم وكان هو محمد عبد السلام البرغوثي، فقد جمع طلاب المدرسة كلهم في القاعة الفسيحة الواقعة في الدور الاول منها.

ووضع أمامهم طالبين وأخذ يشير اليهما ويقول :– مستعملا لغة الجمع هربا من استعمال المثنى : « هؤلاء هم الذين لطخوا سمعة المدرسة، هؤلاء هم الذين أساءوا إلى اسمها ...... هؤلاء.............. ».

وأنا أعجب لهذا التشهير الذي لا يصد مذنباً عن ذنبه ، بل ربما زاده إمعاناً فيه.

ترى ما هو الذنب الذي اقترفه الطالبان؟ إن الطريقة التلميحية التهويلية التي تنساب فيها كلمات المدير الانفعالية قد تشير إلى أنه ذنب كبير، ولكن المدير ربما كان يخجل من ذكره بالاسم.

لا بد أن يكون ذنباً مشنوعاً ، في نظر الدين والمجتمع، وربما كان الظرف لا يسمح بالحديث الصريح عنه.

كان المدير هو معلم الرياضيات ، وكان رجلاً عاقلاً معروفاً بالاتزان ، وحسن التقدير، فلماذا كل هذا؟!

لم أقض في بيت أم محمود اكثر من نصف سنة دراسية ، ووجدت هي الفرصة سانحة في احدى العطل المدرسية لتقول لوالدي : أنا امرأة عندي بنتان ، وابنك يكبر، والناس يسرعون إلى القالة ، ولهذا أرجو أن تفتش له عن مسكن آخر.

وكان هذا سبباً كاذباً ؛ والحقيقة أن ابنها محموداً كان هو المدلل لديها دون البنتين، وكان يستعمل ألفاظاً نابية، وكنت أتضايق منه، لتلك الألفاظ ولسوء الأدب، فكان ذلك يحدث توتراً في جو البيت بعامة.

وذات يوم عدت من المدرسة إلى البيت ، فرأيت فتاة ذات حظ من جمال،تجلس على كرسي – وذلك احترام خاص – فقالت لي ام محمود : هذه هي الفتاة التي ستصبح عن قريب خالة لك، فقلت بجفاء: ولكن أمي ليس لها أخت، ولم أسلّم على الفتاة وعدت أدراجي أسلي نفسي بالمشي على الرصيف، حتى اذا سكنت نفسي عدت إلى البيت، وأخذت أذاكر بعض الدروس.

وفي اليوم التالي – وكان ذلك بالاتفاق مع والدي – أخذتني أم محمود إلى بيت أم أحمد، وهي (أي الثانية) والدة الفتاة التي ستصبح خالة لي (أي سيتزوجها أبي)، وهي أيضا من قرية الطيرة.

وهنا شهدت كم كان أبي كريماً، فقد ملأ البيت الجديد الذي سأسكنه بأكياس الدقيق والأرز والفاصوليا والعدس وحاجيات أخرى أكاد لا أحصيها.

وقد عشت في ظل أم أحمد أياماً لا تتجاوز الشهر، وحين عدت من المدرسة لتناول الغداء ذات يوم لم أجد أحداً في البيت وفتشت لعلي أجد شيئا آكله فلم أجد إلا كيساً من الورق في طاقة مرتفعة، فصعدت على كرسي وتناولته ، فتحرك ما في الطاقة من تراب وانهال على رأسي ووجدت الكيس يحوي بعض السكر. فرددته إلى موضعه ، وكان أن أحسّت بوجودي امرأة تسكن في شقة مقابلة ، فقالت لي : لقد رحلت ام أحمد وابنها في حوالي الساعة العاشرة صباحاً وأخذا معهما كل ما في البيت. وها أنا أرسل اليك طعاما تقيم به أودك ، فشكرتها كثيراً، وتناولت الطعام وعدت راجعاً إلى المدرسة وفي المساء كتبت الى والدي رسالة اخبره فيها بما حدث، واعطيتها في صباح اليوم التالي لسائق الحافلة التي تنقل الركاب بين حيفا وعين غزال، فأرسل إلي والدي في

اليوم الثالث جنيهاً واحداً، فأخذت كل يوم أشتري بنصف قرش خبزاً وبنصف قرش عنباً ، وآكل العنب مع الخبز ، وظلَّ هذا هو غذائي مدة حتى جاءت عطلة الصيف، فعدت إلى الريف، ولكني كنت أعرف أن عيشي في حيفا آخذ في الانحدار من سيء إلى أسوأ، وليس في يدي من أمري شيء.

خامرت نفسي فكرة تلبست بي ولا أدري كيف تسللت إلى رأسي الصغير في تلك السن : لا أستطيع أن أرجع إلى القرية وأعدل عن طلب العلم. ربما كنت أول طالب في قريتي يهاجر للتعلم، فأنا إذا عدت لم يجرؤ أي طالب آخر بعدي من قريتي أن يخوض هذه التجربة. نعم أنا لا أقصد من هذا أن أورط الآخرين، ولكني أحب أن يكثر المتعلمون في قريتي.

في الصف الرابع الأبتدائي يبدأ تعليم اللغة الانجليزية، وقد ابتهجت بدروس هذه اللغة ، وبما فتحت أمامي من آفاق، كان مدير المدرسة قد خطب فتاة بشناقية تسكن إلى جوار المدرسة.

فكان يأخذ خمسة منا إلى بيتها ، وهي تلحن لنا بعض الأغاني الانجليزية الصالحة للأطفال لكي نقوم بتمثيل مسرحية تتضمن تلك الأغاني ؛ وكانت المدرسة تضم عدداً من المدرسين ذوي الكفاية الواضحة في التدريس، والنشاط في القيام

بالواجبات المدرسية ، أذكرهم جميعاً وأذكر فضلهم دون أن أثقل على القارئ بتعداد أسمائهم.

لأول مرة درسنا تاريخ العرب من عصر ما قبل الاسلام حتى الحروب الصليبية ؛ وأصبحت الجغرافيا سهلة على ألسنتنا لحذق معلمها وحيويته.

ولعلي في هذه السنة وفي مناسبة عيد المولد النبوي شهدت جموع القرويين تتقاطر إلى الساحة القريبة من جامع الاستقلال، ويكونّ شباب كل قرية حلقة دبكة، ثم لم أر هذا التجمع من بعد. فان الأحزان كانت قد أخذت تطبق على الناس، وتلغي الأفراح من حياتهم. ولكن هذا المنظر والحيوية المرافقة له لم يبارحا خيالي أبداً.

ولعلي أيضا في هذه السنة نفسها (وقبل أن يستقر والدي في حيفا) طلبت من أهلي ان يرسلوا اليّ أخي الأصغر (بكر) لأني اشتقت الى رؤيته.

كنا ثلاثة اخوة أشقاء، اكبرهم أنا، ثم توفيق وهو يصغرني بعامين. وكنا أنا واياه – كلما جمعتنا القرية معاً – نتشاجر، وكان اكثر شجارنا يدور حول طربوش لي قصير، كان توفيق اذا غبت عن البيت وخرجت مكشوف الرأس يلبسه، وكنت أغضب من ذلك،

وكانت أمي اذا نشب بيننا شجار لا تزيد على أن تقول «هوش الحبايب هوش كذاب» أي أن حدة المحبّ على حبيبه (والأخ على اخيه) حدة عابرة كاذبة ثم تنصحنا بان نفيء الى الهدوء. أما بكر فكان هو أصغر فردٍ في العائلة، ولذلك كان محبوباً لدى الجميع، وبخاصة لديّ. وقد نشأ بكر وشبَّ، وهو في كل مراحل حياته ذو شخصية ساحرة، تتميز بألق الذكاء وبحدّته وبحضور البديهة ودقة الحكم.

وأرسل اليّ بكر في حيفا. وانتظرته عند موقف الحافلات، ذهبنا نتجول في المدينة، وفيما كنا ننزل احدى سلاسل الأدراج الطويلة في حيفا - وهي كثيرة - وقع من درجة الى أخرى واصطدمت جبهته بالأرض، فورم مكان الصدمة، فأخذ يضع يده عليها ويقول لي ولنفسه: انها صغيرة، ولكن أهل حيفا سيعلمون أنني أستطيع أن أهينهم، يقول هذا بلهجته الريفية المضحكة وبتنفج لا يكافىء سنه، وأنا أضحك وأقول له: هوّن عليك انها بسيطة ولا تستحق مراجعة طبيب، ولا أذكر أنني اشتريت له شيئاً أو سررته بهدية، وأنى لي بذلك؟ وقد ظلّ هو يذكر هذه الزيارة للمدينة ويحدّث بها الرجال الكبار حين يجيئون الى الديوان، وهم يسألونه عن مصير أهل حيفا بعد زيارته لها.

VIII

والدي يستقر في حيفا

كدت يومئذ لا أصدق ماأسمعه. والدي قد قرر أن يتخذ له متجراً في السوق العام بحيفا، واختار له مركزاً متوسطاً في السوق، وله فيه شريك هو محمود عبداوي، وهو ابن صديق لوالدي بدوي اسمه عبداوي أحمد الموسى من عرب الشقيرات بين حيفا وعكا. كان والدي شريكه في تجارة الحلال ثم اصبحا شريكين في محل لبيع البقالة.

واصبح هذا المتجر (أو الدكان) المكان الذي يحلو لي الجلوس فيه أرقب أمواج الناس في السوق واشهد عملية الشراء والبيع وكان هذا كله يعني ان والدي سيقيم في حيفا. إذن فمشكلة العثور على مسكن لم تعد صعبة .

استأجر الشريكان بيتاً في وادي النسناس ، وجعلا لي في إحدى غرفه مكاناً أنام فيه. وأعدّ واجباتي المدرسية.

كنا نعد بعض الطعام البسيط في البيت وأحيانا نطلب طعاماً من السوق. وفي مقابل المتجر مطعم يقدم السحلب وغيره للفطور.

كان ازدحام الناس على المتجر، وبخاصة في شهر رمضان ظاهرة لافتة للنظر، وكنت أشارك أحياناً في تسريع أعمال البيع للزبائن. ومرت بي تجارب حقيقية ووهمية.

جاء يوماً إلى الدكان رجل كبير فيالسن ذو لحية بيضاء قصيرة، وطلب ان اكتب له رسالة إلى أهله في بير السبع، فأحضرت القلم والأوراق وعرفت منه أنني أخاطب أسرته آل الشرفا في تلك البلدة، فعسرت عليّ الكتابة أول الأمر، ثم استحضرت في ذاكرتي قصيدة ابن زيدون

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ونثرت مجموعة من أبياتها، ثم قرأتها على الرجل، وأخذني الارتياع وأنا أشهد دموعه تتسايل على لحيته، وشكرني الرجل، وتسلم الرسالة، ومضى لشأنه.

وفي أحد الأيام رأيت وسط الجموع السائرة في السوق فتى طويل القامة، يلبس جلباباً طويلاً نظيفاً، ويضع على رأسه طاقية، فقلت لمحمود: هل ترى ذاك الشخص، انه يبدو وجيها من وجهاء المدينة، فابتسم محمود وقال لي: هذا رجل أبله لا

يستطيع أن يصوغ جملة واحدة مفيدة، فأحسست بالندم لأني لا أزال غريراً لا فراسة لي في الناس.

ومرة رأيت صوفياً ذا لحية طويلة، يشير نحوي بلحيته أو هكذا خيل إلي، ورسخ في نفسي أنه يلعنني، لأنني كنت حينئذ أدير في نفسي هاجساً لا دينياً.

وفجأة صحوت من إحدى سرحات اليقظة، وتذكرت أمي واخوتي في القرية: ترى كيف يعيشون، وما حال أراضينا وفلاحتنا على يدي محمود أخي لأمي، وقد ابتعد عنهم والدي واستقل بنفسه في حيفا؟.

وجاءني الردّ على تساؤلي من أحد أبناء القرية – دون أن أسأله– قال: ان اختك ووالدتك تعملان في غربلة الرمل على شاطئ البحر لأن شركة تنوي جمع الصدف وطحنه وخلطه بالاسمنت. أدركني الفزع والامتعاض. إلى هذا الحد تجور علينا الأيام؟ وتركت الدكان ومشيت في السوق وأنا أحمل هماً ثقيلاً، ثقيلاً.

وازددت يقيناً بأنا جميعاً ضائعون حين تخلينا عن الزراعة والأرض؛ جئت إلى الدكان في يوم آخر، وأنا أريد أن أرى والدي، وحينما سألت عنه محموداً أنبأني أنني قد أجده في المقهى المحاذي للسوق قريباً من موضع الحسبة، ومن مركز الشرطة.

فذهبت لرؤيته ، فوجدته غارقاً في لعب الطاولة ، وكلما خسر «دقاً» في اللعب دفع لخصمه عشرة قروش ، واستمر اللعب وكثرت العشرات وأنا احتدم غيظاً، ثم تركت المقهى وعدت الى الدكان دون أن احدث والدي بشيء ، ودون أن ينتبه لوجودي.

ولم يهتم محمود بالحزن المختلط بالغيظ في قسمات وجهي، ولم يسألني عن والدي. وأدركت أن محموداً الشاب يعرف كل ما هنالك ، ولا يحاول أن يعلق على الموقف بكلمة .

ولكن محموداً – من بعد – حدثني ان سبباً من أسباب إقبال الناس على المتجر سياسة والدي في استدراج الزبائن فهو يبني ذلك على المهاودة، وإنزال سعر السلعة إلى حدّ الحصول على ربح ضئيل جداً أو بيعها برأسمالها .

وهذه طريقة لا تدر ربحاً يقوم بأجرة البيت وثمن الطعام و ....الخ وإنما هي موهمة للآخرين لأنها تصرف الزبائن عن البقالات الأخرى، غير أنها تفتقر إلى أهم اركان التجارة، وهي إضافة ربح إلى رأس المال ومن ثم فان البقالة لم تعمر طويلاً ، ورأى محمود أن يستقل عنّا ، فتزوج ابنة صاحب مطعم السحلب المقابل ، وأقام عرساً دعا إليه الكثيرين ، وحضرت جانباً من حفلات العرس، ولأول مرة أسمع ما يغنيه أهل المدينة في

أعراسهم وكل هذا أدى بمحمود إلى استئجار بيت جديد، وهكذا وجد والدي نفسه مضطراً إلى تصفية الشراكة والعودة إلى القرية.

لكن والدي الذي امتلأت نفسه بالاعتقاد أن الرزق الحقّ مقرون بالتجارة، عاد يزاول تجارة الحلال ، وخطرت له فكرة تجعله ثرياً ، إذ رأى أن سعر الحمص آخذ في الارتفاع ، فاشترى أطناناً منه ، والسعر يرتفع ، وكلما ارتفع زاد إيمانه بأنه سيجني أرباحاً طائلة.

ولم يبع الحمص في الآونة المناسبة، وظلّ ينتظر، وأخذ السعر في الهبوط. فاضطر إلى بيع ما جمعه بخسارة أوقعته في براثن الدين.

وحين دخلت إلى بيتنا ذات يوم وجدت أمي وأختي في حالة حزن شديد وبكاء صامت، ولما سألت عن السبب ، قالت امي : إن والدك قد باع قطعتين من أرضنا ليسد دينه.

فأخذت أعزيهما عما حدث (وأنا في الحقيقة أشاركهما الحزن) وأقول إنه باع الأرض لأحد أهل بلدنا ولم يبعها لليهود فالأرض لم تذهب إلا من يد عربي إلى يد عربي آخر، وما نزال نحن بخير لأننا نملك – والحمد لله – قطعاً أخرى كثيرة.

وكنت أنا ناقماً على نفسي بسبب هذا التسويغ الكاذب لما فعله أبي، فان الأرض في نظر المالك الفلسطيني الصغير هي كل شيء في الحياة، وفي سبيلها ومن أجل الحفاظ عليها يستهين بكل شيء آخر.

غير أن عودة والدي الى القرية أحيت السؤال المزمن: أين أسكن؟ تأمل والدي قليلاً ثم قال: ليس لك إلا بيت الشيخ أحمد السعدي الذي نزلنا عنده أول ليلة جئنا معاً فيها إلى حيفا.

IX

سنوات في بيت الشيخ أحمد السعدي

كان للشيخ أحمد السعدي بيت يملكه في حي وادي الصليب ، يتألف من غرفتين ، وكأنه قد نقله من قريته (الطيرة) ووضعه في حيٍّ شعبي يأوي اليه اكثر القرويين الذين يهاجرون إلى المدينة، والغرفتان علويتان فوق غرف أرضية يسكنها ريفيون من قرية سلواد وغيرها وإلى جانب الغرفتين العلويتين غرفة ثالثة يسكنها محمد المشهور بـ « الأباجور » وهو ابن أخت زوجة الشيخ التي يناديها الناس بـ « أم سعدية».

كنت أعرف الشيخ أحمد وزوجته منذ زمن بعيد إذ كانا يقضيان شهري تموز (يوليه) وآب (أغسطس) من كل صيف في منزلنا، وكان الشيخ قد كبر سنه وضعف نظره، وكان هو وأم سعدية مغرمين بتدخين النارجيلة.

وكانت بنتهما سعدية متزوجة في الطيرة، ولها بنت تسمى «بدرية» وكان حديث الشيخ وزوجته يدور في اكثره على حفيدتهما.

وانضم إليَّ في بيت الشيخ طالب من بلدنا هو محمد خالد وأبوه خالد هو مختار القرية ، فأنست به، وكان محمد هذا أقدر مني على فهم الناس في المدينة، وألبق مني في التقرب إلى الشيخ وزوجته ، بمداومة الخدمة، وتلبية ما يريدان . ولكنه لم يكن ميالاً إلى الدرس ومتابعة التحصيل .

وقد خصصت لنا إحدى الغرفتين، وأمامها فسحة واسعة تصلح للنوم في غير فصل المطر.

ولم يلبث أن انضم الينا ثالث من أبناء القرية هو ابراهيم محمد ، وقد أرسله أهله ليتعلم صنع الأحذية، فكان يتمرن في هذه الصنعة على يدي عبد الكريم سندس، أحد مشهوري صناع الأحذية للرجال والنساء.

وكان ابراهيم متديناً ، وبهذا يختلف عني وعن محمد خالد ؛ وقد زرته في المصنع الذي يتدرب فيه ورأيت معلمه عبد الكريم ، وفهمت من طريقة لبسه، وأنواع الأحذية النسائية الجميلة عنده لم كان زير نساء وكان سلوكه هذا يعذّب ضمير ابراهيم، اذ كان يستقبل النساء في سُدةٍ غير مسموح لابراهيم ان يصعد اليها. وكان ابراهيم يستعيذ بالله من شيطنته، ويدعو الله أن يغفر له. وقد تعرف لديه إلى آخر (موديلات) الأحذية التي تصلح للقرية والتي لا تصلح.

وعندما عاد إلى القرية كان صانعاً ناجحاً ولقي إقبالاً كبيراً ، وتزوج فتاة جميلة ، وكان يعتقد أن تدينه هو سر توفيقه في صنعته وفي زواجه.

وأما محمد الاباجور فكان صاحب الفرن الواقع عبر الشارع الضيق الذي يفصل بين بناية الشيخ السعدي والبيوت الواقعة مع الفرن على الجانب الآخر من الشارع.

وطوال وجود محمد خالد عند الشيخ السعدي كنت مسؤولاً عن أخذ العجين إلى الفرن ، وانتظاره حتى يخبز والعودة به إلى البيت ، وكان محمد خالد مسؤولاً عن تحضير النارجيلة، وتهيئة الجمر لها.

وفي احدى الغرف الواقعة على صف الفرن يسكن شاب، يضع كرسياً أمام غرفته (في الشارع) ويجلس عليها ، وقد عرفت أن اسمه صالح وأنه من قرية الطيرة.

ولما عرف أنني تلميذ سألني مرة: من هو اكبر شاعر في العصر الحديث ، فقلت : لعلك تعني أحمد شوقي ، قال لا . قلت : فمن هو إذن في رأيك ؟ قال: محمد عبد الوهاب، اسمع ما يقول:

ونجمه مالت ، ونجمه حلفت ما تتأخر

والنوم لذة يحلم بها الساهر

قلت : هذا حقاً شعر جميل، وصاحبه كما تقول.

ولم أعد أرى صالحاً الطيراوي بعد ذلك ولكن لفت انتباهي أن فتاة بدوية أصبحت تشغل الغرفة المجاورة لغرفته.

ذلك أن حيفا أصبحت تعجُّ بالمهاجرين من القرى الفلسطينية ومن حوران، لأن العمل في الميناء ابتدأ وأصبح العمل في البور (port) على كل لسان؛ وكانت عائشة الحورانية جارة صالح وجارة الفرن عاديةً في جمالها ، قد دقت الوشم بين عينيها، فهام فيها الأباجور وظنها صيداً سهلاً ، وكانت معظم ضحاياه من النسوة اللواتي يأتين في الصباح إلى حيفا ليبعن اللبن ، وكان يشتري اللبن الحليب منهن، من أجل أنواع من الخبز التي يعدها للبيع ، وكانت زوجته ليلى امرأة لا حظ لها من جمال.

وكان هو بعين واحدة ، وقد عقرب خصلة من شعره على جبينه ، وأغرق شعره بأنواع الدهون؛ وكثيراً ما سمعت زوجته تشكو تصرفاته مع الأخريات إلى خالته أم سعدية.

لجأ الاباجور إلى طريقة غريبة ليكتشف ان كانت عائشة الحورانية ستقبله أو لا ، كان يأتي بمفتاح ويفتح المصحف كيفما اتفق، ويضع المفتاح حيث فتح المصحف، وأدخل في عروة المفتاح عوداً ، أمسك بطرفه ، وطلب مني أن أمسك بالطرف الآخر، وأخذ يتمتم بكلام لا أسمعه.

وأخذ المصحف يدور وهو معلق، وكنت أعزو دورانه إلى أن يدينا قد تعبتا، وكان يعزو ذلك إلى شيء آخر .

وعندما ينتهي من التمتمة والزمزمة أنصرف إلى غرفتي من غير أن أسأله إن كان حظّه ايجابياً أو سلبياً، قضينا عدة جلسات على هذه الحال، لأنّ عائشة الحورانية قد صدته وتمنعت عليه، ولكن الأمر انتهى به إلى تزوجها ، ورزق منها بولد، وهذا أثبت له أن ليلى كانت عاقراً.

ولشد ما استغرب من يعرفونه كيف كف عن مطاردة النساء، وكيف شغلت عليه عائشة وطفله منها حياته، (وكل هذا عرفته بعد مدة حين عدت إلى حيفا بعد أن فارقتها).

كانت أم سعدية ما تنفك تحاول إثارة حماستي في الخدمة المنزلية وحماسة محمد خالد ، وتقول لنا: الشاطر منكما سأزوجه بدرية (أي حفيدتها) وكنت أدرك أن هذا كلام وحسب، إذ كنت قد رأيت بدرية في إحدى زياراتها لبيت جدها، فلم أجد فيها ما يستحق التفاني في العمل ، ولكن ليس معنى هذا أنني كنت كسولاً مهملاً بل كنت أبذل جهدي وعندما فارقنا محمد عائداً إلى القرية ، أصبحت أيضاً مسؤولاً عن تحضير النارجيلة وان لم أبلغ من اللباقة في ذلك مبلغ محمد.

وأضيف إلي عمل ثالث هو كتابة الحجب (جمع حجاب) على شرائح ورق يعدها الشيخ، بحروف مقطعة.

ثابرت على أداء ما قاله الشيخ بكتابة السور القصيرة بحروف مقطعة ، ثم خطر لي ان الحجاب قد يلقى في مكان غير نظيف أو غير طاهر ، واستولى عليّ هذا الشعور بقوة ، فجعلت اكتب في الحجاب حروف الأبجدية الأنجليزية أو اكتب بعض الأغاني الريفية بحروف مقطعة ، دون أن أخبر الشيخ بالتغير الذي حدث. وبعد ذلك بسنوات تلبس بي شعور مناقض ، وهو أن عدم إخباري للشيخ بما صنعته ، إنما هو ذنب اكبر ، وأنني هربت مما عددته إثماً إلى إثم آخر. لكن الشيخ لم يكتشف ما صنعته ، وكان يربط الحجاب ربطاً محكماً بالخيوط ويوصي من يأخذه بأن لا يفتحه؛

كان دخل الشيخ مقصوراً على ما يدفعه المستأجرون ، وما يقدمه طالبو الحجب – دون شرط – واكثرهم من النساء وكانت صناعته رائجة ، وبركاته ذات أثر بالغ.

قضيت في منزل الشيخ أربع سنوات، واقراراً بالحق اقول ان الحياة كانت قليلة المنغصات. وكنت قد تعودت على تقبل الحياة كما تجيء.

لا أتذكر ألوان الطعام التي كانت تقدم لنا في بيت الشيخ، إلا أكلة الكبة النيئة التي كانت تتقنها أم سعدية، على الرغم من أن القرويين لا يعرفونها، ولعل أهل حيفا اقتبسوها من لبنان.

أما الدجاج فلم يكن يقدم على خوان الشيخ أحمد لأن الدجاج كان يقدم حين يقضي الصيف في القرية، وأهل القرى يذبحون الديوك، ويستحيون الفراخ أملاً في أن تكبر وتمدهم بالبيض. وهم ماهرون في صنع أكلة المسخن، من خبز الطابون منقوعاً بزيت الزيتون مغموراً بالبصل وديوك محمرة. وكنت اسمع المنادي في شوارع حيفا في الصباح يقول: «أكل الصبح تمرية» ولكني لم أذقها وفارقت حيفا وأنا لا أعرف ماهي، وكان آخر يصيح قائلاً: « ملبن الهدايا ياملبن» وهو شيء عرفته بعد سنوات.

وفي خلال أربع سنوات تحدث أمور كثيرة ، وسأختار منها نماذج أقصها ، وإن كانت تبدو غير مترابطة : إلا نها جميعا تجمعها وحدة الشخص والمكان :

١- كان في منزل الشيخ فونوغراف ، لا أدري كيف أو متى وجد هنالك ، وكان مصدر تسلية لنا ولمن يزورنا من أبناء القرية.

ومرة جاء قريب لي هو محمد مرعي (من فرع جدتي) وبعد أن اطمأن به المكان اقترح أن أسمعه إحدى الاسطوانات، وكنت مغرماً بأغاني محمد عبد الوهاب، فوضعت على الفونوغراف أغنية:

تلفتت ظبية الوادي فقلت لها لا اللحظ فاتك من ليلى ولا الجيد.

وكان الرجل بسيطاً لا تهمه معاني الشعر ويجمع إلى بساطته حب المرح فقال لي: ما هذه الأسطوانة الرديئة؟ لماذا لا تسمعنا أغنية مثل مشحر يا جوز التنتين، معفر يا جوز التنتين» أو مثل:

« يا ماما بدي عريس ... الخ » فطاوعته ووضعت له الأسطوانة الأولى وكنت شديد العزوف عن مثل تلك الأغاني، فظهر عليه السرور، وقال: هكذا فلتكن الأغاني.

٢- وكان لي زميل في المدرسة اسمه علي شحادة الغبيري، وكان يتميز باختلاق أساطير عن نفسه وعن أصدقائه.

فيحكي لنا مثلاً كيف وضع أحد أصدقائه في كيس وحمله على كتفه، ثم وضعه إلى جانب دكان، فكان ذلك الصديق يخرج من الكيس، ويغافل صاحب الدكان ويسرق ما يستحسنه وبخاصة من حلوى تشبه في شكلها قوالب الصابون النابلسي، وكيف يفوز هو وصديقه بالغنائم دون أن يحس بهما أحد.

وكنت أستمع إلى ما يسرده دون أن أصدقه ، ولا أدري لم اختار أن يكتب رسالة إلى الشيخ - ظنا منه أنه يقرأ - فأعطاني الشيخ الرسالة لأقرأها له، وتملكتني الدهشة ، لأن الرسالة كانت كلها عني. وفيها اتهام لي بأني متكاسل في دروسي ، وأن الأساتذة دائما يوجهون إلي التوبيخ الشديد ، وأنني أضيع وقتي في اللعب ، وهكذا. فجلست وكتبت رداً عليه ، ووجهت إليه «جميع الصواريخ» الدفاعية والهجومية التي تعلمناها في المدرسة، مثل :

سكت عن اللئيم فظن أني　　　　عييت عن الجواب وما عييت

ومثل.

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً　　　　لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

وغير ذلك ، واكدت له أنه ليس أحرص مني على مستقبلي. ولم اكتف بذلك ، بل اني حين ذهبت في اليوم التالي إلى المدرسة، أخذت رسالته معي ، و أريتها لأستاذ الجغرافيا، وهو يومئذ اميل خوري ، وكنا نقف أنا وهو أمام ذلك الأستاذ في غرفته.

فماكان من اميل خوري إلا أن صفعه حتى أخذ يتدحرج من أحد طرفي الغرفة إلى الطرف الآخر ، وأسمعه تأنيباً شديداً ، ثم التفت إلي وقال : وأنت أيضا تستحق العقاب (لأنه أطلعه على رسالتي اليه) ولكن البادي أظلم. فاذهبا و لا تعودا إلى مثل هذا.

٣- كان أستاذ مادة الدين هو الشيخ تقي الدين النبهاني الذي عرف من بعد بتأسيس حزب التحرير الاسلامي ، وكان يجمع عدداً من الطلاب على سدة جامع الجرينة أو في بيته ، ويفسر لنا آيات القوة والاعداد للعدوّ فاذا كنا على سدة المسجد ، ومرّ بنا من يشتبه أن يكون مخبراً غيَّر الموضوع، وفي المراحل الأخيرة وجهنا إلى مدرسة تسمى مدرسة الاستقلال - بالاتفاق مع صاحبها - لنتمرن على التصويب بالمسدس؛ وأذكر أننا اجتمعنا مرة بالمسؤول عن التدريب ولم نكد نجلس حتى أحيط بالمدرسة ، واضطررنا إلى الهرب من أبواب متفرقة وعاد كل منا إلى بيته ، ولم نجتمع بعد ذلك ، ولم نتعلم التصويب.

وكان الشيخ تقي الدين في الاجازات يعود إلى قريته «إجزم» ويجيء أحياناً إلى قريتنا ليزور صديقه الأزهري الشيخ محمد مفلح سعد ، ومن جاء من إجزم إلى بلدنا سالكاً الطريق القصيرة لا بد أن يمرّ بالبيادر الواقعة إلى شرقي دارنا ، وفي إحدى الاجازات. تسلمت دراسة القمح على البيدر في عقبة (نوبة) صباحية ، وكنت واقفاً على اللوح ، والفرس تدور حول عرمة القمح ، إذ رأيت الشيخ تقي الدين مقبلاً ، فوقّفت الدرس لأسلم عليه. وبعد الغداء عاد إلى قريته، فمر وأنا أدرس في عقبة ما بعد

الظهر ، فقال لي : أتعمل من الصباح حتى هذا الوقت فهززت رأسي بالايجاب (ولم يكن ذلك صحيحاً).

فذهب إلى والدي ، وكان يجلس تحت شجرة الخروب القريبة من البيدر ، وتحدث اليه في الأمر ، ونصحه ألا يكلفني كل تلك المشقة. وودعنا عائداً إلى بلدته.

والحقيقة أنني كنت أعمل ذلك برغبة مني ، اذ كان أهلي قد أعفوني من العمل في شؤون الفلاحة .

وكنا في القرية ، أثناء العطل المدرسيةنتجول في الحقول أو نجلس في الديوان ، أو نختار ما نقرأه مما ليس مقرراً في المدارس، وكان الشيخ محمد مفلح سعد ، يعود من مصر ومعه كتب مجلدة تجليداً أنيقاً ، فكنا نذهب إلى ديوان آل سعد ، ويختار كل منا كتاباً ونمضي وقتاً طويلاً في القراءة ، ولذلك كان رفاقي في العطل المدرسية هم الفئة الصغيرة المتعلمة في القرية . وعلى رأسها أحمد سلامة خريج الاصلاحية والشيخ محمد مفلح وسعيد راجح جدعان وآخرون ، وكنا نرتاد كرم آل سعد على جبل الرأس ، وكرمنا المحاذي للوادي الشامي ، قبالة جبل العرنين وبيدر آل جدعان المحاذي لكرمنا من الجهة الغربية. وكانت هذه الجولة بين الرأس والعرنين تعني التجول من أقصى

الجنوب إلى أقصى الشمال في القرية، وكان أحمد سلامة يمنح جلساتنا وجولاتنا نكهة جميلة بما يورده من نكت، قرأها في مجلة البعكوكة أو في كتاب الكشكول أو في المستطرف، وكان ذا لمح خاص للمضحك في تصرفات الريفيين وأقوالهم. وحين يجد أن النادرة التي وجدها في قراءاته قد لا تجد استجابة ضاحكة لدى سامعها، فإنه كان يغير فيها بعض التغيير ، أو يضيف اليها إضافة صغيرة لكنها بارعة. وقد كان هذا يمكنه من إعادة النكتة وهو عارف بذلك ، ولكن الاثارة في كل مرة كانت تتصاعد في مستواها لأنه اهتدى إلى حركة تصاحب القول وتعلي من تأثير النكتة.

وحين كنت أغيب عن القرية ، كانت رسائلي إليه ورسائله إلي متواترة وذات يوم كنت أمشي في أحد شوارع حيفا وأمامي خادمتان تتحدثان بصوت عالٍ ، واحداهما تذكر ستها (سيدتها) مريم فنبه هذا الاسم شيئا غافياً كان في نفسي.

وقلت لنفسي حين انعطفت الفتاتان في شارع جانبي ، هذا ما ألهاني عنه التوجه الكلي إلى الدراسة. وكنت أدرك أني – بهذا الشعور – أسير وراء أضواء مضللة ، فكم أنثى في هذه المدينة الكبيرة تسمى « مريم ». ولكني على الرغم من هذا الادراك الواضح كتبت إلى أحمد سلامة رسالة مموهة ، لا توضح شيئا ،

وإنما تتحدث عن بصيص من أمل. وتلوّح ولا تصرّح. ولم تمض بعد ذلك إلا أسابيع قليلة حتى داهمت الشرطة بيت أحمد سلامة، وفتشته تفتيشاً دقيقاً وقلبت رسائلي اليه، وحاولت أن تستشف منها شيئاً، وكان يحضر هذا التفتيش الدقيق مختار القرية خالد عبد الله (والد محمد الذي كان زميلاً لي في المدرسة) ودافع المختار بكل قوته عن ما توقف عنده رجال الشرطة ونسبه إلى حبّ الدعابة والمزاح؛ لم أعرف ذلك إلا حين جاء أحد المعلمين في المدرسة إلى الغرفة التي أجلس فيها وأشار إليّ، ولما غادرت المقعد قال لي: ان والدك يريد أن يراك، فاضطربت بشدة، وخرجت للقائه عند باب المدرسة. فأخبرني أن الشرطة قد تجيء إلى حيث أسكن لتحقق معي، وأوصاني أن اكون قوياً بعيداً عن الاضطراب، وحكى لي القصة كاملة. كنت أصغي إلى والدي باهتمام، ولكن لم يثنني ذلك عن معاينة الجاكتة التي يلبسها. إنها شيء غريب لأنها تشبه جاكتة رجل عسكري بجيوبها وطريقة تفصيلها. وقلت لنفسي : هذه الجاكتة شارة لتعثر الرزق، لأنها بكل تأكيد من البالة، لا بأس يا أبي. كنت سألتك حين فارقت القرية أن تسمح لي بأن لا أقبل يدك عند اللقاء، لأن كل شيوخ البلد سيجيئون ليسلموا عليّ لدى عودتي، إكراما لك، فاذا أنا قبلت يدك كان لزاماً علي أن أقبل أيديهم. انني

بهـذا الطلب لا أجـحـد فـضلك فـأرجـوك أن تفـهـم مطلبي على حقيقته، الآن أشعر أني مخطئ في حقك. كان من واجبي أن أقبل يديك الاثنتين لأنك تجوع لأشبع، وتلبس من البالة، لتوفر لي ثمن بدلة الكشاف ، (وكان أحد المعلمين المسؤول عن فريق الكشافة ، قد أصر على أن أنضم اليهم ، على الرغم من اعتذاري المتكرر عن ذلك، لأني أعلم الحال المالية السيئة التي يعاني منها أبي).

٤ – أثارت زوجة الشيخ – أم سعدية – مشكلة صغيرة ، لكنها لم تزل تنفخ فيها حتى ضخّمتها.

قالت: إنك تطيل السهر في إعداد واجباتك وهذا يعني أنك تصرف كثيراً من زيت الكاز، كانت حيفا أو بعض أحيائها مثل قريتنا دون كهرباء وكنا نستعمل قنديلاً زجاجياً ذا فتيلة يملأ بزيت الكاز ، وتشعل الفتيلة ، وتحاط بزجاجة مخروطية الشكل ؛ ما تقوله هذه السيدة صحيح ، ولكن الحل ليس في يدي ، وأخيراً اهتديت إلى حلّ: لا أسهر ولا اعدّ واجباتي وانما اصحو باكراً وامشي الى المدرسة. فاذا وصلت إلى الشرفة التي تمتد أمام القاعة الكبرى فيها جلست على حائط الشرفة ، وحللت مسائل الحساب وفروض النحو وما إلى ذلك ، فاذا دق الجرس في الثامنة اكون قد انتهيت من كل الفروض.

وكنت أعود من المدرسة بعيد الرابعة سالكاً الطريق الطويلة إلى البيت ، لتقل حاجتي للجلوس إلى الطاولة ، فالجلوس إليها يُغري بالقراءة والكتابة ، وقد أخذ المساء يلفُّ الأفق، وكنت أتعمد التأخر في العودة لأني كنت أقف عند حائط المقبرة القريبة من جامع الاستقلال ، وهناك أرى الكتب المستعملة مصفوفة للبيع بمحاذاة جدار المقبرة، فأتوقف لأقرأ عناوينها ، دون أن اشتري منها شيئاً؛ بلى: اشتريت نسخة مطبوعة في بيروت من ديوان ذي الرمة غير مشروحة أو مشكولة وجعلت اترنم بقراءتها، دون أن أفهم كثيراً من ألفاظها ومعانيها، فشعر ذي الرمة وبخاصة في وصف الصحراء صعب كثير الغريب ولهذا كنت اردد غزلياته في مي وخرقاء حتى حفظت معظم الديوان وظلت أخطاء كثيرة عالقة بلساني حين اردده وقدرت ان يكون شعر ذي الرمة من أجمل الشعر العربي مع ضعف اطلاعي على سائر الشعر العربي.وعند جدار المقبرة منصة صغيرة يقف عليها رجل تدل لهجته على أنه مصري. وهو يلقي خطبة على الناس المتجمهرين هنالك، لا يغيرها ، ولكثرة سماعي اياها حفظتها وأعجبني ما فيها من مفارقات وطرافة. وأنا أكتب بعضها هنا « اعلموا أنه لما تجلى ربنا للجبل جعله دكاً و خرَّ موسى صعقاً. قال رب أرني أنظر اليك قال : لن تراني .... وهذا الدوا يا

إخوان قد حضره الدكتور عبد الكريم الهندي خصيصاً لحجاج بيت الله الحرام في هذا العام وهو يباع مجاناً بقرش صاغ واحد لا غير ، وهو ينفع من الرشوحات والنزولات و .... الخ».

وإذا انتهى من خطبته أخذ يردد أشعاراً فيقول مثلاً :

نعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

وإلى جانبه غلام يردد وراءه الكلمة الأخيرة «بلا قتال»؛ وكان هذا يومئذ في نظري شيئا طريفاً مسلياً ، وهو في الوقت نفسه يجعلني أنسى العودة إلى البيت.

كان هذا هو مسرحي الذي أرتاح فيه وإليه ، فاذا امتلأت نفسي منه جعلت أحوم حول جامع الاستقلال.

٥– وحين عدت ذات يوم من القرية إلى المدينة ، ووصلت جامع الاستقلال اشتريت صحيفة ذلك اليوم (سنة ١٩٣٥) ورأيت فيها صورة الشيخ عز الدين القسام، وعرفت أنه استشهد ، فغامت الدنيا في عيني لكثرة الدموع.

كنت أصلي الجمعة في هذا الجامع نفسه ، وكان الشيخ القسام رجلاً مديد القامة طويل العمامة مستطيل الخطبة ، لا تسمع فيها شيئاً ضدَّ الانتداب ، ولا تحس أنها تتفجر بالثورة. وكان إرسالها على وتيرة واحدة يجعلني أشعر بالملل، ولهذا فوجئت

بأن الشيخ كان ينطوي على ثورة شديدة ، وكان له أتباع، وكان يرتب للجهاد .

وكنت أحب أن أصلي الجمعة في جامع الجرينة ، يوم لا يكون الخطيب فيه هو الشيخ يونس الخطيب ، لأنه كان رجلاً قد فقد أكثر أسنانه، واضطربت مخارج الحروف في نطقه ، وإنما أحب الصلاة فيه إن كان الخطيب هو ابنه بدر الدين الذي كان يلهب النفوس بخطبه. إذ يشير إلى بعض المشكلات التي يتعرض لها الوطن من جراء الهجرة اليهودية أو غيرها من القضايا. وكان الشيخ تقي الدين يصلي في هذا الجامع ، فتطمئن نفسه إذ كان يرى طلابه يصلون.

وكان قد فرض على كل طالب ، أن يحمل دفتراً صغيراً ، يكتب فيه ولي الأمر شهادته مؤرخة بأن ابنه أو الطالب الفلاني مواظب على صلاته، ولم يكن الشيخ السعدي يستطيع الكتابة ، فكنت اكتب أنا نص الشهادة ، ويضع هو ختمه تحتها .

٦- علي السعدي قريب الشيخ جاء من الطيرة الى حيفا ذات يوم ونزل ضيفاً على الشيخ ، هو رجل أقرب إلى الطول ، ممتلىء الجسم وإحدى عينيه مطفأة.

وبيني وبينه يومئذ فرق عدة سنوات . جلس في المساء يحدثني عن حبه لأحدى قريباته. ويبكي بحرقة بالغة ويقول ان الفتاة مدلهة بحبه ولكن أمها تصرّ على أن تزوجها لغيره، ووالدها ضعيف الشخصية إزاء أمها.

كنت قد رأيت الفتاة في احدى زياراتها لبيت الشيخ ، بصحبة أمها؛ جلستا على طراحة ، وكنت بعد الغداء جالساً إلى الطاولة ، وظهري للجالسات ، فرأيت من قلة الأدب أن أظل كذلك ، وحين التفت ثم انفتلت رأيت الفتاة قد رفعت فستانها عن ساقيها وعن معظم الفخذين ، لئلا يتجعلك الفستان ، وأمها تعاتبها همساً لأنها تفعل ذلك وأنا موجود فتجيبها : انه ليس سوى طفل .

فأدركني الخجل لأنني لو بقيت جالساً كما كنت لم اضطر إلى هذا الموقف المحرج .

وحين أنعمت النظر رأيت أمامي فتاة ذات جمال أخاذ وبخاصة استدارة وجهها ، وتناسب قسماتها وسحر عينيها ؛ لم أذكر شيئاً من ذلك لعليّ السعدي ولكني عذرته – في نفسي – كثيراً دون أن أستطيع تهدئته ، أو التخفيف من حزنه، وحكيت عن تصرف هذه الفتاة لابراهيم محمد حين عاد من عمله ، وسافر إبراهيم بعد يومين أو ثلاثة إلى القرية ، ولكني وجدته قد دس بين أوراقي وكتبي،بطاقة الدعوة إلى عرسها. وأنها ستزف إلى

الشخص الذي أرادته أمها . وكان ذلك آخر عهدي بها وبعلي المسكين وبابراهيم (فيالمدينة) .

٧- كانت أقسى اللحظات في السنوات التي قضيتها عند الشيخ السعدي يوم أن طردني من البيت . بعد عصر أحد الأيام .

خرجت هائماً على وجهي لا أدري إلى أين أذهب ، وطفت عدة مرات حول جامع الاستقلال ، ثم تذكرت أن شخصاً من أهل بلدنا يسكن قريباً من وادي الصليب ، فتوجهت إليه لعله إن عرف حالي أن يساعدني .

ولكني حين دخلت البيت الذي يسكنه أدركت أني أخطأت . فهو بيت لا يكاد يتسع له ولزوجته وابنه ، جلست عنده قليلاً ولم أخبره بشيء ثم استأذنت وانصرفت واستأنفت التجوال حتى بعيد العشاء ثم عدت إلى بيت الشيخ دون أن أشعره بعودتي .

وبقيت طوال الليل على الحصير المفروش في الباحة الواقعة أمام غرفتي ، وفي الصباح ذهبت إلى المدرسة قبل أن ينهض الشيخ من نومه .

لم تكن امرأته في البيت ، وكنت أتساءل : لو كانت موجودة أتراها كانت تشفع لي ؟

فاجأني الشيخ حين اتهمني بأني سرقت المعمول (نوع من السميد المحشو بالتمر أو بالفستق الحلبي المكسر ، وهو حلو).

ولكنه فاجأني اكثر حين جعل عقوبتي الطرد ، وهو يعلم تمام العلم أنه يرمي بي إلى المجهول ، دون أن يعبأ بذلك ، وحاولت جاهداً أن أقنعه بأنني لا أسرق ، حتى ولو كنت جائعاً ، فكيف أسرق مادة حلوة الطعم ، وأنا اكره هذا اللون من الطعام ؟!

وحدثته كيف كنت وأنا طفل أرى عمي ورّاد (هكذا كنا نسميه) وكان يعمل أنواعاً من الحلوى على شكل ديوك وفراخ وأصناف أخرى من الحيوانات ، وكيف كان الاطفال يلحقونه أنى توجه ، وأنا أكاد لا أرفع بصري إلى ما يصنعه مع أنه نازل في دارنا ، لأني أمقت الحلويات ولا أطيقها.

وسمع الشيخ حديثي ولم يصدقني وقال لي في النهاية : ليس في البيت أحد الاّ أنا وأنت وسفط المعمول ناقص ، فاما ان اكون اكلته انا أو أكلته أنت . ولجّ الشيخ في حكمه ، وكان من أمري ما قصصته قبل قليل.

٨- سأختم جولاتي حول جامع الاستقلال بحكاية تدل على مدى سذاجتي الريفية، وإن كانت تلك السذاجة لا تحتاج إلى شواهد .

رأيت تحت إحدى قناطر الجامع السفلية رجلاً كبير السن يجلس إلى جانب صندوق ذي غطاء زجاجي اقتربت منه وسألته هل لديه نظارات ذات عدستين زجاجيتين ؛ كنت أرى كثيراً من الناس يضعون على عيونهم نظارات. وظننت أن ذلك من سمات التمدن ، ولم أكن أعلم أن النظارة أداة طبية تؤخذ بتوجيه طبيب ، للقرب أو للبعد أو لغير ذلك .

وضعت النظارة على عيني فلم أر شيئاً ، عندئذ أدركني الندم لأني خسرت قرشين كانا كل النقد الذي أملكه، ولما عدت رميت النظارة في سلة قمامة لأنها لم تستطع أن تجعل مني انسانا متمدنا ينظر إلى الدنيا من وراء زجاج .

٩- وكنت ذات يوم أمشي متجهاً في شارع اللنبي نحو ساحة الحناطير برفقة حسني حسن أحد زملائي في المدرسة ، وبينما نحن نمشي في أول الشارع واجهنا شاب وبصحبته فتاة جميلة وقد شبكا ذراعيهما معاً ، قال حسني بالانجليزية « very beautiful» يعني الفتاة . وسمعه صاحبها، ففك ذراعه من ذراع صاحبته وتوجه نحو حسني وأخذ يضربه ويلكمه على رأسه، وحسني يحاول أن يتقي ضربه باتخاذ حقيبة الكتب مجناً له، وأنا أقول للشاب: انه لم يقل شيئاً يؤذي شعورك، انه.. كانت الحيرة تتملكني:

لم كل هذا الغضب، لم كل تلك الغيرة المبالغ فيها، لكلمة تحمل تقديراً اكثر مما تحمل عدواناً .

وقلت لنفسي ولحسني من بعد: لا بد ان يكون هذا الشاب من أصل ريفي وبدلته الأنيقة قشرة رقيقة لم تستطع ان تخفي حقيقة منبته.

١٠- أحسست - وقد يحس القارئ معي - أن عالمي في المدينة كان صغيراً ضيقاً ، ولكن طفلاً قروياً ساذجاً مثلي لم يكن في مقدوره أن يوسع الدائرة التي يتحرك فيها.

فأن مفاجآت المجهول كثيرة وقد تكون أحيانا عجيبة . ذهبت مرة من السوق العامّ إلى شارع الملك فيصل أو شارع الملوك ، وفي عودتي اخترت أن أختصر الطريق ، فقطعت منطقة تقع وراء السوق ، ولم اكن أعرفها على الرغم من طول إقامتي في حيفا.

استوقفني فيها منظر رجلين سكرانين، قد وقف أحدهما مواجها للآخر ، وفجأة نطح أحدهما الآخر برأسه فارتمى على الأرض ، واسرعت السير خوفاً ، حتى إذا صرت في السوق اطمأنت نفسي.

حفر هذا المنظر عميقاً في ذاكرتي ، وحين عدت إلى القرية ترسخ اكثر، ذلك أني أزمعت أن أذهب إلى خَلَّة الزيتون ، وهي

قريبة من مدرسة القرية ، وفي الطريق اليها رأيت أسودين يمتدان على عرض الطريق ، فاضطررت أن أحيد عنهما لأصل الخلة.

كانا يبدوان كالمتعانقين ، واحدهما ينقر الآخر برأسه. ومثّلاً لي منظر السكرانين ، وجعلاه لا يبارح ذاكرتي أبداً .

ولكني لم ألبث أن اكتشفت منافذ أخرى في المدينة ، فقد ذهبت إلى سينما (عين دور) – وهي لليهود – مع زميلي سهيل النبهاني.

ان الدخول إلى السينما يحتاج إلى ثمن تذكرة ولكن زميلي المذكور اكتشف طريقة أخرى ، فقد كان يعرف لون تذاكر السينما وما يكتب عليها أسبوعاً بعد أسبوع، فكان يقلد التذاكر، ثم ينصحني أن أطويها عدة طيات عند تسليمها للمسؤول على الباب. فلا يحاول فتحها لأن ذلك يعيق عن استقبال الآخرين. فعلنا ذلك مرتين ثم قلت لسهيل: اصرف النظر عن تزوير التذاكر لأن اكتشاف الأمر يعرضنا للأهانة أو للعقوبة أو لكليهما. دعنا يا صديقي نرجىء حضور الأفلام السينمائية إلى أن نصبح قادرين على شراء التذاكر. كان حقيقاً بي أن أتذكر أول فيلم حضرته ، ولكني لم أستطع ذلك بعد طول المدة ، وعلى وجه العموم كنا نحب أفلام شارلي شابلن الصامتة ، وما فيها من «مقالب» .

وأخذنا نذهب إلى البحر في منطقة بين حيفا وعكا ، حيث يلتقي النهر بالبحر ، ونقضي وقتاً في السباحة ، وكان يؤم المنطقة عدد من الناس الذين لا يستطيعون الذهاب إلى البلاجات الرسمية . هرباً من تكاليفها .

وكانت المدارس تعطل بمناسبة اليوم الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) في ذكرى وعد بلفور ، فكنا ننظم المظاهرات ، ونسير في الشوارع مرددين الهتافات (سيف الدين الحاج أمين) وفي إحدى هذه المظاهرات ، يممنا صوب منزل رشيدالحاج إبراهيم أحد زعماء حيفا ، وهتفنا له ، فأطل علينا من نافذة منزله وقال لنا بلهجة شبه بدوية « سيروا على ما قدر الله» ....

كنا نعرف أن أمثال هذه المظاهرات لن تزيل عن اعناقنا نير الانتداب ، ولكنها كانت مادة جيدة للصحفيين وكانت يومئذ هي السلاح الوحيد الذي يعرفه الطلاب والعمال وسائر قطاعات الشعب .

لم نرق إلى درجة إرسال برقيات الاحتجاج لأنا لم نكن نعرف ما هي البرقية ولا نعرف إلى من نرسلها لو عرفناها .

١١- ذات يوم جاء والدي إلى حيفا وقال لي : ان استيراد البقر من شمال فلسطين وسوقه إلى سوق طولكرم يتطلب

ترخيصاً من مسؤول بريطاني ، وأريدك أن تذهب معي لمقابلته كي تترجم له ما أطلبه.

رحبت بذلك ووجدت أن ما تعلمته في المدرسة قد يكون باباً لمساعدة والدي. وعندما اقتربنا من الحرس الواقف على الباب خطر لوالدي أن يدخن سيجارة ، وهو يستعمل لاشعالها قداحة (ولاعة). مؤلفة من زناد وحجر صوان ينطلق من احتكاكهما شرر ، يعلق بصوفانه. فاذا دبت فيها النار صلحت لاشعال السيجارة، فقلت له: إن الجندي الواقف هنالك لا يعرف هذه الآلة التي تستعملها ، وقد يظنها طريقة لتفجير شيء ما.

فكف والدي عن إشعال سيجارته، ودخلنا إلى الرجل المسؤول، وحكيت له بالانجليزية ما يريده والدي فأعطانا الاذن وانصرفنا.

١٢- لا أستطيع أن أقول إني أمضيت السنة الثالثة (١٩٣٦) في بيت الشيخ أو في حيفا ، فقد بدأت في ذلك العام ثورة الفلاحين وأقفلت المدارس، وعاد الطلاب القرويون إلى قراهم، وعدنا إلى عين غزال.

وأهملت الدروس حتى نسيت المعادلات الجبرية ، وطرق حل المسائل الحسابية ، ومضت اكثر العطلة المديدة في خمول أو تسكع بين الكروم.

هنا كانت صحبة أحمد سلامة مثمرة بعض الشيء فقد كان يعوضني عن بعض ما فقدته بترك المدرسة، كان يدربني في اللغة الانجليزية ، ويلقي علي واجباً في حفظ قصائد يحبها ، جعلني أحفظ «بانت سعاد» وأنا لا أفقه كثيراً من معانيها ، ووضع بين يدي دفتراً ملأه بمختارات شعرية ، فعلق بذاكرتي منه شيء كثير.

وفي أحد الأيام – من هذا العام – والثورة ما تزال مشتعلة جاء إلى منزل الشيخ السعدي : ابن خالي (وزوج أختي) أحمد عباس، وكان قد انتظم في سلك الشرطة، وكان مقره مدينة نابلس، ولعله إنما عرَّج على بيت الشيخ ليطمئن عليّ.

كان طوال الوقت بشوشاً، طمأنني عن أختي وعن أخي توفيق، وكان قد اصطحبه معه إلى نابلس ليفتح أمامه الطريق إلى التعلم، وقد زاد سروري بحضوره لأنه نفحني قطعة ذات العشرة القروش، وفي صباح اليوم التالي غادر حيفا إلى عين غزال ولم يحدثني بشيء عن سبب مغادرته نابلس، ثم علمت من بعد أنه أعفي من الخدمة لأنه اتهم بتزويد الثائرين بالذخيرة. ومن ثمّ استقر في القرية واحترف بيع الأقمشة وخياطة الثياب القروية.

وكان المسؤول عن تنظيم الكفاح الفلسطيني في منطقة الكرمل قائداً يعرف بـ « أبي درة » .

ولم ينضم إليه من بلدنا إلا بضعة أشخاص ، في ما أعلم، منهم موسى الشهير بـ « القليط » ابن عمتي، ويعود إحجام أهل القرية عن المشاركة في الثورة إلى شقاق بين العائلات الكبرى ، فقد تقرّبت من القائد إحدى عائلات القرية. فلم تستطع العائلات الأخرى أن تجد اليه طريقاً وكانت المنافسة على منصب «المختار» (العمدة) شديدة، ويقال إنّ العائلة التي تقربت من القائد، حلف أمامه خمسون رجلاً منها أن مختار القرية « خالد عبدالله » خائن. فأخذ الرجل من بيته بأمرٍ من القائد وكان ذلك من قبيل الوشايات واقتيد في المناطق الوعرة شرقي القرية على مسافة لا تقل عن عشرة كيلومترات، وهناك أطلقوا عليه النار وتركوا جثته حيث قتلوه .

وجاء النبأ إلى القرية ، فخفّ إلى مكان مقتله بقية أهل البلد، صغيراً وكبيراً ، وكنت أحد الذين تطوعوا لمشي تلك المسافة الطويلة في أرض وعرة مليئة بالأشوك والقريص. وكان اكثر الناس يبكون وينشجون ، وعاد القادرون يحملون جثته إلى القرية، وكنت واحداً من الذين حزنوا كثيراً لفقده، وفاتحت ابنه محمداً لكي يعطيني ما خلفّه من مذكرات ، لأنسج منها سيرة حياته. فقد كان الرجل في نظري نزيهاً ، ولكن منصب المختار كان يفرض عليه أن يستقبل رجال الدولة وشرطها ، وفيهم الانجليز واليهود.

وأعطاني محمد عدداً من المفكرات فوجدته لا يدون فيها سوى المنامات ، وأظنه كان يفعل ذلك حتى يضعها بين يدي الشيخ اللبدي(شيخه الصوفي) ويسمع منه تأويلها.

وقد عرفت ذلك الشيخ الصوفي إذ كنت مرة نازلاً من القرية إلى محطة الحافلة لأذهب إلى حيفا ، وحين دخلت الحافلة رأيت المختار وشيخه الوقور اللبدي ذا النور الشعشعاني، فسلمت عليهما وسألني المختار عن حال دراستي ، فقلت له: قرأت رسالة الغفران (النسخة المبسطة) لأبي العلاء المعري. ووجدتها مليئة بشطحات الخيال ، وأضفت : وأنا معجب بأبي العلاء كثيراً ، ولشدة إعجابي به نظمت مقطوعة في مدحه والثناء عليه (لا أذكر منها بيتاً واحداً) وظل الشيخ هادئاً لا يستنكر مني ما أقول ، ولا يقول شيئا في أبي العلاء، كما يفعل الشيوخ الآخرون.

كنا من حيث المستوى المدرسي في الصف الثانوي الأول، وكان أستاذ اللغة العربية قد نصحنا أن نشترك في مجلة الرسالة المصرية ، وكان الاشتراك السنوي يكلف جنيهاً واحداً ، فاشترك كل واحد من طلاب الصف ، في هذه المجلة ، وكانت تصلنا بالبريد ، وعليها اسم كل مشترك وعنوانه ، والحق أن مجلة الرسالة أصبحت هي « المعلم الاكبر» لنا، فيها نقرأ ما يكتبه

طه حسين وعلي الطنطاوي ومصطفى صادق الرافعي وزكي مبارك وأحمد حسن الزيات وغيرهم من كبار الكتاب ذوي الأساليب المتميزة .

وكنت أنا شديد الاعجاب بأسلوب الرافعي وتلميذه محمود محمد شاكر ، هذا مع تقديري لأكثر من يكتبون فيها وكان يعجبني ما ينشر فيها من شعر أنور العطار (شاعر سوري) ومن شعر محمود حسن اسماعيل ؛ إن الرسالة قد رفعت مستوى الذائقة الأدبية لدينا.

قرأت فيها – مثلاً – مقالاً للرافعي في نقد شوقي ، فكان من البدايات الأولى التي تمنيت أن أبلغ إلى مستواها في النقد ذات يوم.

هذا كله يعني أننا كنا نعود إلى المدرسة في سنة الثورة ونتابع دراستنا ولكنها كانت دراسة متقطعة .

ومرت اكثر السنة ونحن في القرية ، إلا أننا كنا نزور المدينة بين الحين والحين ، نكتري شاحنة ، ويحشر عدد غير قليل من أبناء القرية فيها ، ونذهب جميعاً لمشاهدة فيلم سينمائي في المساء، وعند انتهاء الفيلم نحتشد في الشاحنة ونعود ليلاً إلى القرية ، وكان اكبر مشجع لنا أن يكون الفيلم لمحمد عبد الوهاب ، إذ أن ما كان يهمنا من الفيلم حينئذ هو الأغاني ، لا قصة الفيلم ولا حبكته ولا شخصياته الأخرى.

وخطر لي وأنا في القرية أن أقوم بنشاط غير الدراسة والقراءة، فاتصلت بشبان القرية ورتبت معهم الخروج في مظاهرة تجوب أرجاء البلدة ويخطب فيها من لديه مايقوله في توعية الناس ورفع معنوياتهم، وألقيت في الجموع الحاشدة خطبة اقتبست اكثرها من فاتحة لصحيفة الدفاع في ذلك اليوم.

وبعد أن انضم اكثر أهل القرية إلى المظاهرة سرنا مشياً إلى الطنطورة – على ساحل البحر – نحمل معنا علماً عالياً يرفرف في الفضاء، وحذّرنا بعض شيوخ القرية بأن مستعمرة زخرون يعقوب (زمارين) تطل علينا ويمكن للشرطة أن تلاحقنا منها، ولكن كنا قد حزمنا أمرنا .

ووصلنا الطنطورة وانضم الينا الصديق محمود السمرة، واستنفر أهل بلده للمشاركة في مظاهرتنا، وكان يوماً شعرنا فيه بالارتياح لأنا استطعنا التعبير عما يعتلج في نفوسنا من قهر. وعدنا إلى القرية نحس بالرضى عن أنفسنا وعما فعلنا.

وكنا إذا عدنا الى المدينة وتجولنا في الأسواق، نسمع امرأة عجوزاً تصيح قائلة: «استقلت القدس. استقلت بير السبع» وتذكر اسماء مدن فلسطينية اخرى، وكنا نسمع في الشوارع اسطوانات بصوت نوح ابراهيم، شاعر الثورة الشعبي وكانت تبدو لي شخصياً متهافتة في اسلوبها ومعناها. ولكنها بعد

انقضاء مدة اصبحت «تراثاً شعبياً» مع انه ليس فيها قوة النقد الاجتماعي والسياسي في اغاني عمر الزعني اللبناني.

وقيل لنا في القرية إن أبادّره قائد منطقة الكرمل سيزور عين غزال، فسألت خالي علي محمد عباس، هل أستقبله وأخطب بين يديه، فقال خالي: هل تستطيع إذا طلب منك شيئاً وراء الخطاب والاستقبال أن تلبي طلبه؟ قلت: أظنني لا أستطيع. قال: إذن فمن الخير ألا تعرض نفسك إلى ما تعجزعنه.

وجاء أبودرة، وفرض على أسرتنا الكبيرة أن تجري صلحاً مع آل الصاردي، ونزل في بيتنا، وكنت أعد نفسي ومعي بعض شبان الأسرة أصغر من أن نتدخل في أمور الكبار، فقاطعنا حفلة المصالحة، وعاد أبودرة إلى مركزه دون أن نراه.

١٣- قال لي خالي شحاده محمد عباس: إن الشيخ عبدالله الخزنة يضايقني كثيراً وهو يجيء إلى الديوان (ديوان خالي) وينتقد كل شيء ويسفه أقوالي دون أن يرعى حق السن والجوار.

كان الشيخ عبد الله واحداً من أهل القرية ولكن أهل القرية كانوا يسافرون إلى البلدان الأخرى بحثاً عن إمام للمسجد ويهملون ابن بلدتهم، وكان هذا يغيظه فكان حاداً في خطابه وفعله، فقلت لخالي: سأخلصك منه.

وكتبت على ورقة من أوراق الدفاتر التي لا تباع في الأسواق نصاً أقول فيه إن أهل البلد قد ضاقوا ذرعاً بمماحكات الشيخ عبد الله الخزنة، وهم مهما يطل الزمن لن يوافقوا على تنصيبه إماماً لهم، وخير له أن يفتش عن رزقه في مكان آخر.

وعلقت الورقة على لوحة عند باب الجامع، ورآها أحمد سلامة، وعرف من كتبها، وجاءني غاضباً يقول: لم تورط نفسك في مثل هذه الأمور؟ إن كل شخص في القرية سيعرف من كتبها اعتماداً على نوع الورق، وطبيعة الخط. هذا عمل لا أحمده لك، ولا أراه من طبيعتك.

قلت له: - معتذراً أولاً - إنك تعرف خالي وطبعه، ثم قلت - مغالطاً - واكتشافك للكاتب لا يعني أن كل أهل القرية في مثل نباهتك. ثم إنك تعرف خطي حق المعرفة، كما تعرف نوع الورق الذي أستعمله.

ولم يكن الشيخ خليل الذي نصبه أهل القرية إماماً وخطيباً لهم أعلم من الشيخ عبد الله، ولكن لا يختلف عليه أهل البلد لكونه غريباً، ويختلفون على الشيخ عبد الله لأنه ينتمي إلى عائلة لها منافسون في العائلات الأخرى.

كان الشيخ خليل يسكن بيتاً متوسطاً بين دارنا ودار خالي شحاده وكان يأتي إلى ديواننا وكنت أحياناً أزوره، وكان له خمسة أولاد صغار، يمثلون البؤس مجسداً. ولما أنس بي الشيخ خليل قال لي: ان السيدة «فريهان» صاحبة الاقطاعات الواسعة في القرى القريبة، ستزور بلدكم، وأنا قد أعجبت بجمالها أولاً، ولكني أريد ثانياً أن تكتب لها رسالة باسمي تذكرني فيها، لعلها أن تصرف لي شيئا من الغلة.

وقلت للشيخ أحاوره: هل تكون رسالة عاطفية بمعنى الاعجاب والحب أو تكون رسالة استعطاف أما النوع الأول فلا أكتبه، وأما النوع الثاني فانه عقبة في طريق الحب؛ ولم اكتب رسالة على لسان الشيخ خليل؛ وجاءت السيدة الغنية الجميلة تمتطي فرساً وتخترق دروب القرية، كانت نصفاً ولكن جمالها كان لا يزال مشرقاً متألقاً.

١٤- في تلك العطلة الطويلة اكتشفنا البحر المقابل لبلدنا، كنا نراه ونحن في القرية، ولكنا الآن أصبحنا نسافر اليه: نتفق على يوم معين ونركب خيولنا ونذهب إلى شاطىء الصرفند أو كفر لام أو الطنطورة، والشاطئ الاخير كان أحبها الينا لنظافته وعدم وجود الدوامات فيه، وانبساط الرمل تحت الماء إلى مسافة تبلغ كيلو متراً.

وكانت لدى أهلي فرس بيضاء في غاية الرعونة، فامتطيتها ومضينا نقطع السهل إلى الساحل ، وكان إلى جانبي فتى يركب فرساً ، ويلوح بقصبة ذرة، فتلمحه الفرس التي أركبها ، فتشب في الهواء.

وتكرر ذلك ، ووجدت أن الفرس لن تهدأ، فأخرجت قدمي من الركابين ، وتحفزت للقفز ، فوقعت على يدي ، فأصيبت بالتواء ولكن ذلك لم يثنني عن الوصول إلى البحر وممارسة السباحة، ثم ركبت الفرس نفسها عائداً مع زملائي إلى القرية.

وذات يوم قال لي والدي: ان ضيفاً قد نزل على آل سعد في السوامر وقد ربطنا فرسه على بيدرنا لتأكل الشعير ، اذهب فاركب الفرس وأوصلها إلى خربة السوامر(وهي ملك لآل سعد) وتبعد عن بلدنا حوالي خمسة كيلو مترات.

فنفذت ما طلبه والدي وركبت الفرس ، وتخللت بها الدرب التي تمر من امام دارنا ، وكانت فرساً أصيلة ليس لها لجام، فأخذت تنهب الأرض بي ، ورآها والدي وهو واقف على الشرفة الخارجية من دارنا فلما حاذيت الشرفة قفز والدي ووقف في وجه الفرس وأوقفها، ثم طلب مني ألا أغمزها بمهماز أو شبهه، فمضت بي مسرعة وأنا ملتصق بسرجها كأني جزء منه.

وكلما امتدت المسافة أمامها ازدادت سرعتها، حتى أوصلتها إلى حيث ينزل صاحبها وسلمتها إليه. وعدت إلى القرية ماشياً، بعد أن كنت في ذهابي من الخيالة.

١٥ – طلبت من والدي – وهو يسوق قطيعاً من البقر إلى سوق طولكرم – أن يسمح لي بمرافقته، فذهبنا معاً أنا راكب على أتان، وهو يمشي على قدميه مسافة تزيد على أربع ساعات.

وما إن وصلنا قرية الجلمة حتى أقبل الليل، فذهب والدي إلى تلك القرية يطلب من بعض أهلها أن يتقبلوا ابنه لينام عندهم سواد ليلة واحدة، فما وجد من يستجيب.

عندئذ قال لي: هناك طريقة أفضل، وأخذني إلى بيادر القرية، ومهّد لي مناماً في قش قمح هنالك، وغطاني بالقش، ما عدا رأسي، وكانت نومة مريحة، وفي الصباح مرّ بي واستأنفنا رحلتنا حتى بلغنا سوق الحلال في طولكرم، وكانت تلك مسافة قصيرة.

هذه الرحلة جعلتني أدرك أن شقاء والدي في سبيل الرزق لا يعوضه أي ربح مهما يكن مقداره، فكيف اذا كان هو يكتفي بكسب بسيط لأنه لا يطيق أن يرجع بالبقر بعد أن يصل به إلى السوق؟ وحين انتهينا من أمر السوق ذهبت إلى محطة القطار وحدي.

وانطلق القطار بالركاب، فلما حاذى قريتنا وأبطأ قليلاً قفزت منه ، وتوجهت إلى القرية ما شياً. وفي طريقي شاهدت مساحات شاسعة تغطيها شقائق النعمان. وهي التي كنت أراها من القرية فأحسبها أرضاً مصبوغة بالدماء.

١٦- كانت الساحة أمام غرفتي في دار الشيخ قد صُفَّتْ على حافتها، أحواض الأزهار والنباتات، وكان الوقت بعد العصر، وأنا أتمشى حول تلك النباتات وأحاول أن أحفظ قصيدة مقررة علينا، مطلعها:

إنا محيوكِ ياسلمى فحيينا وان سقيت كرام الناس فاسقينا

ولما انتهيت من القصيدة، دوى التصفيق في الدور الأرضي، ولم اكن - علم الله - متنبهاً إلى أنهم يستمعون إلى انشادي، ولكن التصفيق كان دليلاً على استحسان الاداء.

عندئذ الجمت سروري بالتصفيق إذ خطر لي أن أم سعدية قد تتضايق من القراءة الجهرية ، فلم أعد إلى ذلك من بعد. لقد أصبحت أم سعدية في حياتي « الرقيب » القاسي المتحفز.

X
بين حيفا وعكا

هذه هي السنة الرابعة في بيت الشيخ أحمد السعدي:

أنهينا في مدرسة حيفا الحكومية الصف الأول الثانوي، وهو آخر صفّ فيها وبقي علينا الصف الثاني الثانوي لأن شهادته هي الجسر الذي يوصلنا إلى الكلية العربية بالقدس.

وأقرب مدرسة حكومية تحتوي هذا الصف هي مدرسة عكا ولذلك حملنا أوراقنا وسجلنا أنفسنا في المدرسة المذكورة ولكنا بقينا نسكن في حيفا ونسافر يومياً في القطار إلى عكا. ننطلق صباحاً ونعود بعد الساعة الرابعة إلى حيفا. كنا ستة طلبة، لا أذكر منهم سوى صديقي الأثير إميل حبيبي.

وكان هؤلاء الستة يجلسون في ديوان باحدى عربات القطار لا يغيرونه، وللديوان باب، وكنا طلباً للهدوء وانصرافاً إلى أداء الواجبات المدرسية نغلق باب الديوان ولا نختلط بالركاب الآخرين.

وكان إميل مرجعنا في حل مسائل الحساب والهندسة، وكنت أنا في أوقات الراحة أقرأ عليهم آخر ما كتبته (من مقالة أو رسالة) على طريقة الرافعي.

وفي الشتاء حين كنا نمشي من محطة القطار إلى مدرسة عكا كنا نجد الماء قد تجمع عند باب المدينة ، فلا نستطيع خوضه أو اجتيازه، فكان أحد الحمالين يقوم بنقلنا واحداً واحداً على ظهره لقاء أجر زهيد .

كان الالتحاق بمدرسة عكا نقلة صعبة، فقد وجدنا في تلك المدرسة أموراً لم نتعودها في مدرسة حيفا: معلم الرياضيات لا يشرح شيئاً، وينتقل من باب إلى باب قبل أن نحكم الأول ، ومعلم مادة الدين (وهي شرح مجلة الأحكام الشرعية) يطالبنا بحفظ المادة عن ظهر قلب، ومعلم تاريخ الأدب يرى أيضاً أن نحفظ كتاب الوسيط في تاريخ الأدب كما نحفظ قصيدة للمتنبي.

هذا شيء جديد علينا، ومعلمو المدرسة يرون فينا طلبة جدداً لا يعرفون عنهم شيئاً ، ونحن بين حوالي ثلاثين طالباً متورطون في صراع انتحاري لنيل الدرجة الأولى أو الثانية، وإذا لم نحصل على واحدة من الدرجتين فقدنا الأمل في الذهاب إلى

الكليـة العـربيـة، وهـي أعلـى مـدرسـة حـكومـيـة في فلسطين ، ومن عـادة المـسـؤولين في الكليـة ألا يخـتـاروا الآ الاول والثـانـي من الصف الثانوي الثاني.

وبالنسـبـة لي ظهر تقصـيري في المواد الرياضـيـة لأن الاجازة الطويلة في العام السـابق جعلتني أرجع إلى حـالة الصـفـر، في تلك المواد، بعد أن كنت من أوائل الطلاب فيها.

ثم إني لا أسـتطيع أن أحـفظ غيبـاً إلا الشـعـر الجـمـيل فـأمـا هذه النصـوص النثرية من مثل شـرح مـجلة الأحكام أو كتاب الوسـيط في تاريخ الأدب العربي لأحمد السكندري فلا يخطر على بالي أن احفظها حـرفيـاً إذ تعودت أن أدرس مـثل هذه المـواد ثم اذا سـئلت عنها في الامتحان عبّرت في الاجابة بلغتي، فتقدمت من أسـتـاذ الأدب العـربي وشـرحت له مـوقفي من الحـفظ، ورجوته أن يقرأ إجـابتي ويقدر بنفسـه إن كـانت أدنـى مـسـتـوى من النص الأصـليّ فانا راضٍ بتقديره، فوافق على إعفائي من الحفظ حـرفيـاً، ولكن مثل هذا الرجـاء لم يفدنـي كثيراً مع مـعلم مـادة الدين، اذ أصـرّ الاّ اغيـر في الاجـابة اية كلمـة؛ وكـان مـعلم التـاريخ تعـجبـه إجـابتي ويقرأها علـى مسـامع الطلاب نموذجاً لاسـتقلال الطالب بتـعبيره الخـاص، ويشجـع على هذه الطريقة.

كانت سنة صعبة – على مستوى الدراسة، فاما الفوز واستكمال الدراسة، وإما الاخفاق والعودة صفر اليدين إلى القرية. وقد استطعت أن اكسب فيها انتصارات وأن أتعرض فيها لانكسارات. كان مدير المدرسة هو الاستاذ شريف النشاشيبي، وكان يعلمنا اللغة الانجليزية والأدب الانجليزي، وكان كلما درسنا قطعة شعرية شجعنا على ترجمتها شعراً إلى اللغة العربية، وأذكر أنا درسنا قطعة للشاعر لفليس(Love lace) في صاحبته(Althea)، وكان مسجوناً، ولكنه كان يشعر بالانطلاق والحرية مثل الملائكة السابحين في الجو أو مثل سمك البحر، اذا زارته صاحبته لتهمس اليه من وراء قضبان السجن، وترجمت هذه القطعة، وقرأتها في الصف، والمدير يكاد يرقص طرباً واذكر منها المقطع التالي:

تدور الكؤوس تروّي النفوس ... بخمرٍ معتقة في الدنانْ

تتوج أرؤسنا بالورود ... وتبعث نيرانها في الجنان

فما عرفت مثل حريتي ... بنات بحار قطعن العنان

والوزن في الترجمة العربية قريب جداً من الوزن الأصليّ. إنني أذكر ذلك لأن هذا العمل عرّف بي سائر الأساتذة وكثيراً من الطلاب (وهذا من الانتصارات).

مضى عليّ في المدرسة بضعة أشهر، وفي يوم وصلتني رسالة، لقد ادهشني ان يكون هناك شخص يراسلني وبخاصة ان الخط لا يشابه خط احمد سلامة ولما فضضت الرسالة وجدت ورقة بامضاء شخص اسمه علي يوسف، وفي آخر الورقة رسوم لمسدس وخنجر وغير ذلك وقرأت الرسالة فازددت دهشة. ان كاتبها يتهمني بأني على علاقة حبّ بطالبة تسافر معنا – وتجلس في ديوان مجاور في عربة القطار. لم يجر بيني وبين الفتاة أي حديث، ولا أعرف من هي. ولكن الأحداث اللاحقة عرفتني أنها تكمل دراستها في مدرسة البنات بعكا.

وضعت الرسالة في جيبي وذهبت إلى غرفة الدرس، وانا شارد الذهن، واذا باحد فراشي المدرسة يستدعيني لمقابلة المدير، فنزلت الى مكتبه وهناك وجدت رجلاً شاباً طويل القامة عريض الكتفين أبيض الوجه وإلى جانبه رجل قد ظهرت عليه إمارات كبر السن، وهو يلبس طربوشاً طويلاً، وقا ل المدير حين دخلت: «هذا هو إحسان عباس». عرفت في التو ما يعنيه المدير من هذه الجملة: هذا الفتى النحيل القصير الذي يلبس الشورت والقميص من المستبعد ان يكون دون جواناً. وأكمل المدير ما بدأه فعرفني أن الشاب هو أخو الفتاة وأن الكبير في السن هو

والدها، وأن علي يوسف كتب رسالة الى الفتاة، ففتحتها مديرة المدرسة، وعندما قرأتها اتصلت بأهلها، فما كان من ابيها وأخيها الا ان جاءا وطلبا اليها أن تعود الى البيت؛ وكان ذلك آخر عهدها بالمدرسة.

أصبحت حزيناً عندما عرفت هذه التفصيلات، وامتلأت نفسي غيظاً على علي يوسف الذي لا أذكر أني التقيت به أو عرفته. وكان الشاب ينظر اليّ ونظراته تشعُّ بالمقت، ونفسه تحدثه أن يؤدب هذا «الولد»، أما الاب فكان حكيماً واسمعني كلمات طيبة، ثم عدت الى قاعة الدرس، وانصرف الرجلان، ولم يعلّق المدير بشيء على هذه المقابلة، ولم يفاتحني بشيء حولها من بعد.

وبعد أسبوعين كنت اصعد الدرج الطويل المقابل للمحطة الشرقية في حيفا، وأمامي يصعد شخص طويل القامة نحيل، فلما أصبحت بحيث أرى عينيه، وجدته مكسر الأهداب، غير صبيح الوجه، فاستدار نحوي وقال: أنا علي يوسف، وأنا أحب أن اعتذر اليك. قلت: إن الشخص الذي يتطلب منك اعتذارًا هو تلك الآنسة التي ظلمتها وجنيت عليها وحرمتها من التعلم، ومضيت في طريقي ذاهباً الى بيت الشيخ. (أطلعت إميل حبيبي على هذه القصة، وقد اشار اليها من بعد في بعض قصصه). لم يجلّني دأبي المتواصل في مدرسة عكا الدرجة الأولى أو الثانية، بل كنت

الثالث، وأيأستني هذه النتيجة من الذهاب الى الكلية العربية.
ومن أغرب الأمور ان إميل حبيبي لم يكن بين الأوائل، ولكن حالة أهله المادية كانت جيدة فالتحق بمدرسة خاصة؛ أما انا فان يأسي من مواصلة التعلم دفعني الى تقديم طلب لادارة البريد لعلها تقبلني ساعيا فيها، وجاءني الردّ بأن لا وظائف شاغرة هنالك، فعدت الى القرية، واستأنفت حياة الكسل وفقدان الأمل،

ولكن ما كان أحلاها من مفاجأة حين وصلتني رسالة تخبرني أنه قد تم اختياري للالتحاق بالكلية العربية. آمنت أن المصادفات قد تكون اكبر عاملٍ في توجيه الواقع. في تلك السنة دون غيرها اختير من مدرسة عكا - أربعة طلاب (من الأول حتى الرابع). وفي الرسالة قائمة بما يجب علينا شراؤه من الملابس والشراشف..... الخ. كان ذلك يعني أن الكلية لا تعرضنا لأزمة التفتيش عن مسكن، وكان فرحي بكلّ ذلك غامراً.

XI

في الكلية العربية بالقدس

١٩٣٧ - ١٩٤١

كانت الكلية العربية ملتقى النخبة من جميع طلاب المدارس الحكومية بفلسطين في كل عام، وكان الطلبة يقضون فيها ثلاث سنوات، وفي أيامنا أضيفت سنة رابعة، أولها الصف الثالث الثانوي، وكان في أيامنا مؤلفاً من شعبتين، وفي الشعبة التى أنتمي اليها ثمانية وثلاثون طالباً، وفي الثانية حوالي ذلك العدد. وتعد السنة الثالثة توطئة للسنة التي تليها وهي العام الذي يتقدم فيه الطلاب الى امتحان المتريكوليشن وهو امتحان عامّ، وقد سررت كثيراً من النتيجة التي حصلت عليها في أول امتحان بالكلية في الفصل الأول إذ كنت بين زملائي السابع، وكان أول عكا هو الرابع والثلاثين، والثاني: الثالث والعشرين، والرابع هو الأخير في الصف كله. وأقنعت نفسي أن العدالة في التقدير أرجح مما كان عليه الحال في مدرسة عكا. وبدأت في هذه السنة

قسمة الطلاب في قسمين: قسم أدبي ينفرد طلابه بدراسة اللغة اللاتينية وأدبها، وقسم علمي ينفرد طلابه بدراسة الرياضيات الاضافية ثم يشتركان في كل الدروس الأخرى: اللغة العربية والانجليزية والتاريخ والجغرافيا والرياضايات الابتدائية والطبيعيات (الفيزياء) والكيمياء ودرس الدين، وهذا الأخير لا يدخل في المعدل العام.

موقع الكلية على جبل المكبر خارج القدس القديمة، ووراءها منزل مدير الكلية أحمد سامح الخالدي، وهناك أسلاك غير شائكة تفصلهما عن مدرسة زراعية يهودية للفتيات. والقسم الأعلى من مبنى الكلية مخصص لنوم الطلاب، والقسم الأسفل غرف للدرس، وفي هذا القسم يقع مكتب كاتب الكلية إميل حاماتي ، ومخازن الكتب التي تعار للطلبة مقابل تأمين يردّ اليهم عند إرجاعها ، وخزائن حديدية قليلة العرض يضع الطلاب فيها ملابسهم وأحذيتهم؛ وفي القسم العلوي أيضا حمامات. وعرفنا بعد أن مضى على وجودنا فيها أيام قليلة أن الكلية تعتمد على أركان خمسة: مدير الكلية أحمد سامح وهو رجل مهيب ضخم الجسم طويل كبير الرأس ذو شعر ضارب الى الحمرة، وكاتب الكلية الذي مرّ ذكره والاستاذ روبرت كفلكنتي المسؤول عن الطعام وعن الرياضة البدنية وضابط الكلية وكان في أيامنا هو

فخري الخطيب، والأستاذ جورج خميس وهو يجمع بين تعليم اللغة الانجليزية والمسؤولية عن اعارة الكتب الى الطلاب. ولم يكد يمضي عليّ يومان هنالك حتى رأيت المدير، وفاتحني بقوله: يا عباسي (وكذا كان يناديني من بعد) هل قدّمت طلباً للاعفاء من القسط؟ قلت: لم أفعل حتى الآن، فقال: لا تنس أن تقدمه، وكانت هذه الملاحظة منه ذات أثر في نفسي، وكان القسط كلّه اربعة وعشرين جنيهاً في العام، وقلّ من كان يدفعه كاملاً، بل كانت الكلية تخصص للطلاب الفقراء مساعدات مالية.

قلت لنفسي: هذا نظام جديد من ألفه إلى يائه، وبخاصة حين اقتربت الساعة السابعة مساء، إذ وجه الطلاب للذهاب الى غرفة المذاكرة، وكانت فترة المذاكرة تمتد حتى الساعة/ ٩:٣٠. دخلت الغرفة لا أحمل - لجهلي بمعنى فترة المذاكرة - كتباً، ورأيت شخصاً عريض الكتفين يلبس جاكتة وبنطلوناً وربطة عنق، فتقدمت منه وقلت: آسف يا استاذ. لأني لم استطع أن احضر معي كتباً، فأجابني - وهو يبتسم، لا عليك. ولم أفهم سرّ ابتسامته حتى عرفت من بعد أنه ليس أستاذاً وإنما هو «عريف» من طلاب الصف الخامس، واسمه عبد الرحيم جلاّد. نظام العرفاء شيء جديد أيضاً عليّ ولكن تباشير الأمور تدلّ على أن

الكليـة تقـوم على نظام دقـيق، ولا بدّ لنا من ألفـة هذا النظام، وضابط الكلية مسؤول عن صنع جدول كاملٍ لكلٍّ ثلثٍ من العام، يعرف منه الطالب ما يجب عليه من نشاط رياضي يومياً بعد الاستحمام: أهو لعب التنس أم لعب كرة القدم أم لعب كرة الطاولة – في غرفة خاصة بالألعاب تحاذي السلك غير الشائك الفاصل بين الكلية والمدرسة الزراعية. ثم إن الوجبات في أوقاتها المحددة، وهي تقدم في غرفة كبيرة خاصة، فيها منصّة يجلس عليها الاساتذة في وقت تناول الطعام ودون هذه المنصة، طاولات الطعام للطلبة، وكل واحد منهم يعرف مكانه ورفقاءه لدى تناول الطعام ولا يجوز له أن يغيره.

ومن دقة هذا النظام أن الطالب لا يستطيع أن يستمر في الدرس بعد انتهاء فترة المذاكرة، وعلى جميع الطلاب أن يذهبوا إلى أسرتهم وأن يخلدوا الى النوم، والعرفاء يراقبون ولا يسمحون لأحدٍ أن يتحدث الى جاره،بل على كل طالب أن يغلق عينيه ويدعي النوم وان لم يكن نائماً. والعرفاء يطبقون كل شيء حرفياً، وكل مخالفةٍ ينقلونها الى ضابط الكلية ، وهذا قد يحسم الأمر بحسب اجتهاده أو يحيله الى مدير الكلية.

وهنا يجدر بي أن أذكر أن الكلية اعتمدت لطلابها زيّاً موحداً يتألف من جاكته خضراء على صدرها من الناحية اليسرى قد

شبك رمز الكلية وهو صورة صقر، وبنطلون رماديّ اللون، وربطة عنق خضراء. وهذا الزيّ علامة مميزة.

لم يكن قد مضى على وجودنا بضعة أسابيع حين فاتحني زميل من منطقة الخليل بقوله: ما رأيك في أن نذهب فنزور مدينة الخليل والحرم الابراهيمي يوم الجمعة القادم. فلم أقل له: إني حتى الآن لا أعرف شيئاً عن القدس نفسها، اذ كان لا يسمح لنا بمغادرة الكلية الا يوم الجمعة، على أن نرجع اليها قبل موعد الجلوس الى مائدة الغداء، ولكني حباً في التعرف على مناطق قد لا تتاح لي رؤيتها وحدي، رحبت باقتراحه، وهكذا ركبنا في الحافلة الذاهبة إلى الخليل، وقبل وصولنا اليها كان مدير الكلية في مزرعة له على الطريق، فرآنا وعرف بسبب الزي أننا من طلاب الكلية، فأخبر الضابط هاتفياً بأمرنا، فلما عدنا من رحلتنا استفسر الضابط عن طالبين غادرا الكلية متجهين الى الخليل، فتقدمنا اليه وقلنا: نحن المطلوبان، فحوّلنا الضابط الى مدير الكلية، وكان الاجراء في مثل هذه المخالفة إجراء قاسياً، ليس أقلّ من انذار نهائي، وذلك ما عرفناه من تعليقات الطلبة على حالنا المستحق للرثاء، ولما قابلنا مدير الكلية عاتبنا بكلمات رقيقة ثم صرفنا دون عقوبة، وكان ذلك من حسن حظنا، لأنه اقتنع أنا قمنا بذلك عن جهل بالأوامر، وبنيةٍ حسنة. ولم يصدق زملاؤنا الذين يعرفون الأوامر أننا انصرفنا دون عقاب.

وفي سنة ١٩٣٩ سرى النبأ بين الطلاب بأن الكلية ستقوم برحلة الى بتراء، وعلى رأس الرحلة مدير الكلية يرافقه بعض الاساتذة، وكانت هي التغيير الأكبر في روتين الحياة بالكلية. سافرنا إلى عمان وبتنا ليلة واحدة فيها، وزرنا قصر الأمير عبدالله بن الحسين (الملك من بعد) ورحب بنا، وتحدث الينا بلهجة أبوية جميلة، وبما اننا ضيوف عابرون، وليس لدينا وقت لقبول دعوته الى غداء أو عشاء أهدانا خروفاً، سقناه معنا، حين توجهنا من عمان الى العقبة، وفي هذه المدينة الصغيرة بتنا ليلة في غابة نخيل هنالك، وقدّم الينا المسؤولون فيها عشاءً حافلاً من سمك البحر الأحمر، وفي الليل أقمنا حفلة سمر وكان دوري فيها أن أهجو الطعام الرديء الذي تقدمه لنا الكلية، والطلاب يرددون لازمة الانشودة الهجائية، وقام المدير نفسه بالرّد عليّ، وهجاني في «قرّادية» نظمها، وكنت سعيداً جداً أن اكتشفت في الأستاذ أحمد سامح، شخصية المدير الانسان، الذي يقابل هذيان المراهقين بالتسامح والمغفرة. وانضم اليه الأستاذ كفلكنتي المسؤول عن الطعام في الكلية وكانت أمسية جميلة، استطاعت أن تقرب بين التلامذة والاساتذة. وكان مدير الكلية منذ بداية الرحلة قد أوعز اليّ أن أقيد ملاحظاتي عن الرحلة وعما نشاهده، وأن أعدّ ذلك على شكل مقالة أذيعها من محطة الاذاعة

بالقدس بعد عودتنا؟ وكنت حريصاً على أن أكون صادقاً في وصف ما نراه، وحين غادرنا العقبة توجهنا الى بتراء، وكانت مشاهدتها ذروة الرحلة نفسها، هنالك تعرفنا الى معلم لا نظن أن له نظيراً في العالم، والأدلاء ينتقلون بنا من ظاهرة حضارية الى أخرى، وكان الدليل الذي يسير في مقدمة جماعتنا واسمه سلمان سالم السلامة بدوياً في خفة الطائر وهو ينتقل على الصخور ، ويعرفنا بالمنشآت والمعالم فيقول هذه خزنة بنت فرعون، وهذه ...الخ؛ كانت رحلة مليئة بالمشاهد، وقد كتبت قصة هذه الرحلة، وأمرني المدير أن أسلمها للدكتور اسحاق موسى الحسيني، أستاذ اللغة العربية لينقحها، ففعلت ما أمرني به. وكان المدير قد اتفق مع الدكتور إسحاق على أن يعيد اليّ الرحلة منقحة وأن يخبرني بموعد اذاعتها فلم يفعل شيئاً من ذلك، وفي اليوم التالي سافر الطلاب الى بلادهم، في إجازة، وسافرتُ في حافلةٍ متجهة الى يافا، وأنا لا أدري شيئاً عن موعد الاذاعة، وفي الطريق قبل الوصول الى يافا أوقف شرطي الحافلة وطلب ممن اسمه احسان عباس ان ينزل منها، فنزلت، وأخذني الشرطي الى حافلة، ذاهبة الى القدس، وعدت الى الكلية، فوجدتها خالية لا أحد فيها سوى إميل حاماتي الكاتب. فشعرت بوحشة شديدة، وألمّ بي ضيق شديد، أأعاقب على ذنبٍ لم

تقترفه يداي؟! وكانت العقوبة أشدّ حين لقيت مدير الكلية، متجهماً غاضباً، ولم يصدقني حين شرحت له أني لا أعلم شيئاً عن ما اتفق عليه مع الدكتور الحسيني وقال لي: سنعطي ما كتبته الى شخص آخر ليذيعه، وأما انت فتستطيع أن تسافر في أي وقت تشاء. قلت: ولكني لا أملك ثمن تذكرة السفر، وقد انفقت كلّ ما كان معي من نقود، فأحال الأمر الى كاتب الكلية، فقال لي إميل: ان لك في ذمة الكلية سبعة وعشرين قرشاً باقي التأمين، تعال الى مكتبي وتسلمها ففعلت، وأنا أشعر بالرضى وذهبت الى السوق في القدس، فرأيت نوعاً من الاجاص (الكمثرى) كبيراً أملس شديد الخضرة أعجبني، فاشتريت كيلو إجاص واحداً هدية لأهلي، وسافرت الى القرية، وصلتها وقد حلّ الغروب، ودخلت الدار وأنا في لهفة لرؤية أهلي. كان البيت مظلماً وليس فيه السراج الذي عهدته. وسلمت الاجاص لوالدي وأنا على يقين أنه سيسر به ويسر به اخوتي، فقال لي بمرارة: أنت تفكر في إهدائنا الاجاص، ونحن لا نملك ثمن زيت للسراج!! فانتحيت زاويةً في الدار وجعلت دموعي تهطل في صمت. كان «القهر» قد بلغ مني مبلغاً كبيراً عميقاً، وكانت نفسي تجيش بالحزن جيشاناً بليغاً؛ في هذه اللحظة تذكرت صديقي ذا الرمة، وتذكرت ارجوزته الجميلة التي يقول فيها:

قلت لنفسي حين فاضت أدمعي

يا نفسُ لا ميَّ فموتي أو دعي

ما في التلاقي أبداً من مطمع

ولا ليالي شارعٍ برجَّعٍ

ولا ليالينا بنعف الأجرع

إذ العصا ملساء لم تصدع

أما «ميّ» في حالتي فهي رمز لما يتمنى ولا ينال ، وأما الليالي التي لن تعود فهي الليالي في ظل الأسرة الهانئة، وقد تصدّعت العصا، ولم تعد ملساء، وحال هذا البيت «بيتنا» يدلُّ على تصدّعها.

كان ترديدي لشعر ذي الرمة تعزية آنية، ولكن شفائي مما ألم بي من إحباط إنما كان بالترامي في أحضان الطبيعة، فقد أخذت ابتداءً من اليوم التالي لوصولي أمشي المسافات الطويلة في المناطق الجبلية حتى أصل الى أراضينا. وفي يوم من الأيام خرجت بعيد الفجر ، وتغلغلت في الوعر، ووصلت الى أرض لنا، وغلب علي التعب، فجلست تحت شجرة كنا نسميها «السدرة» وما لبثت أن نمت، دون أن أحذر الهوام المؤذية في البر، وما ان

بدأت الشـمس تطلع حـتى أفـقت، واذا رأسـي عند بيت نمل واذا النمل قد احتوشـني من كل ناحية، فنهضت ونفضت عني النمل. هكذا أصـبـحت أتغلغل في الطبـيـعة كل يوم، دون أن أسلم نفسـي للنوم أو للجلوس، وعندمـا أتعب أعود الى القرية، وأجدد اللقاءات مـع أحمد سلامة ومع غيره من الأصدقاء.

وذات يوم بعد الغياب ابصرت على البيادر الى الشرق من دارنا جماعةً محتشدة، فمشيت نحوهم واكتشفت انهم طلاب مدرسة القـرية، ومـعـهم مـعلمـان، وهـم ينوون إقـامـة حـفل سـمـر؛ كـان برنامجاً معداً ومع ذلك وجدتني أميل الى المشـاركة فيه، فطلبت من أحد المعلمين أن يدرج اسمي بين المتحدثين ، ففعل وعندمـا جـاء دوري وقـفت لاتحـدث عن أهمـيـة الخطابة وقـدرتهـا على التـأثيـر في النـاس، واسـتـشـهـدت بأسـمـاء خطبـاء. من العـرب وغيرهـم مشـهورين، ولكني في آخر كلمـتي تحدثت عن خطبـاء القرى وكيف يلقون على النـاس خطباً يحفظونها، ولا تـأثير لما يقـولونه في الجـمـاهيـر، ومـضـيت في هذا الكلام ومـثله دون أن أنتبه لوجود إمام القرية في الحفل؛ وخرج الناس في اليوم التـالي يقـولون إنه كـان يعـرِّض بـالامـام – خطيب القـرية – ؛ وغـضـب الشـيخ، وأخذ يهدد النـاس بأنه لا يرضـى مثل هذا التعـريض، وأنه مغـادر القـرية، وإن كـان لا يعجبهم فليبحثوا لأنفسـهم عن امـام

غيره، وهكذا وقعت في إحباط جديد، وأصبحت هدفاً للوم من أناس كثيرين، ولقيت جزاء تدخلي في أمورٍ كنت أستطيع أن اظل بعيداً عنها. وكرهت الخطابة - ولا ذنب لها - وأصبحت أتحاشى المواطن التي قد أتعرض فيها لمثل تلك التجربة.

بدأت هذه العطلة الصيفية في القرية متوترة، وظلت كذلك فقد حدث ذات يوم أن لقيت فتاة بدا لي أنها جميلة، فخفق لها قلبي وأصبحت أحرص على أن أراها اتفاقاً أو تعمداً، ولو لمحةً، وسأطلق عليها اسم «نوار»، ولكني لم أفاتحها بكلمة واحدة، ولم تحسَّ بوجودي ولم تعرف شيئاً عن مشاعري نحوها - وفي أحد الأيام كان مقرراً أن نحصد القمح في قطعة أرض لنا عند «عين أبو عليّان». فصنعت والدتي للحصادين ما يسمى «صبوح الحصادين» وهو طعام فطورهم: أكوام من البرغل والشعيرية يصب عليه اللبن الرائب، وصاحبت بعض أهلي في الذهاب الى تلك الأرض. وما كنت أعلم أن «نوار» ستكون هنالك، وقد جلسنا معاً في ظلّ شجرة على مقربة من الحقل، ولكني لم أجرؤ على ابتداء حديث معها، إذ كنت أجهل كيف يكون الحديث الى فتاة لا أجد واياها أرضاً مشتركة نقف عليها؛ وهكذا ضيعت فرصة لن تسنح أبداً، وعدت الى القرية حين عاد العاملون في الحصاد، وأنا أحسُّ بالبؤس وبعدم القدرة على أن اكون إنساناً سوياً.

كانت كل عطلة (اجازة) تجديداً لعهدي بالقرية، فيها أعود الى العلاقات الطيبة الأولى، وأستمتع بالطعام الذي تصنعه والدتي، وأستعيد لهجتي القروية لأني أتحدث الى ابناء قريتي باللهجة التي يحبونها ويألفونها، وكنا في الأمسيات نحتشد على الشرفة الخارجية من بيتنا، وتدور الأحاديث والاسمار؛ وذات مرة جلسنا نردد في ما بيننا ما نشرته الصحف عن خسوف القمر في تلك الليلة، وكان يجلس معنا الرجل العجوز محمود الحمودي جارنا، وهو يسمع حديثنا عن القمر بشيء غير قليل من الامتعاض، وينظر الى القمر ويخاطبه مشجعاً قائلاً «يا قمرنا يا جدع، يا مشنشل بالودع...» ولم يطل الوقت حتى أخذ ضوء القمر يضعف ، ونحن منصرفون الى الحديث، وحين التفتنا الى الزاوية التي يجلس فيها محمود الحمودي لم نجد أحداً ، فقد انسحب من بيننا دون أن نشعر بانسحابه، وأخذنا بعد ذلك نغايظه بالحديث عن دوران الأرض وكرويتها، وكان يظل صامتاً مطوياً على حنق، وكان أحياناً يخفف عن نفسه بتسديد الاتهام بالكفر إلينا.

وكانت الاجازات تسمح لي بحضور الاعراس، ومشاهدة أفراح القرويين، وإشعال النيران في ساحة القرية، وتكوين حلقات «السحجة» وسماع الأغاني المصاحبة لكل ذلك، ومشاهدة زفة

العريس والعروس، وما يصاحبها من أغانٍ ، وكنت في النهار أصغي الى أغاني الرعاة ولحن الأرغول والناي، وأصوات «العتابا» الحزينة. وكان كل ذلك زادي حين أغادر القرية ، وأنتظر بلهفة حدوث لقاء تالٍ، شوقاً الى زاد جديد. تشبعت نفسي في دور مبكر بأغاني الرجال والنساء، ولم أعد أشعر بما فيها من رتابة ومن تكرار، وإن استطعت أن أضيف اليها أغاني بعض المغنين المشهورين.

وحين انتهت تلك العطلة وعدت الى الكلية، ظلّ قلبي معلقاً بالقرية أكثر من ذي قبل، مع أن العقبة الكبرى كانت لا تزال تنتظرني وأعني بها تقديم الامتحان العام (المتريكوليشن) وكان هذا الامتحان يتطلب تركيزاً وانصرافاً كاملاً الى الدرس. وارتفعت حمى الدراسة بين الطلاب (سنة ١٩٣٩) وأخذوا لا يقنعون بساعات المذاكرة بل يتحدّون قوانين الكلية ويقومون في الليل، فاذا وجد أحدهم حماماً خالياً أضاءه وجلس يدرس، وهناك طلبة يذهبون الى غرفة النجارة (المنجرة) – وهي مبنى منفرد مستقل – وآخرون يحضرون «البطاريات» ويضيئونها وهم في فراشهم ويخفونها تحت الفراش ليقرأوا. وكانت هذه الفورة العارمة تتمخض عن أمور مضحكة، وفي الصباح كانوا يتفاخرون فهذا يقول أنا قرأت مقرر الفيزياء عشر مرات، وذاك

يزعم أنه قرأ مقرر اللغة الانجليزية احدى عشرة مرة. وكنت هانئاً أقرأ باعتدال، وأحسّ أن كثرة القراءة تفقدني الثقة في نفسي. كان مسموحاً للطالب أن يقدم الامتحان في ثمانية موضوعات، فاذا نجح في ستة منها نال شهادة المتريكوليشن. وقد كنا جميعاً نحرص على أن نكون مستعدين. فمثلاً كان التاريخ المقرر علينا هو تاريخ الدولة الأموية، ولكن معلم التاريخ أمضى ثلثي السنة وهو يتحدث لنا عن البدوي وكيف أنه هو والنخلة والجمل ثلاثة ممثلين على مسرح الصحراء، ثم بدأ في الثلث الثالث يرسخ في افهامنا أن التاريخ رياضيات ويقول مثلاً:

سعد بن أبي وقاص × رستم = معركة القادسية.

ووجدنا أننا لن نبلغ المقرر على هذا المنوال فعمدت أنا الى كتاب فلهاوزن «الدولة العربية وسقوطها» وترجمته الى العربية، وطبعنا الترجمة على الرونيو ووزعناها على طلاب الصف، وعمد زميل آخر الى كتاب آخر فلخصه، هكذا حاولنا إنقاذ أنفسنا، وإنقاذ الموقف. وكان أستاذ الفيزياء لا يحسن الجانب الرياضي من هذا العلم، ولهذا فوجئنا بأن امتحان الفيزياء كان في معظمه قائما على مسائل رياضية، وهذا شيء لم نكن نملك تداركه، ولكن الله لطف بنا، حين اجتزنا هذا الامتحان العسير.

وكنت قد تلقيت صدمة من معلم الجغرافيا، حين سألته مرة عن قضية فلكية فأجابني: «هي مشروحة في الكتاب، واللي يفهم يفهم واللي ما يفهم لا عمره فهم» وجعلت هذه المادة مع محبتي لها ثانوية المقام بين سائر المواد، ولهذا لم أنل علامة النجاح فيها.

وقبل التقدم للامتحان النهائي أعلنت الكلية عن مباراة في نظم الشعر، فتقدمت بقصيدة(لم أثبتها في ما احتفظت به من شعر مع أنها نالت الجائزة، وكانت تلك الجائزة مجلدات «مختارات البارودي» (قدمها الاستاذ جورج خميس). وقيل لي انه كان في المحكمين الشاعر ابراهيم طوقان والسيدة عنبرة سلام الخالدي زوجة الاستاذ أحمد سامح. ومعهما آخرون. وقد أخذني مدير الكلية في سيارة الى الاذاعة وألقيت القصيدة، ووصلتني تهنئة واحدة من استاذ علمني في مدرسة حيفا الثانوية، وكان مما ملأ نفسي بهجةً انني عدت من الاذاعة ليلاً ومشيت في القدس، ووجدتها مدينة جميلة، ولم أكن رأيتها من قبل تحت الأضواء، ووجدتني أسأل نفسي: لماذا حرمنا من كل هذا الجمال؟ لماذا لا نتعرف إلى معالمها تعرّف مشاهدة ونزور الصخرة والأقصى وكنيسة القيامة ومدارس القدس القديمة وأحياءها وسائر معالمها؟! هل يعقل أن نقضي في هذه المدينة المقدسة الجميلة سنوات ونحن نجهل كل شيء عنها؟

بعد النجاح في المتريكوليشن عدت الى القرية، وأنا أحسّ بالرضى لانني اجتزت عقبة عسيرة ، ولكني كنت احسّ بأن هذا الرضى غير مكتمل، وحاولت ان أجد لنفسي بعض الترويح، فأقنعت والدي بأن يضمّ الى الأسرة صديقيًّ: أحمد سلامة وموسى «القليط» كان والدي يحب أحمد سلامة، ولا يطيق كثيراً الثاني، لأنه أصبح بعد اشتراكه في الثورة شديد الادلال بما قام به، وانتشر في الاسرة خبر مؤداه أن موسى قد تخلّص من «مريم» فزاده ذلك إدلالاً، ولكنّا لم نكن على يقين من أنه قام بذلك. كيف عرف مكانها؟ وحين عرفه كيف تأكد أنها هي ، لعلّ موسى قد تخلص من أية امرأة وقعت في طريقه ظناً منه أنها المرأة التي يبحث عنها وكنت لا أزال أخبّ وأوضع في آثار الأسرة، وأجد حقيقة الأشياء من خلال وقفتها على الرغم مما حصلت من ثقافة ومعرفة، وبهذا أصبح موسى في نظري تجسيداً للبطولة، وحين كان يحاول أن يصل الى بيتنا من خلال بيتهم المجاور ، رآه جنديّ إنجليزي فأطلق النار عليه وأرداه قتيلاً، وظللنا نرى دمه الزكيّ على صخرة هنالك قائمة بين البيتين.

في تلك المرحلة كان الجنود الانجليز يطوقون القرى، في الصباح الباكر، ويأمرون أهل كل قرية بالتوجه الى ساحة البلد،

ثم يتفرسون في المحتشدين من خلال «عين» مختبئ في سيارة، يشير بأن هذا يعتقل وذاك لا يعتقل، ويحملون من حكم العين عليهم بالاعتقال، في شاحنة، ويغادرون القرية.

ومرة أفقنا عند الفجر فوجدنا الجنود على سطوح المنازل وأمرنا بالتوجه الى الساحة العامة، وسلكت أنا الدرب المألوفة التي توصلني الى الساحة العامة، وأخذ الجند من السطوح يقذفونني بالحجارة، ولكنها لم تصبني واخيراً وصلت الساحة العامة، فوجدت فريقا من الجند قد اصطفوا في صفين وكان عليّ أن أمرّ بينهما، فكان الجندي على اليمين يضربني بقبضته فيتلقاني جندي على اليسار، فيضربني بقبضته أيضا ويردني الى جندي آخر على اليمين، كنت كالكرة يتبادلها صفان من الجنود، حتى وصلت الى نهاية الصفين. وكان هذا النوع من التعذيب يُعَدُّ لعباً وتلهياً اذا قيس الى أنواع أخرى من التعذيب. لقد طبقت علينا حكومة الانتداب العقوبات الجماعية، فاذا أذنب - في نظرها - واحد أخذ بذنبه جميع أهل القرية. وبهذه السياسة أصبحت المعتقلات تعج بالمعتقلين من كل مدينة وقرية بفلسطين.

وفي أحد الأيام وكانت الساعة حوالي العاشرة صباحاً أحسست إحساساً غامضاً أنني فقدت «نوار»، إلى الأبد.

ساقتني المصادفة أو قل: جلبة الأصوات الى الجهة الشرقية من بيتنا، فرأيت هناك جمهوراً من الرجال والنساء، وهم جميعاً يحدقون في حيةٍ تسبح على الجدار، نصفها الأمامي قد صار ممدداً على السطح والنصف الخلفي ما يزال على الجدار، وهم في حيرتهم يهيبون بأيّ من الرجال الحاضرين ليخلّصهم من الحية، وكانت «نوار» بينهم، واتجهت الأنظار الي لأقوم بهذا العمل، وجاءوا بسلم قصير أسندوه الى الجدار وبعصا لقتل الحية، وأخذوا يحرضونني لأداء تلك المهمة. نظرتُ في الأمر فوجدت ان الاقدام على القيام بذلك ضرب من الجنون: إذا صعدت السلم أصبحت تحت مستوى الحية، والعصا لا تنفع شيئاً في هذا المجال؛ إنها أضعف من أن تقتل حية بهذا الحجم وقلت للذين يندبونني للمهمة بحماسة. هذه ليست شجاعةً، انها تغرير بالنفس، والاحتمالات كثيرة، فاذا بدا للحية أن تنعطف وتنكزني برأسها لم تخني عني العصا شيئاً. كنت أقول هذا الكلام الفاتر وأنا أنظر الي الجمع الحاشد المتحمس، وأمعن النظر الى «نوار» فأجدها تؤيد القوم، وتشيح بنظرها عن منظر «هذا الجبان» الذي لا يحمل أية جرأة يتصف بها الفلاحون.

لقد طارت «نوار» من عالمي إلى الأبد، لأني لم أقدم على الحية، وكانت لا بد ستطير لو أقدمت عليها.

لا أذكر ما حدث للحية من بعد، ولكني أتصور أن أحدهم انتدب نفسه لقتلها حين نزلت من الجهة الأخرى عن السطح أو انسابت سالمة.

بعد هذا الحادث ذهبت لدعوة بعض اصدقائي في القرية لتناول طعام الغداء عندنا احتفالاً بحصولي على شهادة المتريكوليشن، ودهشت حين اعتذر اكثرهم عن حضور الغداء، وعدت الى البيت وأنا أشعر باخفاق كبير، وأتساءل: ترى لماذا لم يستجيبوا الى دعوتي؟ لعلّ لكلّ واحد منهم عذره الخاص به. أو لعلها كانت دعوة مفاجئة لم يسبقها أي تمهيد لها.

لا بدّ من الاعتراف بأن للاستاذ احمد سامح فضلاً كبيراً عليَّ فانه حين وجدني فتى خجولاً حاول أن يعالج هذه الناحية لديَّ بالوسائل المختلفة، وسآتي على ذكر شيء من هذه الوسائل حين أتحدث عن تدريسه للتربية النظرية والعملية.

كانت النقلة الحقيقية في حياتي العلمية تتمثل في الصفين الخامس والسادس الثانويين. إذ لم يعد هناك امتحان عام يهددنا. وكان التقدم الى امتحان الانترميديت (الشهادة الوسطى) أسهل بكثير من المتريكوليشن. في هذين الصفين تغيرت طبيعة الدراسة اذ أصبحنا – أو كدنا نعدُّ – في مستوى جامعي. وأصبحت دروسنا كلها في العلوم الانسانية.

اللغة العربية وآدابها: مختارات من مقامات بديع الزمان - امراء الشعر العباسي وحفظ عيون القصائد،

اللغة الانجليزية وآدابها : أدب القرن الثامن عشر الانجليزي نثراً وشعراً .

اللغة اللاتينية وآدابها: مختارات من الشعر والنثر اللاتينيين.

مناهج التاريخ :(اسمٌ بلا مادة).

التاريخ اليوناني - كتاب مقرر ومعه عدة كتب تتناول الحضارة والأدب.

التاريخ الروماني - كتاب مقرر ومعه عدة كتب تتناول الحضارة والأدب.

تاريخ الفلسفة (محطات مهمة في تاريخ فلسفة الاخلاق من افلاطون حتى الغزالي)

المنطق الأرسطا طاليس: كتاب مقرر واحد دون إضافات

التربية: علم النفس التربوي. قواعد التدريس وأصوله ومناهجه ثم التدريس عملياً في المدرسة العمرية الابتدائية والمدرسة الرشيدية الثانوية .

وكان الاساتذة يكلفوننا بكتابة دراسات وبحوث في كل الموضوعات السابقة - وكان الاستاذ جورج حوراني مدرس

اللغة اللاتينية والأدب اللاتيني، وتاريخ اليونان وتاريخ الرومان والفلسفة والمنطق كلما قدمت له بحثاً يقول لي: إن بحثك يعتمد على أسس شعرية أو ما هو بهذا المعنى.

هو برنامج مزدحم، ومن تقبّله باخلاص لم يجد وقتاً لقراءة صحيفة أو سماع إذاعة، أو المشاركة في أي نشاط اجتماعي. لذلك كنا نعيش في عزلة تامة، وزادنا عزلةً بعد الكلية عن البلد وإذا استثنينا الرحلات القصيرة التي كنا نقوم بها مع الاستاذ حوراني الى صور باهر، أو الساعات التي يجمعنا فيها لسماع الموسيقى الكلاسيكية، قلت: ان كل لحظة من وقتنا كانت مخصصة لقراءة الكتب المقررة وكتابة البحوث، وإعداد الدروس العملية للتعليم. وأقول أيضاً إن الدكتور حوراني لم ينجح نجاحاً تاماً في تقريب الموسيقى الكلاسيكية الينا أو تقريبنا اليها ولعل السبب في ذلك أنا تعودنا ارتباط اللحن بالكلمات، ولم نألف الالحان - وحدها - مجرّدة، إذ كنا دائماً نفتش في ما نسمعه من ألحان عن مدلولاتها لو تحوّلت الى كلمات. لكن لم تكن تلك المحاولة إخفاقاً تاماً، فقد ظلت نواة هذا الحب موجودة في نفسي، قابلة للنموّ، وذلك لأني تابعتها في القاهرة ثم في بيروت (كما سيتضح من بعد). أحببنا بعض سيمفونيات بيتهوفن، وتعلقنا بقطع محدودة لزيمرسكي

كورساكوف مثل «شهرزاد» وقطع موسيقية قليلة اخرى ولا ريب في أن الاستاذ حوراني كان يعذرنا في ذلك، فهو الذي ولد ونشأ في بيئةٍ غربية عندما كنا نقول له: ليتك تسمع الأغنية الفلانية لعبد الوهاب أو أم كلثوم كان طوال سماعه لاحدى الأغنيات يغلبه الضحك.

كنا نتعامل مع أساتذة مخلصين - كان الاستاذ عبد الرحمن بشناق يعلمنا أدب القرن الثامن عشر الانجليزي ، ومرة كلفني بكتابة دراسة عن تطور فن المقالة في الأدب الانجليزي ، فكتبت في الموضوع اعتماداً على المصادر، حوالي خمس وستين صفحة، صححها بدقة ونبهني الى ما غاب عني في الموضوع. وكنا نستغرب كيف يستطيع الدكتور حوراني أن ينظم وقته بحيث يشمل كلّ تلك الموضوعات التي يدرسها.

ومع أني لم أحب طبيعة الأدب الانجليزي في القرن الثامن عشر - لم أحب كل ما درسته لبوب والدكتور جونسون، وأحببت سويفت قليلاً كما أحببت بوزول، مع ذلك فانني أفدت من دراسة هذا الأدب كثيراً من الأصول المعرفية. ولا أزال أذكر تدريس الأستاذ عبد الرحمن بشناق كتاب الشعر لارسطا طاليس ، وكيف حفزني تدريسه على ترجمة هذا الكتاب (عن الانجليزية) الى العربية. وكنت قبل دراسة أدب القرن الثامن عشر قد تعلقت

بالشعراء الرومنطيقيين: كولردج ووردزورث وكيتس وشلي وبايرون وبخاصة الثاني بين هؤلاء، كما تعلقت بما درسناه من مسرحيات شكسبير وبخاصة مسرحية هاملت، التي أصبحت الصديق المرافق لي في الكلية وبعدها، قرأتها في الكلية مرات ومرات، وأظنها لوّنت حياتي بعد تخرجي بلونها الخاص، كنت مثلاً أقرأ الجزء التالي من أحد المشاهد، وأعيد قراءته بلا ملل، وغني عن القول أن وقعه باللغة الانجليزية أضعاف وقعه في الترجمة العربية. (ترجمة جبرا ابراهيم جبرا؛ المؤسسة العربية)

هاملت: ها، ها! أعفيفة أنت؟

اوفيليا: سيدي!

هاملت: أجميلة أنت؟

اوفيليا: ماذا تعني يا سيدي؟

هاملت: أعني إن كنت عفيفة وجميلة معاً، وجب على عفافك ان يجعل الوصول الى جمالك محرماً.

اوفيليا: وهل للجمال يا سيدي ما يتعاطاه خير من العفاف؟

هاملت: بالضبط. للجمال قدرة على تحويل العفاف الى الفجور، أشد ما للعفاف من قدرة على قلب الجمال الى صورته. كان هذا القول يوماً من الاضداد، ولكن عصرنا هذا قد مدّه بالبرهان. كنت أحبك يوماً.

اوفيليا: يقينا يا سيدي ، لقد حملتني على اعتقاد ذلك.

هاملت : كان عليك ألا تصدقيني. فالفضيلة لا تطعم جذعنا القديم الا ويظل فينا شيء من مذاقه. ما أحببتك قط. لن تنجي من المذمة ولو كنت عفيفة كالجليد، نقية كالثلج . اذهبي الى دير وترهبي. اذهبي . وداعـاً. أو ان كـان لا بد لك من الزواج ، فتزوجي أحد البلهاء. ان العقلاء ليعلمون تمام العلم أي بهائم* تجعلن انتن منهم. الى الدير اذهبي، وأسرعي . وداعاً.

اوفيليا (جانبا): يا قوى السماء، أعيديه الى رشده!

هاملت: لقد سمعت الكثير عن أصباغكن وطلائكن. وهبكن الله وجهاً، وتجعلن لكن وجهاً آخر. ترقصن، وتتكسرن، وتلثغن، وتلقبن مخلوقات الله باسماء من عندكن وتجعلن للخلاعة حجة من جهلكن. عني بكن، لا أريد منكن شيئاً بعد - إنه لينجيني . أتسمعين ، فلنمنع الزواج! أما المتزوجون سابقاً. فكلهم سيبقون على قيد الحياة، إلا واحداً ، ويبقى الآخرون على حالهم. عليك بالدير. اذهبي!

أوفيليا: اذُن فقد خدعت.

* في الأصل: أي الوحوش، ويرى بعض شرّاح هاملت أن الوحوش هنا تعني الأزواج «ذوي القرون» وواحدهم يدعى «قرنان».

هاملت: اذهبي إلى دير راهبات! أتريدين أن تلدي الخطاة؟

أنا نفسي على قدر من العفة، ولكن بوسعي رغم ذلك أن أتهم نفسي بأمور هي من الإثم ما يجعل أمي تتمنى لو لم تكن ولدتني. اني شديد الكبرياء، حقود الثأر، عنيد الطموح، ورهن اشارتي من الآثام ما يعجز فكري عن حصره، وخيالي عن تحديد شكله، ووقتي عن تنفيذه. فما الذي يترتب على الذين مثلي ان يفعلوه اذ يزحفون بين السماء والأرض؟ كلنا أنذال واوغاد. إياك أن تصدقي واحداً منا. اذهبي وترهبي. أين أبوك؟

اوفيليا: في البيت يا سيدي.

هاملت: فليغلق المصاريع على نفسه، لكي لا يلعب دور الأبله المأفون إلا في بيته. وداعاً.

اوفيليا(جانبا): أعينيه، ايتها السماوات الخيّرة!

هاملت: ان كنت ستتزوجين، أعطيتك مهراً هذا الوباء.

واضح من هذا المشهد أنه يمثل موقفاً من المرأة والزواج، ولكن لم يكن هذا كل أثر لمسرحية هاملت، (وقد انضاف هذا الى إحدى الصورتين اللتين كونتهما عن المرأة، وتحدثت عنهما في موضع آخر). إن هاملت هنا باظهاره حالة تشبه الجنون كان يمهد لي الطريق الوحيد لاقناع والدي بالعدول عما رسمه،

ولكني لم أستطع أن أفجعه بابنه المتعلم الذي كان يعلق عليه آمالاً عريضة.

ورسمت مسرحية هاملت لي منسوباً أتطلع اليه دون أن أطمح الى أن أبلغه، لقد أفهمتني – دون أن تقول ذلك – بأني يجب أن أتحاشى كتابة مسرحية، وقد حاولت ذلك من بعد، فوجدتني اكتب مسرحية أقلد فيها «يوليوس قيصر» لشكسبير، فعدلت عن المحاولة، وقنعت بما تستطيعه ملكاتي المتواضعة.

ولم يكن تأثير مسرحية هاملت مقتصراً على نظرتي الى المرأة، بل لعله شمل أموراً كثيرة أخرى من أهمها المشكلة الهاملتية الكبرى التي لخصها ليفي شتراوس بقوله: ان هاملت لم يكن يملك خياراً بين أن يكون أو لا يكون إذ كان قد وقع متأرجحا بين المتناقضات المتجددة، واقترن هذا كله في نفسي بقول أبي العلاء.

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي، فهل لي بعد تخيير

فما معنى أن أكون أو لا أكون إذا كان كل شيء مخططاً ومرسوماً منذ البداية؟

حتى ثورتي على ما قام به والدي في قضية زواجي كان يعدّ – في نظري – محاولة الأسير المثقل بالقيود أن يكسر قيوده. فكأن جدلي في هذا الأمر لم يكن سوى إمعان في انتحال مزيد من القيود.

وعند نهاية السنة السادسة الثانوية نال كل طالب منّا شهادة الدراسة المتوسطة (الانترميديت) ودبلوم التربية - وهذا يستدعي بعض لمحة للحديث عن التربية:

كان أحمد سامح أستاذنا في التربية وعلم النفس التربوي قد تخرج في كلية الصيدلة بالجامعة الاميركية ببيروت، ولكنه استطاع بجهده الخاص أن يترجم كتباً في التربية وعلم النفس، وأن يؤلف في أصول التدريس، وكانت هذه الكتب هي الموضوعة بين أيدينا غير أن شخصية الأستاذ في تأثيرها كانت أقوى من الكتب، وكان أستاذاً مرناً لا يتجمد عند حرفية التعليمات التربوية. أذكر أنه طلب مني تدريس تاريخ الفينيقيين» للصف الثالث الابتدائي، وحضرت ورقة المنهاج للقيام بهذا الدرس، وعندما واجهت الطلبة لم يستطع مستوى الطلاب أن ينسجم كثيراً مع المنهاج، فوضعت المنهاج جانباً وكان يقوم على إلقاء السؤال والتدرج بالدرس بناء على الأجوبة، وحوّلت الدرس الى حكاية مشوّقة تتخللها حقائق تاريخية. وكان يحضر الدرس جميع زملائي والاستاذ أحمد سامح، وعند انتهاء الدرس أذن الاستاذ لزملائي بالتعليق والنقد، فأجمع أولئك الزملاء على أنه درس «فاشل» لأني تجاوزت فيه تعاليم الأسلوب التربوي الصحيح. فما كان من الأستاذ الا أن قال: أنا

أخالفكم الرأي وأعتقد أنه درس ناجح. إن هذا المدّرس موهوب في تحويل الدرس للصغار إلى قصة، ولعلكم لو دققتم النظر لوجدتم أن الطلاب كانوا مشدودين إلى الدرس؛ افادني هذا الدفاع عن درسي لا لانه منحني ثقة وحسب، بل لأنه علمني ان لا أقف جامداً عند القواعد التي ينص عليها اهل التربية، بل ان اعمل فكري في الموقف واختار ما يناسبه.

قمت بتدريس درس في النحو في المدرسة الرشيدية لطلاب في صف ثانوي، وتدريس درس آخر في نفس المدرسة في الجغرافيا، وتدريس معركة مجدو لطلاب صف ابتدائي في العمرية، وبدروس في موضوعات أخرى، وكان نصيبي في الامتحان العملي النهائي أن أدرس في الرشيدية قصيدة المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني

ولكثرة الأسماء المذكورة في القصيدة رسمت خريطة لتحركات سيف الدولة في آسيا الصغرى واستعنت في رسمها بزميلي وصديقي محمد الجنيدي، رحمه الله.

كانت السنتان الأخيرتان مجتمعتين أقلّ إرهاقاً من الدراسة لامتحان المتريكوليشن – على الرغم من الانكباب فيهما على

نيفوماخس لارسطا طاليس ونتعرف الى ديكارت وكانت والمنقذ من الضلال للغزالي، ولأول مرة ندرس الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط ونتعرف الى انكسماندر واناكزامينس وهراقلايطوس وانبذوقليس ، وندرس مسرحية ليوربيدس وأخرى لارسطوفان (وحصر هذا كله غير ممكن – في هذا النطاق) – ونغوص في الأساطير اليونانية والرومانية. وبين هذا الحشد من الأسماء وجدت في قول هراقلايطوس (Heraclitus) ان النار هي العنصر الأول في بناء الكون ما يثير أفكاري وشغفت بهذه الفكرة، ووجدت مصداقها في ظواهر كثيرة، واتحدت هذه الفكرة بأسطورة برومثيوس الذي سرق النار من الآلهة واعطاها لبني الانسان. ومن أجل هذه الفكرة نسيت عنصر «الماء» – وأهميته، ولكني لم أتأثر بتقديس المجوس للنار، وظلت النار هي العنصر المسيطر في شعري حتى تحولت منها الى البحر والماء بعد أن أصبحت قيسارية وجهتي وفيها أقضي أشهر الصيف، وأجد راحتي في البحر وسرّ الماء. فتحول الشعر بطبيعة الحال الى هذه الوجهة. ولكن ان وازنت بين العنصرين كانت النار ترمز الى الطموح وتقترن

هراقلايطوس الاخرى وهي التغير المستمر وأن الانسان لا يستطيع أن يجتاز النهر نفسه مرتين. وكانت فكرة التغير والتحول ملائمة لنزعني الرومنطيقية.

لكن عودتي الى الكلية لاكمال المسيرة، مدة سنتين دراسيتين - وما أطولها - قد غمرتني بين الكتب، وداوت جراحي النفسية، وأنعمت عليّ ببعض النسيان.

إلا أن غرقي في الدروس كان قنبلة موقوتة قد تنفجر في إحدى اللحظات. فأنني بعد ان قضيت تينك السنتين كنت قد تعرضت للاجهاد بدنيا ونفسياً، واستطالت المدة، وأدركني السأم - لقد طال انتظاري للوصول الى هدف. ماذا لو قلبت الدنيا وخرّبت كل هذا السعي وأوقفت الزمن عن السير، وتمتعت بالانطلاق. لا أريد الكلية ولا يهمني شهادتها، تباً لكلّ شيء. كنت أعلم أن التدخين ممنوع وأن عاقبته الطرد من الكلية. أشعلت سيجارة، وجلست على احدى الدرجات القليلة التي تصعد الى مكتب مدير الكلية، وأخذت أنفث الدخان بلذة واستمتاع ممزوجين بالتحسب والخوف. ولم تكن السيجارة قد انتصفت حين ظهر الأستاذ المهيب أحمد سامح، حرت في السيجارة: ماذا أصنع بها، حاولت إخفاءها في يدي، فلذعتني نارها، أبقيتها حيث هي وأنا أنهض لأحيي الرجل الكبير، ثم مشيت الى جانبه والسيجارة في

يدي، لا شك في أنه رآني ولكنه تجاهل كل شيء ، لا أذكر حديثه لي، فقد كنت في ذهول، هل كانت اجاباتي له سليمة من التخليط. لكنني ارتحت الى اختصاره للاحراج وذهابه الى وجهةٍ غير الوجهة التي أذهب فيها. شكرته وأكبرت عظمة تصرفه، وأدركت حين اصبحت وحدي انه قد تحدّى الثورة اليائسة التي كانت آخر سهم في جعبتي، والغيظ من اخفاقي يتصاعد في صدري. رحمك الله يا أبا الوليد ، فقد كنت بكل المقاييس إنساناً عظيماً. إنك لم تشأ أن تعاونني على تحطيم كلّ ما بنيته.

وقد شغفت أثناء دراستنا للغة اللاتينية بشعر كاتلوس الروماني وبعد عهد الكلية أمضيت وقتا طويلاً وأنا أترجم مقطعات وقصائد لكاتولس إلى الشعر العربي، وقد أفادني اتصالي بشعره نزعةً هجائية حوّلتها الى نقد بعض الظواهر الاجتماعية وبخاصة ظاهرة النفاق الاجتماعي كما رسخ لديّ صورة المحبوبة الغادرة والزوج المخدوع، وتوجهت بتأثيره الى نظم مقطعات كنت أسميها «أشواك» لأن فيها وخزاً نقدياً موجعاً. إن هذه المعرفة معين ثرّ لا ينضب بسرعة ولا بد أن أقول إنه جذبني الجانب الرعوي (Pastorl) في الشعر اللاتيني والانجليزي ، وبخاصة قصيدة ميلتون «ليسداس » في

رثاء صديقه كنغ، واتحدت طوابع هذه المؤثرات مع الحياة الريفية، فأصبح الريفيون هم الرعاة، في نظري وأصبح الريف هو «أركاديا» أو الموئل المثالي للرعاة.

ولكن كيف أصبح الريف كذلك وأنا عارف تمام المعرفة بالنقائص التي تصيب أهله والحياة فيه: إن الحياة الريفية لا تقترب من المثالية بأية حال. إنها حياة غليظة جافية، والعادات فيه قيود، ولهجة الريفيين تثير النفس برتابتها، وافتقارهم الى روح الفكاهة بسبب الفقر الغالب وهو الطابع العام. ولكن يبدو أنني اتجهت الى توشيحه بوشاح المثالية لاني كنت أزوره ضيفاً، فتعجبني حرارة اللقاء، وتنقذني من شعوري بتفاهة قيمتي في المدينة. بل إنني وجدت على الريف نقمة في نفسي في سنوات الحرب العالمية الثانية، لأني رأيت الريفيين قد هجروا الأرض والزراعة وذهبوا الى معسكرات الجيش الانجليزي يعملون عمالاً لأن ذلك يأتي لهم ببعض السيولة النقدية، وهي الاكسير الذي كانت تفتقر اليه حياتهم، كما كانت العامل الاكبر في فقدان الاحساس لديّ بمميزات المدينة.

ووجدت أنني فقدت الراعي الصديق «موسى» كما فقد ميلتون صديقه، فاتحدت الرؤية في بعض مظاهرها، وكانت «نوار» تمثل

لي الراعية المثالية، وحين وجدت الموضوع الصالح للشعر، رضيت عن الشعر الذي أنظمه ودونته لنفسي.

وانعقدت بيني وبين عدد من زملائي في الكلية صداقات قوية، ولكن ظروف الحياة والموت من بعد باعدت بيننا. واذكر من أصدقائي صبري زيدان من قرية إجزم وقد فقدته في مرحلة مبكرة، إذ انضمّ الى الثورة الفلسطينية ولقي هنالك مصرعه، وكان في صحبة قائد منطقة الكرمل أبي درّة، وقد رثيته بقصيدة عارضت فيها قصيدة أبي تمام:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وأقيمت حفلة لتأبينه في الكلية، وألقيت فيها هذه القصيدة (ولم أثبتها في ما احتفظت به من شعر) وقد كان أستاذي معلم الرياضيات في الكلية – جميل علي – من حضور هذا التأبين، وطلب مني القصيدة بعد القائها ليمعن النظر فيها، وكان رحمه الله من أكثر الناس حفظاً ورواية للشعر الجميل:

كان صبري زيدان فقيراً مثلي أو أشد فقرا، ولكنه كان أشد مني إخلاصاً لمبادئه. – ذهبتُ مرة الى الحي اليهودي بالقدس واشتريت كتاب الاينيادة لفرجيل (النص اللاتيني دون شروح وتعليقات) بقرشين، وهو كتاب صغير الحجم، وأخبرت

صبري بما فعلت ، فاستشاط غضباً وقال لي : انك بهذا الفعل تساعد اليهود في شراء الأرض الفلسطينية ، قلت له : يا صديقي إن كان القرشان يفعلان ذلك، فما اهمّ قيمة القرش . ان القرش اذن قوة هائلة جبارة. إنك بهذا التزمت الشديد لا تصل الى شيء؛ وهذا كتاب أنا بحاجة اليه، ولا وجود له في المكتبات العربية، ومع ذلك لم يرض عني وغاضبني مدة واستشهد وهو مغاضب لي غفر الله لنا جميعاً.

وكان من اقرب اصدقائي الي في الكلية، سالم وهو فتى وسيم، وقد خلقت له وسامته مشكلات عدة، إذ كانت الفتيات يلاحقنه، فاذا عجزن عن ذلك، وجدن طريقهن اليه بالرسائل المعطرة. وقد نشأت بينه وبين إحدى طالبات المدرسة الزراعية علاقة. فأراد ذات ليلة ان يزورها في مدرستها وانبأني بذلك. فقلت له : إنك ستعود متأخراً، وسوف يوصل العريف امر تأخرك الى الادارة، وسيحرجونك بالسؤال اين كنت ولكن نصيحتي لك ان تضخم الخطيئة في عيني العريف، وترجع مترنحاً كأنك سكران، ولا أظن قلب العريف يطاوعه على رفع هذا الأمر الى الادارة ، لانه يعرف ان عقوبته الطرد من الكلية، ولكن ان عدت متأخراً فذلك جرم بسيط. المبالغة هنا قد تكون خطرة، وقد يخالفني العريف في ما أقدّره. وجاء سالم في حدود الحادية

عشـرة ليـلاً، ورآه العـريف يتـرنـح فـجـاءني وقـال: أهـكذا يفـعل صـاحـبك. كـيف أبلـغ الادارة عنه؟! قلت: انك فـي نظري أرأف قلبـاً من ان تسبب له الطرد . فسكت العريف ولم يبلغ الادارة.

وكـان من أصـدقـائي جـبـرا ابراهـيم جـبـرا وكـان يسـبـقـني بعـام واحـد، أعـرفـه مـيـالاً الى التـأمل وينـظم شـعـراً باللغـة الانجليـزية، ويقـرأه على مـسـمـعي، وكنت أعـجب لهـذه القـدرة فيـه، إذ اني لم احاول نظم الشـعـر بغير اللغة العـربية وكان لدى جبرا مواهب فنية متنوعة. ولكن لدى جبرا مواهب فنية متنوعة ولكن تلك المهارات المتـعددة لدى جبرا لـم تكن لتظهرها الكليـة العربيـة، وكـانت الأيام كفيلة باظهارها من بعد.

XII
في مدرسة صفد الثانوية
١٩٤١-١٩٤٦

جـرى ترويضـي كلّ الأعـوام السـابقـة من أجل هذه اللحظة، وصـدر القرار بأن أكون معلما في مدرسة صفد الثانوية، وهي مدينة لم أزرها من قبل، وأكاد لا أعرف عنها شيئاً.

قلت لوالدي: أعتقد أن زيارة الحمامات الطبيعية الساخنة في طبرية ستكون مفيدة لي، لأني أحسّ بتعب عامٍّ، فأعطاني مبلغاً من النقود يكفيني لقضاء أسبوع هنالك، ولكني لم أمكث في الحمامات المعدنية سوى يومين، إذ جاء في اليوم الثاني جماعة من أهل بلدنا، دفعت عنهم تكاليف الاقامة والطعام وافرغت جيبي مما كان فيه من نقود، وعدت الى القرية. واقمت فيها حتى حان موعد ذهابي الى صفد ولما كنت لا أعرف شيئاً كثيراً أو قليلاً من شؤون الطبخ، فقد رافقتني والدتي لتساعدني في ذلك،

واستأجرت شقة في حي النصارى مكونة من غرفتين إحداهما ارضية تشبه أن تكون قبواً دافئاً في الشتاء واخرى علوية، جعلتها للنوم واستقبال الزائرين،

تتكون صفد من ثلاثة أحياء ، حي المسلمين وهو اكبرها ويضم في ذاته حيّ الاكراد، ثم حيّ اليهود، وحي النصارى وفيها شارع رئيسي واحد يلفُّ المدينة ويمتد الى عين الزيتون في ضواحي صفد، وهو الطريق الذاهب الى عكا وحيفا... وأصبحت أهم متعة لي ولبعض زملائي أن نمشي في هذا الشارع حتى نصل عين الزيتون ثم نرجع الى حيث بدأنا. وفي المدرسة - الواقعة في منطقة الرجوم وعلى مقربة منها مستشفى المدينة ومنزل الممرضات - عهد اليّ بتدريس التاريخ والجغرافيا واللغة العربية في الصفين الأول الثانوي والثاني الثانوي، وقد وجدت في المدرسة واحداً من المعلمين علمني في مدرسة حيفا هو اميل خوري وقد ذكرته من قبل كما كان معي من خريجي الكلية المعاصرين لي أربعة من اصدقائي فيهم أنيس عازر وأحمد الحاج ولذا لم يكن جو المدرسة غريباً عليّ كلياً، وسرعان ما تعرفت الى الاساتذة الآخرين والى مدير المدرسة ووجدت النسبة الكبرى من الطلاب من محبي العلم العارفين بواجباتهم المحافظين عليها حتى ألفت الجو الجديد، واندمجت فيه وانسجمت مع ناسه.

وحين استقال مدرس اللغة الانجليزية عهد الي بتدريسها في الصفين المذكورين، كنت طموحاً الى أن أعرف اكثر من الكتاب المقرر، في كل درس، ولذلك عدت الى القدس واستعرت من الكلية العربية بعض المصادر التاريخية، بصورة خاصة، واشتريت من احدى المكتبات بالقدس كتاب طبقات الشعراء لابن سلام، وكتاب معجم الادباء لياقوت، وهو عشرون جزءاً بطبعة مصر ، وكانت تباع في القاهرة بنصف جنيه، وتباع في القدس بمائتين وثمانين قرشاً. ومن بعد اشتريت طبعة قديمة من كتاب الحيوان للجاحظ وجدتها مليئة بالخطأ فأخذت أصحح ما اعتقده خطأ اعتماداً على المعنى في السياق .

إن صفد تقع على جبال عالية، ومن عاش في مدرستها الثانوية، استراح الى منظر بحيرة طبرية الجميل، ولكن شتاء المدينة قاسٍ نوعاً، وفي فصل الشتاء يسقط الثلج أحياناً.

يذكرني بعض تلاميذي في صفد بعد فراقي لمدينتهم أنني كنت آخذ جانب الشدة في الحياة المدرسية، وأنا أصدقهم لا لأنني كنت أنفرد بهذا دون سائر المعلمين، بل لأنّ العقوبة البدنية لم تكن ممنوعة في النظام التربوي، وكانت العصا لاتكاد تفارق يد كل معلم في المدرسة، وأنا أقول إنني كنت أدرّس شباناً واعين، فكانت حاجتي الى العصا أقل من حاجة بعض زملائي الآخرين،

ومع ذلك فاني لا أنكر أنني لم أكن متساهلاً في حفظ النظام وبخاصة حين كان يجيء دوري في أحد أيام الاسبوع لأكون «مناوباً» أي الاستاذ المسؤول عن تنظيم ساعات الدراسة، وترتيب الصفوف،وانتظام سيرها صفاً بعد آخر حتى يستقر الطلاب في مقاعدهم.

وكنت أنا وزملائي الخريجين الجدد في مهنة التعليم نجتمع ونتحدث ونعاهد بعضنا بعضاً ألا نبقى في تلك المهنة اكثر من أربعة عشر عاماً اعتباراً بمصير جميل عبد النور الذي حدثتهم عنه.

وبعد ايام من استقراري في البلد جاء للتسليم عليَّ عدد من أهل صفد، فطلبت من والدتي أن تصنع لهم القهوة، وقدمتها أنا اليهم بعد وصولهم بقليل، فما استقر بهم المقام الا دقائق، ثم قاموا وانصرفوا مودعين. وعجبت لِمَ فعلوا ذلك فقيل لي إن العادة في المدينة الا تقدم القهوة إلا بعد أن يمكث الزائرون وقتاً، وتقديمها لدى وصولهم يعني ايذانهم بالانصراف، فقلت هذا عكس عادتنا في القرى، إذ تقدم القهوة للضيف أحيانا حال ان ينزل عن فرسه ويدخل الديوان. وأسفت لما حدث لكن بعد فوات

الأوان. إذن فأنا أحتاج الى أن أتعرّف الى أساتذة من أهل البلد وأفيد منهم بعض المعلومات عن العادات التي يراعيها أهل بلدهم ومنذ البداية أصبح مصباح الخليفة من أقرب الجلساء إليّ، وهو صفدي وقد أفدت كثيراً من صحبته وتوجيهاته.

وبعد وقت قصير فكّر بعض الاساتذة وعلى رأسهم مدير المدرسة «شفيق بريك» في إنشاء نادٍ للمعلمين، سمّي من بعد نادي صلاح الدين، ولم يضف الى هذه التسمية ما يميزها، فكانت بهذا الشكل تنطبق على صلاح الدين الايوبي كما تنطبق على صلاح الدين الصفدي، وكان هذا شيئاً مقصوداً.

والحق أن هذا النادي قد فصل بين الأساتذة وبين أهل البلد، لأنه أصبح مثابة للمعلمين للتسلية بلعب الورق، فكان اكثر المعلمين يذهبون اليه بعد انتهاء الدروس، ولايفارقونه الا في ساعات متأخرة من الليل. وقد شاركت في هذا النشاط العبثي، وتعلمت كثيراً من ألعاب الورق، وكان الخاسر فيها يدفع ثمن القهوة التي تقدم للاعبين المشاركين.

كانت تسلية لعب الورق في هذه المرحلة احسن وسيلة لقتل الوقت، وكانت سنوات الدرس مرهقة وكأننا استسلمنا بعدها للراحة التامة بعيداً عن الكتاب. نعم: ان هذا كله لم يصرفنا صرفاً تاماً عن القراءة والاطلاع ولكن شتان بين ما كنا فيه قبل تسلم الوظيفة وبعده.

وفي مرحلة ما بعد الكلية ظهر ظمأ اكثر الطلاب الى الانضواء في الاحزاب. فهذا ينضم الى الحزب الشيوعي وذاك الى الحزب القومي السوري، ولا أغالي ان قلت ان صديقاً لي مسيحياً انضم الى الاخوان المسلمين، وكنت معرضاً لضغط شديد من اصدقائي اليساريين للانضمام الى الحزب الشيوعي، ولم أكن بعيداً بأفكاري عنهم ولكنهم كانوا يزودونني بنشرات دعائية بدلاً من تزويدي بالافكار الماركسية وكانت تلك النشرات تزيدني عناداً في مقاومة الانضمام اليهم. وهكذا بقيت بعيداً عن الحزبية، لأني كنت أعتقد ان الانضمام الى حزب يعني أنْ يؤمن المرء بمبادئه ويقتنع بها، وبأنه قادر على خدمة المجتمع من خلالها.

لكني ان لم اكن مثالياً بطبيعتي، فقد صرت كذلك اقتداء بنماذج من الأساتذة الذين علموني في الكلية،وازدادت مثاليتي يومئذ حين غرقت في حوارات افلاطون، وزادني المنهج الشعري الذي اخترته ايغالاً في هذا الاتجاه المثالي. صحيح ان قليل العلم شيء ضارّ وأنا حين تشبعت بالفكر الافلاطوني ظننته نهاية الفلسفة حتى أخذت أؤمن انه كان يجب على واضعي منهج التعليم في الكلية ان يعلمونا أولاً المذاهب الفلسفية الحديثة ثم يرجعوا بنا عوداً الى ارسطا طاليس وافلاطون. لكنهم حين فعلوا العكس حرمونا من دراسة الفلسفات الحديثة دراسة منهجية منظمة؛

وحين تسلمت أول مرتب لأول شهر في العمل التعليمي وكان اثني عشر جنيها، ونحن ما نزال نعاني آثار الحرب العالمية الثانية وان لم نصل نارها ، قدّرت أنّ حياتي ستكون استمراراً للضيق الماديّ الذي سميته في شعري فقراً، وتبرمت به، وهو لم يكن فقراً حقيقة الا لفقدان النقد، وهذا النقد الجديد لا يستطيع أن يقوم مقام الحاجات العينية التي كنا نحصل عليها من أرضنا. تلك خواطر مرّت بي ، ولكن المرتب ارتفع بعد أشهر الى ٣٨ جنيهاً، وأصبح يكفي لتدبر شؤون العيش بالتنظيم والدقة .

وقد انضم اليّ أخي بكر في صفد ليتعلم في مدرستها الحكومية وأصبح حين تجاوز المرحلة الابتدائية أحد طلابي، وكان متفوقاً في دروسه العلمية والأدبية، ولكني حتى لا أتهم بالتحيز والمحاباة كنت امنحه درجة اقل مما يستحق ، وكان هو يعرف ذلك ويقدره دون تذمر. وجاء بعد قليل طفل من ابناء عائلتنا، والغاية من ذلك ان نمهد له سبيل التعلم، ونضعه إزاء مرحلة تعليمية تمتد الى ما وراء الصف الثالث في القرية.

وفي أول سنتين لم يكن في صفد مطعم عام نجد فيه الطعام جاهزاً ولكن أحد آل صباغ أنشأ مطعماً في قلعة صفد وسماه

«مطعم القلعة» وأصبحنا نجد فيه وجبات الغداء والعشاء. وبواسطته أصبحت الحياة أسهل من ذي قبل، وبخاصة حين فارقتنا والدتي عائدة الى القرية.

وكان اكثر حديثنا نحن فئة المعلمين الشباب المتخرجين سواء في مشينا في الشارع الرئيسي أو في مجالسنا يدور في اكثره حول المرأة، كانت هي مادة الحلم والحقيقة، ولكننا كنا نكابر أو نتظاهر بغير مشاعرنا الحقيقية ونرسم للمرأة صوراً تبعدنا عنها وتبعدها عنّا، وكنا نتفنن في هذه الناحية، حتى لقد تعاهد فريق منا أن يعزف عن الزواج، ولكن فيما نحن آخذون في مثل هذا الحديث ما يكاد يلوحُ لنا سرب الممرضات اللواتي يسكنّ قريباً من المدرسة حتى تذوب العهود التي قطعناها على أنفسنا، ونأخذ في ذكر تفصيلات محاسن كل واحدة منهن. وكنا لا نكاد نرى إحدى المدرسات، وقد لفّت حولها عباءتها المقلمة بالخطوط السوداء حتى تشرئب أعناقنا لاستكشاف محاسنها.

كانت المرأة في صفد حينئذ تستعمل عباءة حمراء أو قرمزية ذات خطوط سوداء، وكثيراً ما كانت ترفع هذه العباءة لكي تصلح وضعها إذا هي كانت تسير في مقابل الرجال، وكان هذا يسمح برؤية مفاتن محجوبة للحظة عابرة – ولدى نساء صفد نسبة عالية من الجمال – وكانت تلك اللحظة العابرة أمنية

المحرومين. من هذا يتبين بوضوح أن موقفي من المرأة لم يكن عدائياً، بل الأقرب الذي يمثله الشعر أن شخصيتي كانت تعاني انفصاماً ازاءها. يدل على ذلك أني نظمت في يوم من الأيام (١٩٤٢) قصيدتين متباعدتين جداً في المرأة، وكنت أنام على الشرفة الخارجية من بيتنا في القرية، احداهما عنوانها «هيكل المثل» وذلك رمز للمرأة في صورتها المثالية، وهو نابع من إيماني بأنها أصدق من الرجل واكثر منه تقديراً للحبّ، وأصور في الثانية المرأة المتصنعة المتكلفة التي تظهر سمات المحبة وهي نائية عن هذا الموقف، – نظمت القصيدتين في وقت واحد، وكنت تحت اللحاف، وورقة عن يميني اكتب عليها احدى القصيدتين وورقة عن شمالي اكتب عليها القصيدة الأخرى، حتى اكتملت القصيدتان، ولم أقرأهما الا في الصباح. وحين انتهيت منهما كان شعوري بأنني صادق في الحالين، ومثل هذا التصور موجود في قصائد كثيرة، ولكنه لم يأت بشقيه في وقت واحدٍ الا في تلك الليلة.

وحين عدت الى ما نظمته من شعر (سنة ١٩٤٢– ٤٤) أثناء وجودي في صفد أو في خارجها استوقفتني كثرة ذلك الشعر، وخضوعه في اكثره لنظرة: سلبية تجاه المرأة، فهي تصور في هذا الشعر عبدة للشهوات، ويكاد الالحاح على هذه الفكرة يجعل

ذلك الشعر ثقيلاً لا تقبله النفس بسهولة. كنت قبل ذلك بسنوات قد قرأت في مجلة الرسالة شعراً للأستاذ محمود شاكر تنتمي قصائده الى ديوان سماه «ديوان البغضاء»؛ ويبدو أنني في سنة ١٩٤٣ أو قبلها بقليل وقعت على ديوان «أفاعي الفردوس» لإلياس أبو شبكة فأعجبتني قصائده التي يعيد فيها قصصاً مستمدة من العهد القديم، ووجدت فيها جرأة بالغة، وقلت في نفسي لما كانت المرأة غير موجودة في عالمي واقعياً، بل هي بعيدة نائية، فان البغض أقرب الى تصوير حالتي في موقفها مني وموقفي منها؛ وبدلاً من أن أتأثر بالروح القصصية لدى أبو شبكة تأثرت بالحكم الأخلاقي على المرأة، فأخذت الحّ على تصوير الجانب السلبيّ المزعوم فيها؛ كنت أحاول أن أزرع غابة (شائكة إن أمكن) بيني وبين المرأة لعلي أجد ما يسوّغ حقيقة هذا النأي بيننا. ولكن سرعان ما تبينت أنني كنت ما أزال ابني عالماً من الوهم، لأني حاولت أن أتنكر لما قد يتطلبه الواقع دون اهتمام صغير أو كبير بأوهامي وأحلامي. حينئذ لم أر إلا المرأة المبتذلة، ونسيت المرأة المكافحة في الريف التي تقف الى جانب الرجل وتتحمل معه أعباء الحياة؛ نسيت كل نماذج النساء اللواتي يحملن المسؤوليات بشهامة اكبر من شهامة الرجل واخلاص أنزه من إخلاصه. نسيت كل ذلك حتى وقعت الضربة على رأسي لكي تعيدني الى الصحو.

ففي السنة الثالثة من إقامتي في صفد، وفي يوم من أيام نيسان (١٩٤٣) تناولت عشائي في مطعم القلعة، وتوجهت نحو البيت، وهو واقع في منحدر بعد أن أغادر الشارع الرئيسي، ودخلت البيت فوجدت والدي نائماً فيه، فأفاق من نومه حين دخلت، وبعد التسليم والسؤال عن سائر الأهل في القرية، حدثني ان الذي حدا به الى المجيء هو أن يزفَّ اليّ خبراً ساراً خلاصته أن الأوان قد آن لزواجي وأنه اختار لي فتاة من بلدة قيسارية. اصابتني المفاجأة بالصمت التام، وحين زال أثرها قلت له: ولكن يا والدي انك لا تعرف ما هي مميزات المرأة التي أرضاها رفيقة لي في رحلة العمر. كيف أتزوج فتاة لا أعرفها: لا أعرف إن كانت جميلة أو دميمة، لا أعرف إن كانت مثقفة أو امية، لا أعرف شيئاً عن أسرتها، ولا عن بيئتها. ودع كل شيء جانباً، فأنا أهتم في المرأة بالجمال وبالثقافة، قال: لا أراك تذكر شيئاً عن الاخلاق، قلت: هذا لانه يحتاج الى خبرة لا تيسرها المعرفة العابرة، فانا لا أذكر شيئاً يشبه أن يكون الحكم عليه مستحيلاً. إن الناس في العادة قبل ان يخطبوا فتاة يرسلون امرأة لترى الفتاة المخطوبة، فهي على الأقل تصف أموراً سطحية، ولكنك تجاهلت هذا كله، وهو أقل من الحدّ الأدنى المطلوب، وذهبت تخبر والدها انك تخطب ابنته لابنك، ولكن أية بناته؟ وكم لها من أخوات

وإخوة. وكم عمرها؟ ومهما أستطرد في الحديث فاني لا أتنازل عن الجمال والثقافة؛ الجمال مصدر راحتي في الحياة، وأنا لا احب ان افتح عيني كل صباح على «هولة» مرعبة، والثقافة هي الأرض المشتركة التي يقف عليها اثنان يقطعان رحلة الحياة معاً. اسمح لي أن أقول لك إني غير موافق على هذا الزواج أبداً ولو شئتني أن أكون اكثر صراحة لقلت لك اني لا أريد أن أتزوج لأني لا أملك ما يعين على تكوين أسرة. وكأنما وجد والدي في هذا القول الأخير ثغرة ينفذ منها، فقال: أنا لن أتخلى عنك، وسأقوم بكل ما يكلفه الزواج وما يتطلبه بناء أسرة.

قلت: هبني وافقت على فكرة الزواج فانا ارفض هذه الطريقة جملة وتفصيلاً. قال لا أظنك ترضى أن تمرغ لحيتي في الوحل، فأنا قد أعطيت كلمة نهائية لوالد الفتاة. قلت: ولكن من حقي أن أكون صاحب الرأي فيما يخصُّ مستقبلي، وكلمتك ليست شيئاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولم تسمّي رفضي لهذه الطريقة تمريغاً للحيتك في الوحل؟ أنا لم أطلب منك أن تضع لحيتك حيث وضعتها، بل أنا أحاول إنقاذك من إلقائي في وحلٍ لا أدري أأخرج منه سالماً أو غير سالم. قال: انه ما قلت لك. قلت: لا أظن أنك أنفقت كل السنوات الماضية في تعليمي لكي تجعل مني انساناً معطّل الارادة، يقرر له غيره، قال: ولكن الذي يقرر لك حريص عليك، وهدفه مصلحتك. قلت: لم أتهم نيتك،

ولكني أنتقد طريقتك. أرجوك أن تتقي الله في مستقبلي ، وأن تدعني وشأني. فأنا أحسّ أنني بهذه العناية لا أفترق بشيء عن من يُدفن حياً.

طال الجدل بيني وبين والدي، وهو متمسك بالخطوة التي أقدم عليها، ولم أفلح في أن أزحزحه عنها. وحين ذهبت الى فراشي امتنع عليّ النوم، وطلع عليّ الصباح وأنا في هواجس متضاربة ورأسي يكاد ينفجر لولا ارسال الدموع الغزيرة التي كانت تطفئ نار القهر العميق المتأججة في أعماقي.

كنت أعرف سرَّ المشكلة: فقد أخفق والدي في الزواج من الفتاة التي اختارها واصيب بنوبةٍ نفسية تشبه الانهيار العصبي او هي هو؟ بدأ بتزويج كل من لم يتزوج من ابناء العائلة: زوّج اخي توفيقاً وهو أصغر مني سناً، وزوّج أخي لأمي محموداً، من ابنة عمه عائشة، وكان زواجاً مخفقاً جداً وسعى لأحمد سلامة بالزواج من فتاة لا يعرفها أحمد، وهلم جرا. ورأى أن دوري قد حان وحسب أني واحدٌ ممن يشمله بهذا اللون من العطف القاتل.

وحين ودّعني في النهار عائداً الى القرية قال لي: اما من حيث الجمال فان حظك لم يكن كبيراً، وأما الثقافة فلا أدري عنها شيئاً؟ قلت: سلّم على أمي وقل لها انك في زيارتك لي أطلقت عليّ رصاصة الرحمة وتخلصت مني.

قد يقول قارئ السطور السابقة إنك تريد الجمال ولكنك لم تذكر سماته المميزة وتريد ثقافة ولكنك لا تحدد مداها، إن من يذكر سمات الجمال المميزة ويحدد مدى ما يتطلب من ثقافة امرؤ قد فتح أمامه مجال الاختيار واسعاً وعريضاً وأنا قد حرمت من كل ذلك، فلماذا أعنّي نفسي بالدخول في مثل تلك التفصيلات. إن الجمال صفات عامة في الاخر ترتاح اليها النفس، ومستوى الثقافة هو ما أقدر صاحبه على أن لا يكون في المجتمع كالأصم أو الابكم. ولو فرضنا ان امرأة كانت متناسبة القسمات جميلة العينين ولكن صوتها يشبه جرّ مسمارٍ على صفحة نحاسية، لما عدَّت جميلة - بالمعنى المريح -

كنت أعلم أن لدى والدي أسباباً أخرى تجعله يصرّ على تزويجي، من أهمها توقه الى أن يرى له حفدة من ابنه الاكبر، ومنها انه تابع لعادات الريفيين في التبكير بالزواج. ولكن الذي حيرني بل أذهلني هو لماذا اختار هذه الفتاة دون غيرها، هذا لغز لعلي لن أحله أبداً. ولم يغب عني في تلك اللحظات الحادة أنني إن كنت مظلوماً في هذا الاجراء فان الفتاة التي قبلت هذه الطريقة في الزواج مني مظلومة مثلي أو اكثر مني قليلاً، ذلك أني استطعت أن أقول لا في لحظات المواجهة، وإن لم تفدني هذه الـ «لا» شيئاً أما هي فأظنها قد لا تستطيع أن تقول ذلك.

وكانت النتيجة المباشرة لهذا التصرف أنني كتبت قصيدتين - بمعنى واحدٍ - أصور في كلّ منهما أعمى قد عصب أهله عينيه، وقالوا له : انظر قد جئناك بحورية بحر، فانتفض قائلاً : أكذا يحسم أمري؟! شقوا لي قبري. ثم كتبت رسالة الى أحمد سلامة أخبره بما أحسست به من فجيعة، وظلم، وقضاء على ارادتي، وأنا أعلم تمام العلم أن أحمد لم يثر دفاعاً عن نفسه فكيف يثور دفاعاً عني. ولكن النتائج غير المباشرة قد أثرت على مجرى حياتي وعلى تفكيري وعلى كل صغيرة وكبيرة في رحلة تلك الحياة، ولعل كثيراً من تلك النتائج سيظهر في سياق هذا الحديث.

عدت الى ما ألفته من صداقة الكتاب، إذ أدركت أن ما درسناه من علم النفس التربوي كان محدوداً في النوع والمقدار، وأنه لا بد لي من تحسين معرفتي في هذا الميدان، فاشتريت بعض الكتب في علم النفس التحليلي واعجبتني آراء يونغ في اللاوعي الجمعي وعلاقة ذلك بالادب ، ووقع في يدي مصادفة كتاب لمود بودكين عنوانه:

The Archetypal Patterns in Poetry

وهو تطبيق لنظرية يونغ على عدد من القصائد الانجليزية، فكان للنظرية وللتطبيق اكبر الأثر في نفسي وأستطيع أن أقول

إنني من هنا اتجهت نحو النقد النفسي، بعد اختمار ذلك التأثير. وقرأت كتابا اخر في علم النفس يدور حول «الشخصية» لا أذكر مؤلفه، فوجدته نافعاً في افهامي لكثير من وقفات الجاحظ التحليلية، وكتبت بحثاً موجزاً عن الجاحظ وعن مقدرته في ابراز الخصائص النفسية لدى شخصيات في مجتمعه، وأرسلت هذا البحث لينشر في مجلة كانت تصدر في القدس، لعلها «المنتدى» فجاءني الجواب «حضرة السيدة احسان عباس...» فلما صححت هذا الخطأ الذي وقع فيه أمين تحرير المجلة، عزف المسؤولون في المجلة عن نشره - لقد رحبوا بالبحث لما كان لسيدة ، إذ كانوا يريدون منه أن يقولوا إن المستوى الثقافي لدى المرأة قد ارتفع. وكانت الكاتبات حينئذ بفلسطين في ضمير الغيب، أو هنّ قليلات العدد جداً.

ولم تكن فوائد قراءاتي النفسية مقصورة على النقد، بل كان لها اثر في ما انظمه من شعر اذ اتجهت الى نظم مقطعات تصور أحوالاً نفسية متباينة.

وفي هذه المرحلة من حياتي قرأت كتاب اشبنغلر:

The Decline of the West

وكان أثره في نفسي يقع موازياً لأثر مسرحية هاملت. كما درست ما وقع بيدي من كتب أبي حيان التوحيدي، وجربت قلمي في كتابة كتاب عنه.

وفي تلك المرحلة أيضاً قرأت طبقات الشعراء لابن سلام، كما تتبعت الأحكام النقدية المنثورة في معجم الأدباء لياقوت واستخرجتها على حدة - في دفتر مستقل، ولم تشغلني هذه القراءات عن نظم الشعر ولا عن ترجمة مقطعات للشاعر الروماني كاتولّس الذي أعجبت بشعره وأنا في الكلية العربية.

بعد ثلاثة أشهر من ذلك الحوار غير المتكافئ الذي جرى بيني وبين والدي، وهو حوار أمقته جداً لأنه عقيم غير منتج، وأنا أعرف ذلك منذ بدأ الى أن انتهى، لأني أعلم من نفسي أني -لأسباب كثيرة - لا أستطيع أن أواجه والدي بالقوة التي أتمناها، ولو أني استطعت أن أواجهه بقوة لم يكن لي أدنى أمل في اقناعه، وأنه لن يحل المشكلة إلا الثورة عليه أو اعلاني العصيان على تنفيذ رغبته - بعد ثلاثة أشهر جاء الى صفد مرة أخرى ليقول لي إن أهل خطيبتك يشكون من عدم الكتابة اليهم. قلت: ليس من حقهم هذه الشكوى فانا لا أعرفهم ولا أعرف ابنتهم التي تسميها خطيبتي، ولا أدري بم أخاطبهم وكيف أخاطبهم. والكتابة لا تتم بين فريقين يجهل احدهما الآخر...

عدت الى القرية في أوائل شهر آذار (مارس) ١٩٤٤ واذا والدي قد استنفر معظم أهل القرية للمشاركة في الاحتفال بعرسي بالذهاب الى قيسارية، ولبّى دعوته جميع من دعوا، وهرع

الناس أفراداً وزرافات مشياً الى قيسارية وتلك مسافة تستغرق ساعتين وفي طريقهم مروا بمضارب عرب البرة، فتصدّى لهم هؤلاء العرب بالضرب ، واشتبك الفريقان في معركة، جرح فيها الكثيرون، ومن أجل ذلك ظلّ ذلك اليوم حياً في ذاكرة أهل القرية، ولم ينسوه أبداً . أمام هذا الحشد التاريخي لم يكن في وسعي أن أقول شيئاً، ولو صرخت لم يسمعني أحد، ولكن واحداً من الذاهبين جرفني السيل المتدفع في طريقه فلم أتوقف وجاء الشيخ وقام بعقد القران، ورأيت الفتاة وبعض أهلها لأول مرة. وقام والدي بكل نفقات العرس، وقررنا أن نقضي شهر العسل في مدينة يافا، وسافرنا في نيسان (ابريل) اليها، ونزلنا في فندق لا أذكر اسمه، وحلّ الظلام وأنا جالس على شرفة الغرفة، والنسيم يمنحني ببرودته شيئاً من الطمأنينة وصوت المكدّي (الأعمى) المجروح يتأدى اليّ مبدداً بعض تلك الطمأنينة وهو يقول:

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها

ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

يا ضيعة الأيام التي ذهبت في عناء باطل.. ويا ضيعة الأيام الآتية باسم مستقبل فائل.

أليس من الخسران أن لياليا تمرُّ بلا شيء وتحسب من عمري

أحكم والدي بعض السجن من حولي ببناء حائط واحد، وبنت لي مبادئي التي لم يكن يعرفها والدي بقية الحيطان. إذا تزوج المرء مرةً، فان تجربة واحدة تكفيه لتكون درساً مدى الحياة، وكل تجربة أخرى تعد نوعاً من الجنون. لا أحب أن يكون أولادي أولاد علأت (لامهات مختلفات) فان أولاد العلات يكونون إخوة بالاسم ولكن لا يحملون مشاعر الأخوة الحقيقية، الطلاق حلال، وإن كان أبغض الحلال الى الله، ولكني أكره الطلاق لأنه يلقي بالأولاد في متاهة الضياع. لا أحبّ أن ابني علاقة أخرى، فأنا أضيق ذرعاً بالحب، إنه الشيء الوحيد الذي لا أستطيع أن اسخر منه . إن كان والدي قد عطّل إرادتي، فأنا أريد أن أضع إرادتي أمام امتحان عسير لاثبت أني قادر على تحقيق ما أريد ولو كان ذلك ضد نفسي ووجودي ورغباتي. بهذه الطريقة أحكمت السجن من حولي، وكانت طريقةً تشبه منع التنفس عن جسم بحاجةٍ ماسة الى الأوكسجين.

وكان من النتائج العملية الأولى لهذا الزواج ان رحلت من حي النصارى واستأجرت بيتاً في حي حيادي قريب من المدرسة، وكان بناية كبيرة ولذلك قسمها صاحبها في قسمين، استأجرت منهما قسماً واستأجر قاضي صفد: الشيخ محمد ناجي أبو

شعبان القسم الآخر. وكان على مقربة من البناية غابة زيتون. نجلس فيها في غير فصل المطر. ونشأت بيني وبين القاضي صداقة، وكنت من قبل أحمل فكرة سيئة عن الرجال المعممين. ولكن القاضي كان مثال الاستقامة والدقة والوقوف مع الحق. وكان الشيخ سليمان الجعبري كاتب المحكمة الشرعية مثال اللطف والوداعة، فنقلتني هذه المعرفة الجديدة الى مستوى جديد من الصداقة ، أنستني نادي صلاح الدين ولعب الورق لقتل الوقت. وكأني انتقلت بها من بيئة الى أخرى مختلفة عن الأولى؛ ثم كان من الطبيعي أن أجد لنفسي موضوعاً آخر غير الحديث عن الزواج والمرأة، ولكنني لم أكفّ الحديث عن الحبّ وشؤونه في شعري الذي ظل حبيس الدرج في مكتبي. ولم يعرف الناس منه شيئاً، سوى قصيدة نظمتها بمناسبة الاسراء (سنة ١٣٦٤هـ) وألقيتها في حفلة أقيمت خاصة بتلك المناسبة، وقام الأستاذ عارف حجازي الذي علمني في حيفا بالتعليق عليها، وتبيان محاسنها حسب رأيه، وكانت مفاجأة لأكثر الناس اذ لم يكونوا يعرفون أني انظم الشعر - استثني نفراً قليلاً من الأصدقاء الذين كانوا يعرفون هذه الحقيقة.

إن القاء هذه القصيدة كان مفيداً لي من ناحية أخرى، إذ جعلني أدرك أن الشهرة كالخمرة الرديئة تعجّل في نشوة الشارب وتخرجه عن طوره، وشاهد ذلك في حالتي أني نظمت

بعد القائها بيومين أو ثلاثة قصيدة أقول فيها:

نسيتك بين ضجيج الهتاف وألهاني الأملُ الباسمُ

وضيعتُ حبَّكِ بين الجموع وللمدح حولي صدى ناغم

فاذا كانت قصيدة واحدة في مجتمع صغير أبطرتني الى هذا الحدّ فكيف الحال حين تكثر القصائد ويكبر الجمهور الذي يستمع اليها. لا : إن الشعر خطر على من كان مثلي لا يتحمل خمر الشهرة ؛ ويصيبه السكر من رائحتها.

وكنت شديد التفاؤل بأن أول مولود لي سيكون بنتاً، ولهذا اتفقت أنا وزوجتي على أن نسميها «نرمين» باسم ابنة لصديقة زوجتي.

وفي شهر آذار (١٩٤٤) - ولم تكن نرمين قد ولدت، كنت أجلس وأصحابي في غابة الزيتون المتصلة بمسكني، وكانت الشمس تلتمع قليلاً ثم تغيب التماعتها. فلما غادر الأصحاب دخلت البيت ونظمت قصيدة:

أهذه نرمين تضحك في آذار

يا قلبي المسكين مالي وللتذكار

كنت أحب قصائد وردزورث في الطفلة «لوسي» فكانت هذه القصيدة وقصائد أخرى نظمت بعد أن ولدت نرمين من وحي تلك المحبة.

وكان من أحب الناس اليّ في صفد خارج نطاق المدرسة، هو مصطفى النقيب والد أسامة وعصام وفضل وهم من أبرز من مرّ عليّ من الطلاب نجابة، وقد ورثوا الذكاء عن والدهم، فهو في نظري أذكى رجل عرفته ويجمع الى الذكاء نزاهةً أصيلة. كان تاجراً في سوق صفد، وكانت الايام أيام حرب، والمؤن ماتزال توزع بالتعيين، فكان دقيقاً في عمله هذا، يربأ بنفسه عن ان يستغل تلك الاوضاع الاستثنائية من اجل زيادة في الربح المشروع. اقول هذا بثقة، ولكني لا أستطيع ان اكرر هذا القول في عددٍ من نظرائه التجار.

وكانت ملكة الجمال غير المتوجة في حيّ المسلمين هي «قمر» وملكة الجمال في الحي اليهودي هي «يونا»، وكان الشبان اذا ذكروا هذه أو تلك سرى في نفوسهم تيار قوي من الاعجاب، وقد نظمت في الثانية قصيدة متعددة المقاطع، فكان بعضهم يترنمون بتلك القصيدة، لخفتها على ألسنتهم. (والقصيدة مما لم أثبته ولا أذكر منها شيئاً) وانضاف الى هاتين الملكتين ملكة ثالثة وهي فتاة لبنانية، هاجر عمها من بلده واستقر في صفد، واسمها «مسرة» وكان عمها شاعراً، ألقى ذات يوم قصيدة افتتحها بقوله:

اليوم يوم مسرة وحبور.........

فلم يدعه الحاضرون يكمل البيت لكثرة التصفيق الا بعد أن تعبت أكفهم.

وقد قررت في بعض المراحل أن اتعلم اللغة العبرية ولكني لم اقطع فيها شوطاً طويلاً لان المدرس الذي كان يعلمنيها وهو (سامي ، صموئيل) قد اقترح كتاباً صالحاً للأطفال، فلم تكن مادته تناسبني، وان كان مناسباً من حيث الجمل البسيطة،والمفردات الضرورية.

لم يكن في صفد قاعة عامة للمحاضرات، ولهذا فانه حين دعي ميخائيل نعيمة لالقاء محاضرة احتشد الناس في أحد المقاهي للاستماع اليه، لا اذكر من دعاه ولكني كنت بين من استمعوا اليه يلقي قطعة نثرية مما كان قد نشره في بعض كتبه، بصوت رقيق ناعم، ظللنا بعد ذلك نتذكره مدة طويلة. وقد قدّمه نعمة صباغ بقوله: ولد في بسكنتا التي تطل على الدنيا.

ولعل أهم تجربة لي في الحقبة الصفدية خارج نطاق التعليم أن الاساتذة في صفد ومنطقتها قد أجمعوا على انتخابي ممثلاً لهم في اجتماع يعقده ممثلون عن المعلمين من جميع أرجاء فلسطين في القدس، ليتباحثوا فيه حول تأسيس نقابة للمعلمين. فسافرت الى القدس وشهدت في الاجتماع فئة من المعلمين قد

دسّتهم ادارة المعارف لكي يعملوا على مقاومة هذا الاتجاه . وتعطيل تأسيس نقابة، وهكذا حدث،

كانت إدارة المعارف، تخاف من كل بادرة يقوم بها المعلمون، وعندما قررنا ذات يوم في مدرسة صفد أن نذهب الى المدرسة دون أن نحلق لحانا (وكذلك فعل معلمون في مدارس أخرى) احتجاجاً على بعض الاجراءات المتعسفة، جاءنا انذار من مدير المعارف الانجليزي، وأبلغنا اياه مدير المدرسة، ولم يكن الذين أعفوا لحاهم من الحلق كثيرين، ولكن الذين فعلوا ذلك كان يشار اليهم بالقدرة على العناد، ومواجهة نتائج قد تكون قاسية. ولعل إصراري مع عدد من زملائي على هذا الموقف هو الذي رشحني لتمثيل معلمي المنطقة في ذلك الاجتماع.

لم يكن لي قبل ذلك خبرة بمثل هذا النشاط (إلا قليلا)، اذ كانت الدراسة في الكلية العربية لا تسمح الا بتكديس المعلومات في أذهان طلابها، ولا أستثني من ذلك الا دوري في مدرسة حيفا الثانوية، حين كنت رئيس جمعية الطلبة لعدة سنوات، وعرفت كثيرا من مماحكات الأعضاء وأسبابها، وفي آخر سنة من رئاستي للجمعية، وجدت أن عدداً من الأعضاء فيها قد حاولوا تحويل المحاضر الى وثائق تجعل من الجمعية هيئة لمراقبة الطلاب، وتسجيل بعض المآخذ على سلوكهم. وكان هذا هو الناقوس الذي أنذر بانتهاء أعمال الجمعية وانهاء الحاجة اليها.

إن استمراري بعيداً عن الحزبية قد قوّاه خطّ التخصص من بعد، فالثقافة الأدبية العربية لا توصل الدارس الى العلوم الحديثة، ولهذا يظل صاحبها - بعيداً - من زاوية علمية عن الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والانثروبولوجية بل والألسنية الحديثة وعن المدارس الفلسفية الحديثة، وهي اتجاهات لا تستطيع أن تعوضها القراءة الحرة غير المنظمة، وقد أتيح لي أن أقرأ فيورباخ، ومن بعد حين أصبحت في جامعة الخرطوم لم أجد في مكتبتها ما يجذب اهتمامي سوى عدد من مؤلفات ماكس فيبر، ولكني ظللت بعيداً عن ماركس ورأس المال، والدراسات الكثيرة في المادية الديالكتيكية؛ لقد أتيح لي أن أقرأ - من حيث الكم والنوع - كثيراً من المؤلفات البعيدة عن مجال الأدب، ولكنها لم تكن ذات أثر قوي تحويلي في نظرتي الى الحياة والقضايا الاجتماعية، وفي استقلاليتي بموقف فكري متبلور.

ومع أنني اصبحت في جامعة الخرطوم عضواً في أحد مجلسي الجامعة واصبحت في الجامعة الاميركية بعد ذلك عضواً في الجماعة الاستشارية حول عميد كلية الآداب والعلوم ومسؤولياتها متعددة، فان هذه التجربة لم تتعمق في حياتي وتفكيري، لأني أولاً ظللت بعيداً عن الانتظام في حزب وثانياً لأنه

لم يكن لي وطن أمارس فيه حق الانتخاب والترشيح، فظللت حيث أقيم على هامش الحياة الشوروية والممارسة الديمقراطية، بل الحق أنني ظللت على أقصى هامش الهامش في مثل تلك النشاطات. ولم يكن كثير من الحزبيين أحسن حالاً مني، لأن حزبيتهم - في أي بلد عربي - كانت نوعاً من المسارعة الى تعذيب الذات، على مستويات مختلفة.

وأنا اليوم حين أنظر الى ما يزال قائماً من الاحزاب والى بعض مبادئها أجدني لم أخسر كثيراً، فأنا لا أستطيع أن انتسب الى حزب ديني، ولا أستطيع أن اشايع حزباً يدعو الى الوحدة العربية وهو نفسه عامل في عدم تحقيقها، وكنت أسمع الماركسيين ينادون بنهاية الرأسمالية كلما وقعت الرأسمالية في ورطة، ولكن لم تكن الرأسمالية أقوى مما بلغت اليه اليوم، في ظلّ النظام العالمي الجديد. كنت أريد حزباً يؤمن لي وجودي كانسانٍ له انتماء فلم أجده، فحاولت التعويض عن ذلك بالعمل الحرّ المستمرّ.

تحولّت حياتي في صفد الى وتيرية يمكن أن تسميها نظاماً، في ظل الحياة العائلية، ولكن هذا التحول لم يستوقفني ولا استدعى التأمل مني أو المقارنة مع ما كان، كنت أراه أمراً طبيعياً، مألوفاً منذ أن كان الانسان على هذه الأرض، وبسبب تاريخيته في نفسي لم أجده جديداً لم أستقبله بدهشة أو

استغراب أو فرح أو حزن، كانت مشاعري أزاءه معتدلة متعادلة كثيراً، كنت قد فقدت روح الاندهاش والاستغراب وكان ذلك بحكم التربية الريفية ثم بحكم الهدوء العقلاني الذي تتطلبه التربية المدرسية التي تفرض على المرء أن يكون متعقلاً رزيناً منذ نعومة أظفاره وأن لا يضحك عالياً استهجاناً أو استغراباً، وأن لا يعلن عن فرحته أو جزعه بالصراخ. وكانت مسؤوليات «المدرس» تقرر هذا السلوك وترسخه وتمعن في استدعائه. وكان يقال لنا تزييناً لهذا السلوك في نفوسنا هكذا يفعل المتحضرون (يعنون الانجليز). ويروون إن مفتشاً انجليزياً دعي الى الفطور في القرية وقدم له البيض في الفطور، فكسر المفتش بيضة، وإذا قد تولّد فيها (صوص) صغير، فما كان منه إلا أن وضع الصوص جانباً، واستمر يأكل كأنه لم ير شيئاً، لم يتملكه التقزز ولا استولى على قسماته الاستغراب. ويسمع أحدهم هذه القصة فيبني عليها قصة مماثلة، وهكذا. إن هذا كله عملية «تدجين» متدرجة، تحول فرحة الطفل – مع الزمن – لتجعله «حيواناً اجتماعياً». لا . لا شيء يستفزني ، لا خيبة الأمل، ولا عظم الرجاء. هما سيان،

أقمت في صفد خمس سنوات تدريسية، وجاءني ذات يوم صديق فأخبرني أنني منذ أن تخرجت في الكلية لي حق في بعثة الى خارج فلسطين لاكمال الدراسة الجامعية، وفي كل عام –في موسم معين – تطرح لجنة البعثات اسمي فيقول أستاذ اللغة العربية في الكلية: يرسل لدراسة الأدب العربي، ويتصدى

اسـتـاذ اللغـة الانجليـزية ويقـول: بل يرسل لدراسـة الأدب الانجليزي ، فيقول مستـرفرل مدير المعارف، ولكن هذا الطالب لم يطلب أن يرسل في بعثـة، فيـتـوقف كل شـيء عند هذا الحدّ، وتتـعطل البـعـثة، وأنا لا أدري شـيـئاً من ذلك، فلما أخـبـرني ذلك الصديق بهذا النبأ، قدمت طلباً عبرت فيه عن رغبتي في متابعة الدراسـة الجـامعية، فجاءني الجواب يخيرني بين أن أرسل الى انجلتـرا – لدراسـة الأدب الانجليـزي – أو أرسل الى مـصـر – لدراسـة الأدب العـربي. كنت في حقيقة الأمر ميـالاً لاختـيار انجلتـرا ولكنـي أجبت بأني أختـار مـصـر، وسـبب ذلك أنني قد رزقت بولدين يحتـاجان الى تعلم اللغة العربيـة، وأنني متزوج، وزوجـتي لا تتكلم اللغة الانجليـزية ، وبهذا لن يكون العيش في انجلترا سهلاً لديها.

ولما قـررت ذلك عزّ علي فراق صـفـد. إن الفـة المكان تأسـرني ، وأنا أقـر بضـعـفي تجـاه كلّ مكان حللتـه، وعزّ عليّ فراق طلبتي واصـدقـائي في تلك المدينة. وكنا قـد أصـبـحنا أسـرة مكوّنة من أربعـة اشـخـاص : أنا والزوجـة ونرمين واياس، وفي وداع الأصـدقـاء أقمت حفلة زعمت أنهـا بمناسـبـة ولادة ابني (إياس) وبعد ذلك بأيام قليلة عدنا جميعاً الى عين غزال.

XIII
في جامعة القاهرة
١٩٤٦-١٩٤٩

لما اكتملت الاعدادات للسفر، أخبرت الأسرة الكبيرة بما عزمت عليه، فجاء لتوديعي عدد غير قليل من الأقارب وغيرهم، سألني أحدهم : وماذا ستكون وظيفتك حين ترجع الينا؟ قلت: سأرجع معلماً، وقال آخر: أنت الآن معلم، والسنوات التي ستقضيها في الدراسة الا تمنحك رتبة أعلى؟ مدير مدرسة مثلاً ؟! وقال آخر: أو قائم مقام. وقلت: لا أتوقع شيئاً من هذا، إنما هو ما قلته لكم. وقال إمام القرية: الى مصر....هه ، حياة الطلب جميلة، ستعود لنا عالماً؛ اطلبوا العلم ولو... لا بد ان تزور الحسين والسيدة وتجلس في قهوة الفيشاوي، وتذوق عصير القصب اللذيذ.

وفي الليلة التي نويت ان اسافر في صباحها الى مصر رأيت في ما يرى النائم أني واقف عند شجرة الغرقد التي يعلق الناس

عليها مزق الثياب، اعتقاداً منهم ان لا بد أن يكون وليّ قد دفن تحتها، عند أرض لنا تقع عند قاعدة جبل الرأس، حيث الطريق التي تتجه من القرية الى السوامر، والمطر يهطل بغزارة شديدة، وقد غمر الماء الطريق وأخذ يرتفع مع ارتفاع الجبل، وازداد ارتفاعه وأنا أصعد ووالدي يناديني أن ارجع، وانا اقول له: سأتوغل في الجبل الى قمته وعندها لن يدركني الماء، وكانت الأرض تزدان بالخضرة كلما نظرت ورائي، حتى لقد رأيت شجرة الغرقد وقد غطاها الماء، ولكني على الرغم من ذلك أرى الخضرة تغمر السهل. وعندما يئس أبي من عودتي كفّ عن النداء، كان حلماً يستعيد قصة الطوفان ونوح وابنه، وظل واضحاً في ذاكرتي سنوات بعد ذلك.

وفي صباح يوم السفر ذهبت الى حيفا وحدي، وركبت القطار الذاهب الى مصر، لأني قررت ان اتعرف الى مصر (القاهرة) بنفسي في أول سنة، وفي التالية أجيء مع زوجتي وطفليّ، ولكني وأنا في القطار كانت هواجس تتلبس بي: أليست هذه فرصتي لأتخلص من الأسرة ولا أعود الى القرية، وكانت هواجس أخرى تردّ على هذا اللون من الهواجس. لو كنت تريد ذلك لاخترت الذهاب الى انجلترا، أما ذهابك الى مصر فهو – في الدرجة الأولى – من أجل الاحتفاظ بالأسرة لا من أجل التخلّي عنها.

وحين نزلت من القطار في باب الحديد، ذهبت الى العتبة الخضراء، ونزلت في فندق رخيص هنالك، وفي مقهى صغير قريب منه اجتمعت بطلاب فلسطينيين أعرفهم. دلّوني كيف أصل الى جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة من بعد) فلم أجد اسمي بين المقبولين في كلية الآداب. كانت أوراقي قد حملها مندوب ادارة المعارف من فلسطين وسلمها للمسؤولين في الجامعة، ولكن يبدو أنها فقدت في بعض المراحل، وأصبح متعذراً عليّ دخول الجامعة لأني أحتاج الى (كارنيه) ونصحني بعض العارفين بمقابلة الدكتور عبد الوهاب عزام، وكان عميد كلية الآداب يومئذ. فهاتفته ، وأخذت منه موعداً لمقابلته في بيته فهوّن عليّ الأمر بلطفه واقتراحه الحل الملائم، وهو أن يعطيني شهادة مطبوعة على الآلة الكاتبة أريها لضابط الجامعة على الباب عند الدخول كلّ يوم. وكنت أنشر هذه الشهادة كل يوم فاذا رآها الضابط المسؤول رحّب بي قائلا : اهلا بالشيخ الكبسي . وكان الشيخ الكبسي ممثل اليمن في الجامعة العربية عضواً مستمعاً ، و كنت أنا بحسب الشهادة تلميذاً مستمعاً لا منتظماً في الجامعة المصرية.

وبعد إقامة بضع ليالٍ في الفندق اتفقت مع مجموعة من الطلبة الفلسطينيين يقطنون في الروضة أن أشاركهم السكن في بناية

منفردة ذات طابق واحد، وقد اتفقنا مع رجل لكي يراعي شؤون المسكن، يقال له «أبو عزيزة» وكانت زوجته تقوم باعداد الفطور والعشاء، أما وجبة الغداء فكنا نتناولها في الجامعة. وفي يوم الجمعة كان يبقى في البيت طالب ماهر بطهي طبخة فلسطينية تدعى «المقلوبة» (وهي أرز مع الباذنجان واللحم تقلب من الحلة في صينية واسعة عند نضجها).

كانت كلية الآداب تتقبل الطالب الحائز على الشهادة المتوسطة الفلسطينية في السنة الجامعية الثانية، وحملت في حقيبتي الى القاهرة ترجمتي لكتاب الشعر لارسطا طاليس وكتاباً عن ابي حيان التوحيدي، ونفسي تحدثني انني سأجد لهما ناشراً في القاهرة . ولكن الناشرين سخروا مني لما أنبأتهم أني طالب في السنة الثانية الجامعية، وكانت حكومة فلسطين قد خصصت لي سنوياً مبلغ (٢٥٥) جنيهاً، وكان ذلك يمكنني من العيش المعتدل، اذ كانت القوة الشرائية للجنيه عالية، فكنت أحصل على ما اريده من ملابس وطعام وكتب. واخذنا في التعرف الى القاهرة، ولأول مرة عرفنا معنى حضارة المدينة الكبيرة: مطاعمها ومقاهيها ودور السينما والمكتبات ودور الكتب، والمتاحف والمنشآت الأثرية وغير ذلك. واتبعت طريقة لا تخلو من خطر في التعرف الى أحياء القاهرة، فكنت آخذ الترام من

العتبة. وأمضي معه الى نهاية الشوط ثم آخذ تراماً آخر وهكذا...
وكنت أعرف طلاباً في الأزهر، وفي أحياء بعيدة كالظاهر والسكاكيني وغير ذلك، وكانت اقامتي في الروضة تسهل عليّ الوصول الى الجامعة - ماشيا أحيانا -. وبعد مضيّ شهرين أو ثلاثة جاء الى القاهرة صديقي محمود الغول رحمه الله، وكان قد سبقني الى التخرج في جامعة القاهرة نفسها فشكوت اليه اني لا أجد في ما ادرسه شيئا جديداً الا قليلاً فقال لي: قد كنت أحسبك عاقلاً، أما الآن فيبدو لي أنك لست كذلك. هل تعتقد أنّ في كل البلاد العربية مكتبة أغنى من مكتبة جامعة القاهرة؟ اين أنت عن الافادة من المكتبة. ثم أنت بحاجة الى ورقة (أي شهادة) تعينك على طلب الرزق بعد تخرجك. اهدأ وقرّ عينا بما تجد، وهذه فرصة فلا تضيعها. فأخذت بنصيحة محمود وأقبلت على المكتبة أتناول منها ما يقع في يدي من كتب واقرأ وأدون ملاحظات. وأذكر أن من أوائل الكتب التي قرأتها كتاب «تاريخ الفلك عند العرب» وهو يجمع محاضرات للمستشرق الايطالي نللينو، القاها على طلبة الجامعة المصرية. وكانت قراءاتي متنوعة، وغايتي منها التثقيف الذاتي، والشعور بأنني أجني فائدة علمية من الجامعة. وكنت أحضر بعض محاضرات الاساتذة: سهير القلماوي، وشوقي ضيف، وأمين الخولي،

وعبد الوهاب حمودة ، وأحمد الشايب، وغيرهم ، وكنت اكتب البحوث التي يكلفوننا بها بانتظام. وكان يدرس اللغة الانجليزية مدرس كبير في السن لا أذكر اسمه، وقد وضع بين ايدينا رواية تاجر البندقية لشكسبير وآخر شاب هو دنيس جونسون - ديفز، ونحن نقرأ معه «مرتفعات وذرنغ» لاميلي برونته. وقال لي دنيس مرة: ماذا تصنع أنت بمواظبتك على الحضور الى هذا الدرس، قلت: أستفيد من بعض ملاحظاتك. وكان الرجل صادقاً، فأنا قد قرأت هذه الرواية من قبل، وهي لا تحتاج مني الى اكثر من بضع ساعات، ولكنها للطلبة في قسم اللغة العربية مقرر سنة كاملة، فكتبت دراسة عنها وقدمتها للأستاذ المذكور فعدّ ما كتبته بمثابة امتحان، ونصحني أن انصرف الى قراءة كتب أخرى يعينها لي: وهكذا بدأت برنامجاً في الأدب الانجليزي الحديث، فقرأت قصص أهل دبلن، وصورة الفنان في شبابه ويولسيز لجيمس جويس، ثم انتقلت الى روايات فرجينيا وولف ومنها مسز دالوي، وغرفة يعقوب وغيرهما كثير، ولم أدع رواية لـ. د. هـ. لورنس الا وقرأتها. وتعرفت الى ت. س. اليوت في شعره ومقالاته النقدية وكان دنيس يوجهني الى الاجابة على أسئلة حول ما أقرأ. وبذلك كنت أدرس في قسم اللغة العربية وأنا قد وضعت الأدب الانجليزي نصب عيني. وقد عرّفني هذا

الأستاذ على ما ترجم الى الانجليزية من سلسلة روايات مارسيل بروست التي تحمل عنوان «البحث عن زمن ضائع» - وكنت أستطيع شراء اكثر هذه الكتب التي ذكرتها، أما الكتب الأخرى التي أحب قراءتها - وبخاصة خارج عالم الشعر والرواية - فكنت أستعيرها من مكتبة الجامعة. وقد أحسست بأني أملك ثروة كبيرة بهذا الاطلاع الذي فتح آفاقه أمامي دنيس جونسون ديفز، فأنا مدين له حقا بحسن التوجيه. فقد كان ذلك استكمالاً منظماً للبحث عن دوائر معرفية جديدة لم أطرقها من قبل ولم أنس وأنا منشغل بهذه القراءات أن أترك لدى أساتذتي الآخرين انطباعاً حسناً عن طريقة إجابتي في الامتحانات. كنت أتعمد أن أفاجئ الأستاذ في الامتحان، بكتابة شيء حصلته عن غير طريق محاضراته، أو عن طريق التطوع بكتابة بحوث لم تكن الزامية.

وعند انتهاء السنة الدراسية رجعت الى فلسطين بالقطار وقضيت الأسبوع الأخير من تموز (يوليه) ١٩٤٧ ومعظم شهر آب (أغسطس) في عين غزال، وتحوّلت الى قيسارية في الأسبوع الأخير من آب وعدت الى عين غزال في أول ايلول (سبتمبر) وقضيت معظم النصف الأول من هذا الشهر متردداً بين القريتين وفي أواخر تشرين الأول (اكتوبر) ذهبت الى صفد، واستأنفت التعليم في مدرستها الثانوية لمدة ثلاثة أشهر

لأحصل على مرتب يعينني على تكاليف العيش مع أسرتي في القاهرة ولكن ادارة المعارف لم تدفع لي مليماً واحداً عن الاشهر الثلاثة، وقيل لي ان شخصاً ذا نفوذ تسلّم المبلغ مدعياً أنه يتسلمه نيابة عني.

ولما عدت الى القاهرة رحلت الى حيّ منيل الروضة، واستأجرت شقة تكلّف أجرتها ٧,٥ جنيهات شهرياً، وكان الدكتور شوقي ضيف يسكن قريباً مني، فنشأت بيني وبينه صداقة وأخوة متينة الأواصر ، حفظه الله ورعاه وأصبحت أمشي الى شاطئ النيل وأركب المعدية الى الجيزة في اكثر الأيام.

وذات يوم (سنة ١٩٤٨) خرج طفلاي دون أن أحس أنا أو أمهما بهما، وسارا في شارع نظيف (وهذا اسم الشارع) في الاتجاه الذي أذهب فيه اكثر الايام الى شاطئ النيل، وكانت لحظات قاسية علينا نحن الاثنين، حين بدأنا نتخيل أي اتجاه سلكا، وأخيراً وجدنا في آخر الشارع رجلاً يشبه ان يكون عمدة الحيّ قد آواهما، فتسلمتهما وارجعتهما الى البيت، وحمدت الله على انهما لم يسلكا الاتجاه الذي يفضي بهما الى الشارع العام. والى اليوم يحزُّ في نفسي انني لم استطع ان اجد في جيبي ما أكافئ به ذلك الرجل النبيل، ولهذا الوضع حديث سوف يتلو هاهنا بعد قليل.

لم يكد يحلّ شهر مايو (أيار) الشهر الخامس من سنة ١٩٤٨ حتى هبت على وطننا (فلسطين) أعاصير عاتية بددت أهله في شتى النواحي، وهلك من أهله من هلك في المذابح، وكانت حكومة الانتداب هي التي تدفع المال للطلاب الفلسطينيين المرسلين في بعثات، فأوقفت دفع مستحقاتهم، وقضيت بقية عام ١٩٤٨ وبعض العام التالي وأنا لا أملك قرشاً. فتوقفت عن دفع أجرة الشقة التي نسكنها، وجاءني صاحبها محمد حامد - وهو رجل شهم - وقال لي : أنا أعرف الضائقة التي تعانيها، فلا تبتئس، ستظل ساكناً في الشقة ولا أطالبك بشيء حتى تعود الأمور الى طبيعتها، فشكرته كثيراً واكبرت فيه شهامته واحساسه بمشكلتي. ومن أجل الحصول على الطعام باعت زوجتي ما لديها من حليّ. ومن دون ان يدري والدي بما نعاني بعث مع أحد معارفي عشرة جنيهات - لعلها هي كل ما كان يملكه. ونمي خبر هذه الضائقة الى أستاذي وصديقي شوقي ضيف، فعرض عليّ أن يسلفني مبلغاً من المال، فشكرته وأوضحت له أنني لا أدري هل اصبح في حالة أستطيع فيها ان ارد اليه دينه. فقال لي - لما كررت الاعتذار عن قبول سلفة - : أذكر أنك حدثتني بأن لديك ترجمة كتاب الشعر . قلت هي موجودة. قال: هاتها وأنا أقدمها الى دار نشر وأحصل لك مقابل

ذلك مبلغاً من المال، وكان الأمر كذلك. ولكني لا أدري هل كان المال الذي أعطانيه من دار النشر أو أنه اقتطعه من ماله الخاص. وجاء لصديقي محمود زايد رحمه الله (وكان طالباً في قسم التاريخ) مبلغ من المال فقسمه بيني وبينه مناصفة. وقال لي صديقي محمود الغول وكان يدرّس في المدرسة الانجليزية بالسويس: في آخر الشهر أتسلم أول مرتب لي من المدرسة، وهو لك، وكان مرتبه في الشهر يزيد على (٤٢) جنيهاً، وجاءني في آخر الشهر يحمل المبلغ كله، فقلت له: قد حُلّت العقدة، ووصلني من السفارة البريطانية في القاهرة اشعار يقول انهم يحتفظون لي بحقي من المال عن الأشهر السالفة وإلى أن أتخرج. لم تكن «حقبة الجوع» قصيرة إذ اقدّر أنها استمرت عشرة شهور. فلما استطعت ان اتسلّم المال دفعت لصاحب الشقة الاجرة التي تراكمت عليّ، ودعوت أخي محمود السمرة وأخي محمود زايد الى البيت، وعلوت منصة ونثرت المال على الأرض وقلت لهما بلهجة مسرحية: لقد جاءني مال كثير فمن شاء عددت له عداً ومن شاء كلت له كيلاً (ورضي الله عن عمر بن الخطاب) وضحكنا كثيراً، وأكلنا المجدّرة (الأرز والعدس) وهي أكلة فلسطينية تقارب «الكشري» في مصر.

لم يكن هذا التصرف بطراً أو استهتاراً ولكنه كان إيماءة الى ما عانيته في «حقبة الجوع». لقد تزوجت قبل أن أحسم الصراع بيني وبين الفقر، وازددت احساساً بالمسؤولية الباهظة أيام الضياع في القاهرة، فتحول كل شيء في وجودي الى البحث عن مصدر للرزق، صحيح إني كنت في القرية أشكو الفقر، ولكني كنت أعيش بين أمثالي من الرعاة، اذ كان لي وطن، أما الآن فأنا احس ذاتياً - واظل مشغولاً بذاتي - ومسؤوليتي الخاصة، وأنا اكاد اوقن باني فقدت القدرة على الاستقرار في وطن. لا غرابة في اني لم استطع التحوّل من الاهتمام الخاص الى الهم العام، ولكن الضحية الوحيدة لكل هذا إنما كانت هي «الشعر» - كما سأوضح بعد قليل وكان حبي للأطفال والاستكثار منهم هماً آخر، تخلصت منه بتحديد النسل، واقنعت زوجتي بأنا - مهما تكن أيامنا المقبلة - لسنا سوى لاجئين، مُدفَّعين في الأرض، فمن الخير ان يكون العبء على اكتافنا غير ثقيل، خصوصاً ونحن نتقدم في السن ونفقد قدرة الشباب على التحمّل.

إن «حقبة الجوع» قد غطت بظلالها الكثيفة على أيام جميلة أمضيتها في القاهرة وكنت أتردد فيها الى غروبي والى الاميركين وغيرهما وشاركت في رحلة قام بها الطلاب الى

القناطر. وأذكر بالخير شابا فلسطينياً من غزة هو الأخ فاروق البربري الذي كان يدعونا الى بيته ويسمعنا أجمل ألوان الموسيقى الكلاسيكية، وهي هواية بدأتها في الكلية العربية، وتوسعت فيها حين استقرت بي الحياة في بيروت – من بعد – أي حين أهداني أخي بكر «ستيريو» لتحقيق تلك الغاية.

وعندما نجحت (عام ١٩٤٩) في نيل شهادة الليسانس، كان الذي يقرأ الأسماء ليجيء كل طالب في دوره هو الاستاذ محمد عبد الهادي أبو ريده الذي درسنا عليه الفلسفة الاسلامية، فاقتربت منه وقلت له: أنا تلميذك إحسان عباس فاذا قرأت اسمي فأرجو الا تقرن به لفظة «الآنسة» – وبعد تردّد يسير، قرأ اسمي (صحيحاً)، وتسلمت الشهادة وعدت الى البيت وأخذت قسطاً من الراحة ثم كتبت عدة رسائل، لكل البلاد العربية التي اقدّر أنها تقبلني معلماً في احدى مدارسها، فما تلقيت جواباً. ما قيمة هذه الشهادة التي قال لي محمود الغول عنها انها ضرورية لي. سامح الله والدي، لو كنت الآن وحدي لتحملت التصعلك، ولكن كيف تتحمله هذه المرأة المسكينة وهذان الطفلان البريئان. إن ضياع الوطن يفرض حالة التصعلك، وحالة التصعلك قد تنجب الجوع، فما العمل؟

جاءني الرجل النبيل الدكتور شوقي ضيف وسألني: ماذا قررت أن تصنع: قلت له: كان القرار في يد الجيوش العربية التي دخلت فلسطين فسلّمتها وعادت سالمة الى قواعدها. قال: أين استقر أهلك؟ قلت: لا أدري، قال: لديّ حلّ مؤقت، أن تقبل التدريس في مدرسة العائلة المقدسة، فأنا أعرفهم ودرّست عندهم وقد اقترحت اسمك لهم. قلت: فضلك عليّ كبير، وأنا أعجز حقاً عن اداء حقك من الشكر وذهبت واياه الى المدرسة المذكورة وقدمني للأب المسؤول رئيس قسم اللغة العربية، واتفقت معه على أن أدرّس - جزءاً يسيراً من الوقت لقاء ٢٢ جنيهاً، وأن يتعلم ابني في مدرستهم دون أن يدفع أقساط التعليم.

ولم يكن التدريس يكلفني جهداً أو وقتاً كثيراً، ولهذا سجلت موضوعاً للماجستير هو «الأدب العربي في صقلية الاسلامية» باشراف الدكتور شوقي ضيف، ولم أكن أعرف شيئاً عن مصادر الموضوع - وهذا خطأ مني لاني أنا الذي أصررت على الكتابة في هذا الموضوع وهكذا جعلت كل وقتي في الأيام التي لا أدرّس فيها - وهي ستة ايام من الاسبوع - أن اذهب الى دار الكتب وأجمع المادة اللازمة لي، وأعانني صديقي أمين المخطوطات في الدار الأستاذ فؤاد سيد رحمه الله اذ يسّر لي

الاطلاع على كل ما يمكن أن يتصل بصقلية من المخطوطات، فقيض لي أن أجمع مادة لم تتيسر لأحد من قبلي – أعني في الدراسات الأدبية وكان ميكيل أماري قد استوفى دراسة النواحي التاريخية في كتابه الضخم المؤلف من ستة مجلدات Storia dei Musulmani di Sicilia

وكان صديقي الأب ريميرو الأسباني الجنسية يجيء لزيارتي، وهو يعرف اللغة الايطالية كأحد ابنائها فطلبت منه أن يعلمني اللغة الايطالية فقضى في ذلك ستة شهور، استطعت بعدها أن أقرأ ما يتصل بموضوعي من مادة، وبخاصة كتاب أماري المذكور سابقاً وكتاباً يضم مجموعة بحوث قدمت بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد ميكيل أماري. وجاءني شاب ألماني (هو الذي اصبح من بعد المستشرق الكبير فلفرد مادلونغ) وحدثني أنه يريد أن يتعلم العربية لكي يحصل على التوجيهية ليدخل الجامعة المصرية ويدرس اللغة العربية والأدب العربي، فدرسته منهج التوجيهية مقابل ان يترجم لي عن الالمانية ما كتبه البارون فون باخ عن الشعر والفن في صقلية، فقام بترجمة هذا الفصل الى الانجليزية، وتقدم الى امتحان التوجيهية، ونجح فيه، ودخل الجامعة المصرية وحقق ما أراده من الاستعراب. إن هذا الانصراف الكلي الى الاعداد لنيل شهادة

الماجستير قد جعلني اعتذر عن قبول تدريس دروس خاصة في المدرسة تدر عليّ مالاً كثيراً، رغم الحاح مدير القسم العربي ونصائحه المتوالية،. فأنا أمقت الدروس الخاصة وإن وجدها بعضهم طريقاً لمزيد من الرزق .

ليس معنى كل هذا النشاط اني نسيت أهلي، ولكني لم أعرف شيئاً عن مصيرهم. كان الوطن يضيع جزءاً جزءاً. وأنبأتني الصحف أن حيفا سقطت بيد الاسرائيليين، ثم أخذت تصلني رسائل أحمد سلامة وأخي بكر عباس من العراق. وفيها شرح لوقفة القرى الثلاث: عين غزال واجزم وجبع في مقاومة الاسرائيليين، وقفة باسلة، ساعد على تحقيقها امداد الجيش العراقي لهم بالذخيرة، ووصف بكر الروح الجماعية وحسن التنظيم وعمق التعاون، وظلّ هذا المثلث يقاوم حتى توقف الجيش العراقي عن امداده بالذخيرة، واستعملت اسرائيل الطائرات في قصف القرى، فخرج الناس هائمين على وجوههم حتى وصلوا منطقة جينين، وصادف ان جاء الأمير عبد الاله الوصيّ للتفتيش على الجيش، فقابله شيوخ هذه القرى وحدثوه أنهم لم يجدوا ملجأ يؤويهم، فأمر بنقلهم في شاحنات (لوريات) الى بغداد، واستقبلهم العراقيون بالحفاوة والاكرام، ورأوا فيهم إخوة ضيوفاً، ووصف أحمد سلامة كيف وصل مدينة حلب ماشياً على قدميه ثم انضم الى زوجته وأولاده في بغداد.

وقال لي الدكتور شوقي ضيف ذات يوم ان استاذنا أحمد أمين بحاجة الى من يقرأ له، ومن يكتب ما يمليه، وقد ذكرتك له، فقلت: أنا على أتم الاستعداد لذلك، فصرت أذهب الى بيت الاستاذ احمد امين في الدقي، حوالي الرابعة بعد الظهر واقرأ له ما يعيِّنه من فصول أو صفحات، وكان يحب أن يستمع الى مواد في علم الاجتماع، ويملك نسخة من موسوعة العلوم الاجتماعية، وكان يملي عليّ معظم سيرة حياته التي نشرها في كتاب عنوانه «حياتي» وغيرها من الكتب والمقالات. وقد سعدت بصحبة هذا الرجل الكبير المتواضع، ولكنه ذات يوم سلمني ظرفاً، فلما غادرت منزله وأصبحت على كورنيش النيل فتحته فاذا بي أجد فيه مبلغاً من النقود، فتأثرت كثيراً حتى فاضت دموعي لأني كنت – والله يعلم – أحب ان يتقبل مني هذه الخدمة مجاناً، ولم يكن الدكتور شوقي قد المح الى شيء من ذلك . وعن طريق احمد امين رحمه الله تعرفت الى الدكتور زكي نجيب محمود اذ كان يحرر مجلة الثقافة، وهو الذي شجعني على ان أنشر ما اكتبه في تلك المجلة. ولما انتهى احمد امين من املاء سيرته الذاتية قدمها الى الدكتور زكي، ليسمع رأيه فيها ، فقال الدكتور زكي: لي ملاحظة واحدة، سيرة ذاتية تقصّ أحداث الطفولة ، والشباب والكهولة هل يمكن ان تخلو من الحب، فنقلت هذه

الملاحظة الى الاستاذ أحمد امين فقال: أضف في الموضع الفلاني الفقرة التالية: «بل قد تحركت في عاطفة الحب منذ الصبا»...الخ ، ومضى في الاملاء حتى اكمل الفقرة وقد كتبت عن هذه السيرة مراجعة لدى صدورها ، فلما قرأ صاحبها ما كتبته قال لي: إن الذين يميلون الى التحليل النفسي يشتطون أحياناً في تصوراتهم وتقديراتهم، فسكت ولم أقل شيئاً.

وكان الاستاذ في مقالاته مولعاً بترديد فكرة مفادها ان الشرقيين يميلون الى الروح والغربيين الى المادة، وكنت تحت تأثير ضياع الوطن أقول في نفسي - دون أن أصارحه - نحن الساميين تجار العالم القديم والمتوسط، أين الروحانية في تصرفاتنا؟ أما الاختلاف بيننا وبين الغرب (واسرائيل من الغرب) فإنما هو اختلاف في نوع السلاح إننا لا نملك أسلحة حديثة، فنحن ضعفاء يسومنا الغرب ما يريده من عسف وتحكم، فاذا كان هذا الضعف روحانية، فبئست هي هذه الروحانية، ولهذا كان ترديد الاستاذ الشيخ لهذه الفكرة يملأ نفسي نقمة على أوضاعنا المزرية.

وكان العطاء الشعري في هذا الحقبة غزيراً. هنا كانت بواعثه الكبرى الشوق الى الرعاة والقرية، وبعض مؤثرات من البيئة

الحضارية الجديدة. وقد شاركت في نشاطات جمعية الشعر بالجامعة مرة واحدة، وألقيت قصيدة في «أبو الهول»

لو كنت ذا لبد يقلب مخلباً ... حطمت محكم قيدك المشدود

وزأرت بالأيام وهي مباءة ... للظلم والتنكيل والتشريد

وكنت أرمز بهذا الى مصر والى ضياع فلسطين ولكني لم أعد الى القاء قصيدة أخرى على الرغم من حضوري لندوات تالية. وسبب ذلك أني رأيت جمهوراً غير جادّ، فهم غارقون في مناجيات ثنائية، ولا أحد يسمع ما يقوله الشعراء. وفي إحدى تلك الندوات رأيت صلاح عبد الصبور لأول مرة - عرضاً - غير أني حين كانت تتلبسني حالة شعرية تجبرني على أن أجلس وأنظم قصيدة، أصبحت أنفر من تلك اللحظات وابددها بالمشي والهيام في الشوارع. كنت انظر الى هول الكارثة التي حلّت بوطني فأجدها اعظم من ان يصورها الشعر، ومع ذلك أرى أنه لا قيمة لشعر غارق في الذاتية والأحزان الخاصة اذا أنا لم أحاول توجيه الشعر نحو تلك المشكلة العامة، وقد عانيت كثيراً من أجل تحويل الشعر فلم أفلح. وأنا واعٍ انني حين وضعت ملكتي الشعرية بين شقي هذا الصراع كنت أتعمد قتل تلك الملكة. ثم وجدتني اكتب في مفكرة لي قديمة (١٩٥٨)(1958): «لتمنيت أنني ما أزال أنظم الشعر فقد كان ينقذ ني من نفسي ومن

لحظات المـوت التي تتـسلل الى نشـاطي ويبـعث في صـدري شعوراً جميلاً بالحياة. لم يكن الشعر تفريغاً لشهوات المراهقة - كما هو عند معظم المتشاعرين في هذا العالم العربي ولكنه كان إكسير حياة ووقدة متجددة . أنا لا أنكر كثافة مادة الحزن في ما نظمته من شعر ولكن ما ذنبي اذا كانت مقاطع اللغة والأوزان - حتى الراقصة منها - حزينة، والموسيقى حزينة وكل شيء في العالم العربي يتنفس فيه شبح الموت....»

في غمرة هذه المرحلة قرأت أنا ومحمود الغول إعلاناً يفيد أن كلية غوردون التذكارية في الخرطوم تحتاج الى مدرس للغة العربية، فكتب محمود طلبين واحداً له وواحداً لي، وقلت له: لماذا تفعل ذلك؟ فقال: أي واحد نالها منا كان ذلك خيراً ولم أكن أعلم أن الاستاذ أحمد أمين كان قد سئل: من يرشح لهذا المنصب فذكر اسمي، وكان رئيس قسم اللغة العربية في تلك الكلية هو تلميذه محمد النويهي - ذكر لي الأستاذ هذه الحقيقة عندما أخفق في تعييني بالجامعة العربية، وكان يومئذ أميناً مساعداً للشؤون الثقافية، وقيل له حسبما أخبرني: ان هذا الذي تقترح تعـيينه فلسطيني ، وفلسطين لا تشارك بحصة في مالية الجامعة العربية، وكان حين بلغني هذا الخبر حزيناً لأنه كان يدرك بقلبه الكبير انه قرار مبني على الظلم. فلما لاح له أنني أصلح للمنصب في الخرطوم فاتحني بالأمر. قلت له: ولكن

كيف أقبل هذا المنصب، وأنا أحب أن أبقى في مصر لمساعدتك. قال: انك رب أسرة، وليس من الأنصاف أن تحرمك مساعدتي من ايجاد مصدر رزق يكفيك ويكفي أسرتك. فلما وصلتني برقية من المستر بل (Bell) وكيل حكومة السودان بمصر يسألني فيها ان كنت لا أزال اقبل بالذهاب الى السودان رحبت بالعرض، وذهبت الى حي غاردن ستي بالقاهرة، وقابلت المسؤول، واتفقت معه على موعد للسفر الى الخرطوم.

كانت السفرة تعني أن أركب القطار من القاهرة الى أسوان، ثم الباخرة النيلية مما بعد الشلال الى حلفا ثم القطار من حلفا الى الخرطوم. هنا اعترضت مسألة جواز السفر وكنت أحمل جواز سفر حكومة عموم فلسطين الذي صدر في القاهرة وتلفن المسؤول الانجليزي الى الخرطوم وسأل الموظف السوداني هل يقبل مثل هذا الجواز، فأعلمه أنه مقبول، على أن يسحب مني لدى وصولي وأعطى بدله وثيقة سفر؛ فاستبشرت خيراً وخيل اليّ أن السودانيين صنف مختلف عن سائر العرب الذين قست قلوبهم حتى عادت أشدّ قسوة من الحجارة. وأحمد الله أني وجدت مصداق ما خيّل اليّ حين استوطنت السودان.

XIV

في كلية غوردون التذكارية بالخرطوم

أقام لي طلابي في مدرسة العائلة المقدسة حفلة وداع، وقدموا لي ورقة رسموا عليها نخلة وكتبوا تحتها باللغة اللاتينية: «لم يكن معلماً وإنما كان صديقاً». وتخلصت من الأثاث البسيط القليل الذي كنت أملكه وأهديته الى أحد الطلاب المحتاجين، وفي يوم معين قمنا بالرحلة التي تستغرق من القاهرة الى الخرطوم نهارين وليلتين، وأنعشت الرحلة النيلية معنوياتنا، وكنت أنا وزوجتي والطفلان، ووصلنا الخرطوم يوم ١٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٥١. وعندما وصلنا محطة الخرطوم كانت درجة الحرارة أعلى مما ألفناه، ولم أجد أحداً ينتظرني أو هكذا خيل اليّ فاتفقت مع سائق سيارة عمومية أن ينقلني الى الخرطوم بحري، حيث استأجرت لي الكلية منزلاً، وفيما بدأ السائق يحرك سيارته ظهر لي أن ثلاثة من الأساتذة بقسم اللغة العربية في انتظاري: محمد النويهي وعبد المجيد

عابدين ومحمد عبد العزيز إسحاق، ومعهم ثلاث سيارات، فعرضت على سائق سيارة الأجرة أن يأخذ أجرة فابى، عندها نزلنا من السيارة وسلّمنا على المستقبلين، وذهبنا مع واحد منهم الى المنزل المخصص لنا، كنت قد اتفقت مع سائق السيارة العمومية ان انقده (١٥) قرشاً، مع أنه طلب ريالاً فقط، وكان هذا خطأً مني، إذ لم أكن أعرف ان الريال في الخرطوم يساوي عشرة قروش (بينا هو في القاهرة يساوي عشرين قرشاً) وقلت لنفسي: هذا لبس – على بساطته – سببه الجهل. وجدت البيت كبيراً عالياً إلا أنه قديم، والحديقة فيه مهملة، ولم أكد أرتاح قليلاً حتى جاء للتسليم عليّ عميد كلية الآداب المستر ثيوبولد وزوجته وابنته. ودخل العميد وأنا أحاول أن أسقط بالعسّافة عن الجدار دويبة تدعى «سام أبرص» فقال العميد: دعها إنها مفيدة لأنها تأكل الحشرات الصغيرة، فتركتها وشأنها وأنا أقول لنفسي: هذه دويبة نكرهها كثيراً في الريف الفلسطيني – وملاحقتها في نظر هذا الرجل الانجليزي خطأ بل قسوة في حق الحيوان – وهذه هي الغلطة الثانية في يوم واحد. وبعد انقضاء الزيارة ذهبت الى البريد وهو قريب جداً من المنزل، وفي الطريق اليه رأيت طفلاً يقود رجلاً ضريراً فتقدمت منه ماداً يدي بورقة مالية صغيرة، فلم يمدّ يده لأخذها وقال للرجل الضرير: هذا رجل

يقدم لي نقوداً، فقال الضرير: شكراً ولكني لست شحاذاً، وأنت مشكور على كل حال، فخجلت من نفسي كثيراً وقلت: هذه غلطة ثالثة. ما بالي اليوم أقع في سلسلة من الأخطاء؟ كل هذا من سوء التقدير. وعندما ذهبت ثاني يوم الى الكلية قيل لي: ان العام الدراسي على وشك الانتهاء ولهذا لم نخصص لك برنامجاً، وتركنا لك الحرية في أن تتعرف على طبيعة الدروس، وتحضر بعض دروس زملائك وفي الوقت نفسه، ان قسم التاريخ بحاجة الى من يدرّس التاريخ الاسلامي، فلعلك تقوم بهذه المهمة. قضيت بقية الفصل الدراسي الذي ينتهي في أواخر مارس (آذار) في تدريس التاريخ الاسلامي، وكان كل شيء يجري في هدوء، حتى وصلنا الى الفتوحات الاسلامية، أيام أبي بكر وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) وعندما قلت للطلاب سنتعرض لرأي المستشرق بيكر (Becker) في هذه الفتوحات وأسبابها، قام طالب اسمه عمر وقال: لا نريد ان ندرس رأي بيكر في الفتوحات. قلت: حتى لو ناقشناه وبيّنا مواطن ضعفه. ثم أضفت: اذن نحتكم: فمن كان موافقاً لرأي عمر ليرفع يده فكانت الاكثرية مؤيدة لعمر، فقلت: اذن نسقط هذا من المحاضرة، مع تذكيري لكم بأن اية فكرة أو حقيقة لا تطمس بتجاهلها.

وكنت في البيت اكتب رسالة الماجستير مزمعاً أن اضعها في شكل مقبول، ولكني لم استطع ذلك، وظلت قيد الاعداد والتعديل حتى سنة ١٩٥٢.

عدنا الى القاهرة بعد انتهاء بقية الفصل الدراسي، وهنا مررنا على الحجر الصحي (الكارنتينا) في اسوان، وكان معي اذن من الكلية قد كتب باسمي ولم تكتب فيه اسماء زوجتي وطفليّ، فحوّلوا الى الحجر الصحي، واخترت البقاء معهم، وبقينا هنالك حتى اطلقوا سراحنا بعد بضعة ايام ولم يكن عدم ذكر اسمائهم سهواً أو نسياناً بل تلك كانت عادة المسؤولين في الكلية يكتفون باسم رب العائلة. ولم يكن لهذا الكلام جدوى لدى الحجر الصحي في أسوان.

وعندما رجعت في السنة الدراسية التالية الى الخرطوم وجدت الكلية قد خصصت لي منزلاً في حي المطار بالخرطوم – العاصمة – وكان دارة جميلة حولها حديقة تضم أشجار الموز والباباي والنيم والليمون وغيرها، فهاجرنا اليها من الخرطوم بحري وسكنا فيها طول إقامتنا في السودان (اي حوالي عشر سنين). كذلك وجدت ان رئيس قسم اللغة العربية الدكتور محمد النويهي قد حدّد لي ما أدرسه في الأدب العربي، وبذلك توقفت عن تدريس التاريخ الاسلامي.

كـان النويهي خـريج مـدرسـة الدراسـات الافـريقيـة والشـرقيـة بلندن وقـد نال منها شـهادة الدكتوراه في مـوضـوع «الحيوان في الشـعر الجاهلي» ولذلك كان ميدان تدريسـه قصـائد مـختـارة من الشـعـر الجـاهلي، وقـد نشـر من بعـد حـصـيلة دروسـه في هذا الموضوع في جزءين؛ وكان قد تزوج امرأة اجنبية، واكتسب من الغربيين الدقة في المواعيد والنفور من المبالغة في القول، وكان خارج العمل الجامعي مـهتمـاً بالقاء مـحاضـرات اكثـرها عن المرأة وحـقـوقـهـا، وكنت أدهش من اختـيـاره لهـذا المـوضـوع لأنه يـعلم تمـام العلم أن أمـام المـرأة السـودانيـة التـي كـانت لا تزال تـخـضـع للخـفاض (الخـتان) الفرعونـي مراحل كثيرة لا بد لها أن تقطعـها، وأن الرجل السـودانـي حـينئـذ لديه من المشـكلات مـا يسـتـدعـي جـهده كله لينال حـقـوق الانسـان في مـجتـمـعـه . وكنت أرى في الخـرطوم مـجـمـوعـة من المثـقـفين السـودانيين العـمـيقـي الثـقـافـة الذين يعرفون شـؤون بلدهم اكثـر منه، يتـحدثون فـي موضـوعـات تـهم مـسـتقبل وطنـهم ولا يعرجون على المـوضـوع الذي اخـتـاره النـويـهي، مـجـالاً لنشـاطه الفكري، لم أكن حـينئـذ – ولا الـيـوم – ضدّ أن تنال المرأة حـقوقها، ولكنـي كنت أحسّ ان النويهي قد قفز عن مـوضـوعـات كثيرة مـهمـة الى مـوضـوع يتطلب ادراكاً دقيقاً لطبيعـة المـجتمـع السـودانـي. وكـان النويهـي يدرس في الجـامعة

موضوعاً آخر هو «ابن الرومي» وأنفق وقتاً غير قليل يؤلف كتاباً في الردّ على العقاد في ما كتبه عن ابن الرومي، فلما أصبحت مدرّساً في قسم اللغة العربية وكل اليّ تدريس هذا الموضوع، وكان كتابه مقرراً على الطلاب، فقلت له: ان من الانصاف ان يطلع الطلاب على الكتابين معاً، ونتوسّع في دراسة شعر ابن الرومي نفسه، لأن الأصل والرد يمثلان قضية جدلية، وخير للطلاب ان يتمرسوا بدراسة شعر ابن الرومي قبل ان ندخلهم في حومة الجدل حوله. وقد ترك لي الحرية في توجيه الدرس، وحمدت له أنه تلقى موقفي بموضوعية يضيق بها غيره. كذلك عهد اليّ بتدريس مختارات من الشعر لطلاب السنة الأولى، وكانت القصائد متنوعة بعضها قديم وبعضها حديث وكان النويهي قد نظم التدريس في القسم حسب نظام جامعة لندن أي التركيز على النصوص دون الاهتمام بالمحاضرات العامة في تاريخ الأدب. ويبدو أن هذا النهج قد وافق مزاجي فكان تحويل الدرس الى تحليل قصيدة توسيعاً للنظرة النقدية لديّ، اذ كانت كل قصيدة تطرح تجربة جديدة وتتطلب كشفاً عن سر القصيدة وبنائها الداخليّ، ومدى ما تتمتع به من وحدة «نفسية». أو «موضوعية» اذ كان البحث عن وحدة «عضوية» أمراً يكفل لسالكه الخيبة في أغلب الأحيان، وقد امتد هذا المنهج في معظم

حياتي التدريسية، وبخاصة حين انتقلت الى الجامعة الامريكية ببيروت، مع فرق واحد، هو زيادة الحوار عما كان عليه الحال في الخرطوم. وقد أفضى بي هذا النهج أخيراً الى الاعتقاد بان كل قصيدة تفرض على الناقد طريقة خاصة في النظر، وأنه ليس هناك منهج واحد يصلح أن يطبق على كل قصيدة. بل ان من الخطأ الدخول الى القصيدة بمنهج معدٍ سلفاً.

وبما أنني لم اكتب في تحليل القصائد الا القليل، على تباعد في الزمن بل كانت كل جهودي من خلال الحوار الشفويّ ظلت الخطوة الأخيرة غير مكتملة وهي ان اكتشف القاسم المشترك الأعظم الذي ينتظم معظم القصائد، وأن أبلغ به الى مستوى النظرية. وذلك أمر يعد في غاية الصعوبة، ويحتاج الي تفرغ كليّ وتجنب النشاطات الهامشية التي تفرضها تلك الندوات والمؤتمرات العربية الكثيرة، القليلة الجدوى.

وأيا كان الأمر فان كلية غوردون كانت الى حد ما تشبه الكلية العربية في القدس، تختار ان يكون طلابها هم النخبة في المدارس السودانية، ولذلك كانت مهمة المدرّس أكثر صعوبة وأكثر مسؤولية وأكثر إمتاعاً. لكن كان هناك فرق أساسي بين طلاب الكلية العربية وطلاب الكلية السودانية، وهو انغماس الطلبة السودانيين في الحزبية، وبعد طلاب الكلية العربية عن

الانتماء الى احزاب؛ وكان الحزب الشيوعي في السودان قوياً حسن التنظيم، كما كان العمال السودانيون فئة يحسب حسابها؛ وكان تنظيم الاخوان المسلمين قد استقطب عدداً غير قليل من الطلاب. ولهذا كانت روح التدين ذات نسبة عالية في الكلية السودانية، وأذكر أن أستاذاً في قسم اللغة العربية - وهو محمد عبد العزيز اسحاق - قد ورّط نفسه وهو يتحدث عن أن الرسول كان يُنبذ له، واساء فهم معنى النبيذ هنا، فثار الطلاب وأثاروا الشارع السوداني، فخرج المصلون في يوم الجمعة التالي بمظاهرة جابت شوارع المدينة، والمتظاهرون يطالبون برأس الاستاذ الزنديق وخضعت ادارة الكلية لهذه الثورة واضطرت ان تبلغ الاستاذ سراً بان عقده لن يجدّد في العام القادم.

وكان أول شيء كلفت به الطلاب - خارج حدود الدراسة - ان يكتب لي كل واحد منهم بياناً عن بلدته، ومميزاتها وعاداتها، وكان ذلك لفائدتي الخاصة في فهم الجو العام الذي نشأ فيه كل طالب، وأذكر ان واحداً من منطقة غرب السودان كتب يصف احد المتميزين في بلده وقال فيه انه عاش ثلاثين خريفاً، فلما سألته لم يقول ذلك؟ أجابني لأن الخريف عندنا هو الفصل الأخضر البهيج بنباتاته وأزهاره والربيع فصل شديد الوطأة، وهذه

ملاحظة صغيرة ولكن ما كتبه الطلاب كان حافلاً بالفائدة لشخص يريد ان يتعرف على الجوانب المختلفة من حياة السودان والسودانيين.

ودخلت ذات يوم غرفة الدراسة الخاصة بطلاب السنة الثانية، وكان من عادتي ان لا أبدأ الدرس الا بعد ان يسيطر السكون تماماً، وتلكأت في البدء لأني سمعت الطلاب في الصف الاخير يتحدثون، دون ان افهم الموضوع الذي يشغل بالهم، وبعد انتهاء الحصة عدت الى مكتبي، ورأيت كوكبة من الطلبة يدفعون الطالب عبد الكريم – أحد الذين كانوا يجلسون في آخر الصف، ويوجهونه الى باب مكتبي. فدخل عبد الكريم وخاطبني بلهجة غريبة وقال لي: اياك ان تكون «تعقدت» ، قلت وأنا لا أفهم ما يعنيه: ليس من السهل ان «أتعقد» فكن مطمئناً، وبقي هذا كله في نفسي أشبه باللغز، حتى اقيم في اتحاد الطلبة أمسية ترفيهية وقام فيها احد الطلاب يروي ما حدث من نكت بين الطلاب والاساتذة واحداً واحداً، فقصّ كيف أنني دخلت غرفة الدرس، وكان عبد الكريم يقول في الصف الأخير. هذا الفلسطيني ماله ومالنا؟ لماذا يشغل نفسه بتدريسنا ابن الرومي، لو كان ذا قدرة لبقي في وطنه يدافع عنه، ورآني الطلبة ساكتاً فظنوا أني سمعت ما قاله فأدركني الاستياء مما سمعت ، فأصروا عليه ان يدخل

مكتبي ويعتذر اليّ، وكانت كلماته «اياك ان تكون تعقدت...» هي التعبير الذي وجده ملائماً للاعتذار. وعندما سمعت هذه الحكاية اكبرت هذا الأدب لدى الطلاب، ولكني قلت لنفسي، صدق عبد الكريم في كل ما قاله، ولم يكن به حاجة الى الاعتذار، ولو عرفت يومئذ معنى اشارته، لأنصفته اكثر.

كان التدريس في الكلية - بسبب حرارة الجو - يبدأ في السابعة صباحاً حتى بداية التاسعة، وبين التاسعة والعاشرة تتوقف الدروس لكي يتناول المدرسون طعام الفطور كلّ في بيته ثم تستأنف الدروس بعد العاشرة. وكنت أختار ان تكون دروسي في الأغلب من (٧-٩). وكان صديقاي من السودانيين في الكلية جمال محمد أحمد وسعد الدين فوزي، أما الأول فمن أكبر أدباء السودان، وأما الثاني فكان من طليعة المفكرين السودانيين، درس في جامعة لندن الاقتصاد، وتمكن من التحصيل الفلسفي، وكان لنا زميل سوداني آخر يعيش في القسم الداخليّ فكان يدعونا أحياناً لمشاركته في طعام الفطور، فكنا الاربعة نجتمع حول صحن من الفول، لا نطلب غيره، وأعجبتني هذه القناعة، ووجدتها تصوّر حقيقة مهمة من واقعية المثقف السوداني الذي لا يترفع متعالياً عن واقع الناس البسطاء.

وبدأت أدرس ما يمكنني ان اقدمه خارج نطاق التعليم في الكلية، فوجدت ان في السودان أدباً غزيراً وبخاصة في الشعر، وأن الدراسات حوله قليلة أو بدائية، فشرعت اكتب الى بعض المجلات اعرّف بالأدب السوداني، حتى استوقفني يوماً زميلي الدكتور عبد المجيد عابدين وسألني: هل ستطول بك الكتابة عن الادب السوداني؟ قلت: انك لا تسألني هذا السؤال الا ولديك مشروع في الميدان نفسه. قال: هذا صحيح، وبعد مدة قليلة ظهر كتابه «الثقافة العربية في السودان». ولم يكن من العناء ان اربط بين جهل الناس في الخارج للأدب السوداني وعدم وجود دور للنشر ومطابع في الخرطوم، فأخذت اشجع نشر الشعر السوداني والقصة القصيرة السودانية في بيروت، وكان من ثمرة هذا الجهد ظهور ديوان غابة الآبنوس لصلاح احمد ابراهيم ومجموعة قصص لصلاح وصديقه علي المك، ثم غضبة الهبباي لصلاح، وديوان الصمت والرماد للشاعر كجراي،

وقد أصبح احد طلابي وهو محمد ابراهيم ابو سليم مسؤولاً عن المحفوظات والوثائق السودانية، فتمكنت بواسطته من الاطلاع على كثير من الوثائق الخاصة بتاريخ المهدية، ونسخت كثيراً منها (لأن التصوير لم يكن حينئذ موجوداً) ودرست فيها أساليب الكتابة في ذلك العصر، وكنت اعد نفسي لاستغلالها في

دراسة التاريخ، ولكن ذلك انما كان في السنوات الأخيرة من اقامتي في الخرطوم، ثم اضطررت لمغادرة السودان قبل ان أحقق ما كنت انوي عمله، لكني اعتقد انني خلفت من الطلاب من يحسنون القيام بتلك المهمة على نحو أفضل. ورغبة مني في معرفة مناطق أخرى من السودان خارج العاصمة المثلثة قمت برحلتين واحدة الى الغرب زرت فيها مدينة «الأبيض» والدلنج وواحدة الى الشرق زرت فيها كسلا، ولكني على الرغم من طول اقامتي في السودان لم أزر منطقة الجنوب، وهي منطقة تستحق الزيارة غير اني لم أحسن التوقيت الملائم لزيارتها.

وقد فكرنا في قسم اللغة العربية بفتح مدارس لتعليم الكبار، فشاركت في هذا النشاط ووجدت فيه متعة فائقة. ودعيت الى معظم النوادي في الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري والقيت فيها محاضرات، ولم اعتذر في اية مرة عن اية محاضرة، الا محاضرة كان القاؤها مقرراً (سنة ١٩٥٨) بعد الانقلاب العسكري الأول، في ام درمان، فوجدت الشرطة قد أغلقت النادي وحيل بيني وبين المحاضرة، ووجدت في هذا الحادث ايماءه الى ان بقائي في السودان أصبح احتمالاً ضعيفاً.

ومنذ ان بدأت نشاطي في الكلية السودانية اصطفيت اربعة عشر طالباً، وكنا نجتمع في اتحاد الطلبة او في بيتي، ونتحدث

في شتى الموضوعات بشكل عفوي، وكانوا مختلفين في الانتماء فبعضهم من اليساريين وبعضهم الآخر من الاخوان المسلمين، وكان الحوار بينهم يشتد أحياناً وترتفع درجته، ولكن سرعان ما كانوا يفيئون الى الهدوء ويغادرون المجلس وليس بينهم سوء تفاهم، وكانت هذه الظاهرة، يومئذ تمثل السودانيين في أعلى مستويات الحوار وبخاصة في البرلمان بعد الاستقلال، إذ كانوا في قاعة البرلمان يمثلون الحكم والمعارضة، وهم بعد الجلسة الرسمية اخوان متحابون، وكنت أقول لنفسي حقاً ان الديمقراطية لتليق بهم ولهم.

في خلال عشرة أعوام كان لا بد أن أتعرف الى كثير من السودانيين خارج نطاق الكلية، من فئات مختلفة، وقد وجدت فيهم النموذج الذي ارنو اليه من الاخلاص والتواضع وتقدير رابطة الصداقة وعدم التكلف في الخطاب، ولولا ان احيل بعض الصفحات هنا الى جرائد من الاسماء ولولا خوف السهو عن ذكر بعضهم لعددت كثيراً أو لعددتهم جميعاً.

وفي خلال تلك السنوات حدثت في الكلية تطوّرات، وفي الخرطوم تغيرات تستحق ان تذكر. فمن ذلك كله ان الكلية اصبحت تسمى (١٩٥٤) كلية الخرطوم الجامعية ثم نمت بعد ذلك فأصبح اسمها جامعة الخرطوم.

وفي عام ١٩٥٢ انهيت رسالتي للماجستير، وسافرت الى مصر حيث ناقشتها لجنة من الاساتذة. وفي هذا العام نفسه استرجعت الماضي في القرية وكأني أعيشه من جديد. وكانت بداية ذلك أني رأيت ابني يلعب في الحديقة تحت شجرة النيم، وغبت عن الوجود لحظة، فلم أر ابني وإنما رأيت نفسي وبيادر القرية وأشجارها، وعاد شريط الذكريات: وبدأت أكتب عنها قطعاً هي في اكثرها وسط بين الشعر والنثر - تذكرت وداع امي لي حين ذهبت الي حيفا للدراسة وكتبت عن ذلك المنظر قطعة بعنوان «الأصداف والزمن» أرسلتها الى بكر. وتذكرت موسى فكتبت عنه قطعة عنوانها «سلة الصنوبر» تخيلت فيها أن موسى جمع من صنوبر الكرمل ما ملأ به سلة، وفيما هو سائر وقع على خنجر، فجرح جرحاً بليغاً ومات، وتذكرت ديوان خالي شحادة واصبحت وانا جالس في الخرطوم اشم «رائحة القهوة السوداء» التي يصنعها خالي وأنا جالس في البيت أو مسافر في القطار، وتذكرت «عين ابو عليان». وكتبت قطعة شعرية بعد فراقي للشعر اصور فيها كيف كنت أنا وأحمد سلامة نقف على طفّ البيادر ونتلهّى بدحرجة احجار نحو الوادي، وكانت القطعة تتحدث عن تدحرج الحجر «وكيف تقلب حتى استقر» وهي رمز لحالي، وكيف ظللت أتدحرج من بلد الى بلد حتى وصلت الخرطوم.

واستقر بي المطاف هنالك، تذكرت كثيراً واستعدت كل المعالم البارزة في الماضي؛ تذكرت والدي وكيف كان نموذجاً للقوة في الأربعين، وكيف لمته (تصوراً) في الحب، وكيف قال لي: غداً ستعرف انك مخطىء، وتذكرت امي التي كانت دائماً تدعو لي بأن يحببني الله الى الناس، ولا تحاول ان تغير هذا الدعاء، ومرّ بي في سياق تلك السلسلة الطويلة صورة الترزي الصفدي محمد علي حديد الذي كان يخيط لي البدل – بمهارة – وأتساءل هل جاءت ذكراه لتنزع عني البؤس الماضي. وامتدّ الحلم كثيراً ليتصل في نهايته بالواقع، فقد تحدثت الى زوجتي بهدوء ان لا بد من الانفصال وليذهب كلّ منا في طريقه (دون إعلان الطلاق) ولم تعترض على ذلك، وكانت مسافرة لتزور أهلها الذين لجأوا الى طولكرم، ثم بعد أقل من ساعة لحقت بها ورجوتها ان تنسى ما قلت فأنا لا أطيق ان أزيد بها وبطفلينا عدد اللاجئين ولتمض الحياة بنا كيفما كانت. وكنت قبل ان أغادر فلسطين قد سيطرت عليّ فكرة خلاصتها أني لن أعيش طويلاً، وقد ساعدتني هذه الفكرة على تقبل الحياة دون تذمر، كما كانت حافزاً لانجاز كل عملٍ ابدأه اذ كان يزعجني ان اشرع في عمل ثم لا أكمله ولهذا كفلت لي هذه الفكرة بذل الجهد دون ملل او تعب، وبها وبتنظيم الوقت في العمل استطعت ان أقوم باعباء يتطلب كل منها فريقاً

من العاملين. وقد استحالت هذه الفكرة لديّ الى اداة للسخرية من نفسي وانا اشترك مع صديقي ساندرسن (ساندي) في مكتب واحد بالجامعة، اذ كنت حين أخرج من غرفة الدرس مرهقاً، وكنت قد نيفت على الثلاثين بسنتين أسأل ساندي: هل تعتقد يا ساندي ان العبقري يتسنى له أن يتجاوز الثلاثين؟ كنت كالبطل في بعض الروايات، يحسّ بأزمته كلها تحتشد وهو يستشرف الثلاثين، فكيف أكون انا وقد جاوزتها ؟!! وكنت قد تجاوزت شرط صديقي ذي الرمة، الذي أحسّ حين راهق الثلاثين ان الحلم كاد يرجح لديه بالجهل،

كان ساندرسن يدرّس في قسم التاريخ، وكان يحاول ان يكتب رسالته عما يسمى في تاريخ أعالي النيل «حادثة فاشودة» وهو الى جانب ذلك مشغول اكثر الوقت بتحرير مجلة (SNR) «الملاحظات والمدونات السودانية»، ولهذا كان العمل في رسالته يتعثر ولكنه ظلّ مثابراً على العمل وكأنه لا يعرف الكلل، ولا يتمنى لحظة من راحة.

ويبدو ان المدّ الطاغي من تذكر الماضي هو الذي حفزني قبل أي عامل آخر على ان أذهب الى العراق لأرى اهلي، وكنت قد استطعت ان أوفر مبلغاً من المال لا للسفر وحسب بل لكي اقدمه لهم، فتوجهت بالطائرة الى بغداد، وما كدت أشارف الحيّ الذي

يقطنون فيه حتى بدت طلائعهم ، وكان لقاءً سكبت فيه دموع الفرح، ورأيت فيه كبار افراد الأسرة والديّ وإخوتي وخاليّ وأولادهما، وسائر افراد الأسرة الكبيرة، بل وكلّ من كان حياً من أبناء عين غزال ، وحين أخذت أقدم لهم بعض المال هديةً، اعتذر اكثرهم عن قبوله، وأنبأوني أنهم في حالة جيدة مادياً. واطمأنت نفسي حين رأيت أحمد سلامة وقد أصبح محاسباً عند أحد التجار ولقيت أخي بكراً ، وكان موظفاً في أمانة المدينة، وكان مسؤولاً عن اعالة ثلاثة عشر نفساً ليس لهم كاسب سواه.

في زيارتي هذه لبغداد ، زرت الآنسة الشاعرة نازك الملائكة فعرفتني على والديها وأختها «احسان» وكنت قد كتبت عن شعرها مقالتين في مجلة «الثقافة» المصرية، وقد حمدت ما كتبته وعدّته من أعمق ما كتب عنها من دراسات، من هنا بدأ توجهي نحو دراسة رواد الشعر الحديث، وهم جميعاً عراقيون: نازك والبياتي والسياب، وصادف أن وصلني وأنا في الخرطوم ديوان«أباريق مهشمة» للبياتي (سنة ١٩٥٤) وصادف كذلك ان طلب مني اتحاد الطلبة السودانيين القاء محاضرة في الاتحاد، فعدت الى ديوان البياتي، وكتبت عنه دراسة موسعة اعتماداً على ديوانه وحده، وسخّرت فيها كل ثقافتي حتى حينئذ تقديراً لاتجاه جديد أضع قواعده لأول مرة وتقديراً لشاعر عراقي من

الرواد وتقديراً لمستوى الطلبة الذين اتحدث اليهم، ولكن ظروفاً طارئة حالت دون القاء المحاضرة، فأرسلت ما كتبته الى الصديق الدكتور محمد يوسف نجم ببيروت، لعلّه ينشره في احدى المجلات الأدبية، فقدمه محمد الى ناشر صديق أخرجه في شكل كتاب مستقل بعنوان «عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث» مع أنه لم يكن سوى دراسة في ديوان البياتي وليس فيه عن الشعر العراقي الحديث شيء يذكر، وبقي عليّ أن أنصف السياب، شيخ الرواد، ولكن هذا لم يتم قبل سنة ١٩٦٨ اذ كان الاعداد لدراسة السياب يتطلب إحاطة بدواوين كثيرة نشرها، وبمراحل متفاوتة في تطوره الشعري.

بعد أن أقمت بين أهلي مدة تقل عن أسبوعين، كان اكثر حديثنا فيها عن ذكريات الماضي عدت الى الخرطوم وأنا ممتلىء النفس بكل ما كان يعنيه ذلك اللقاء من حزن وفرح، والفرق بينهما ضئيل - في مثل هذه الحالات - وعادت دورة الحياة الى سابق عهدها.

واتجهت النية بعيد العودة الى شراء سيارة، ولذلك تعلمت قواعد قيادة السيارة نظرياً وعملياً، وكانت قدرتي المالية لا تسمح بشراء سيارة فخمة، فوقع الاختيار الاضطراري على سيارة فولكسفاغن، لتعينني على الذهاب الى الجامعة، وأخذ

الأسرة للتنزه على شاطىء النيل والوصول الى «المقرن» (ملتقى النهرين الأبيض والازرق) أو الوصول الى ام درمان أو شراء الحاجات صباحاً من السوق، وغير ذلك من الشؤون.

وفي اجازة صيف (١٩٥٤) سافرت الى القاهرة فاستقبلني صديقي محمد يوسف نجم وقال لي: سنذهب معاً الى منزل الصديق الاستاذ محمود محمد شاكر حيث تتعرف على عالم كبير، بل على اكبر عالم معاصر في شؤون التراث العربي والاسلامي، فرحبت بهذا الاقتراح، وتوجهنا الى منزله في مصر الجديدة، وكان لقائي به فاتحة عهد جديد في حياتي العلمية، كنت اقرأ له شعراً ونثراً في مجلة الرسالة، ولكن اقترابي منه فتح لي عالماً جديداً من المعرفة. أصبحت أجد لديه إجابات متقنة عن أسئلة كثيرة تدور في رأسي ووجدت في مكتبته الغنية ما أحتاج اليه من مصادر، وفي زائريه وضيوفه وشهود مجلسه شخصيات من أبرز شخصيات العالم العربي والاسلامي. هنالك عرفت يحيى حقي، وعبد العزيز الميمني، وعلال الفاسي، وصالح بن يوسف ، وعبد الله التل، وكان الثلاثة الاخيرون لاجئين سياسيين، وكثيرين غير هؤلاء من أبرزهم المفكر الجزائري الاسلامي مالك بن نبي، هذا الى كثير من الأدباء والشعراء المصريين، في مقدمتهم الشاعر محمود حسن

اسماعيل الذي كنت معجباً بشعره وأنا طالب في الكلية العربية بالقدس. وكان مجلس محمود ملتقى لفئات مختلفة من الناس فيهم الشبان والكهول والشيوخ والطلاب والعلماء، وكان الصديقان ناصر الدين الاسد ومحمد يوسف نجم وانا نقضي الساعات الطويلة في مكتبته العامرة أو نشارك في الحوار الدائر بين زواره، أو نستمع الى آرائه وتوجيهاته. والميزة الكبرى فيه أنه ذو رأي عميق واطلاع واسع وليس هنالك من هو أقدر منه على فضح التفسيرات التي تزيف التاريخ والحقائق؛ إنه يستمد رأيه الواضح ويبلوره من تأمله الذاتي وعودته الى الأصول، دون النظر الى رأي سائد يردده الآخرون. كان محمود وما يزال يعتمد فهم الاسباب ويحسن ربط النتائج بها على نحو دقيق متفرد لم أجده عند غيره.

وكنت قبل أول لقاء لنا قد اصدرت كتابي «الحسن البصري» وشعرت بسعادة حقيقية وهو يقف عند مسائل مختلفة في هذا الكتاب ويشرح لي وجه الصواب فيها، وكانت طبيعة اللقاء تمنعني من تناول ورقة وتقييد تلك الملاحظات القيمة للافادة منها في طبعة تالية. لقد تعلمت من محمود وغرفت من علمه الغزير أضعاف ما قرأته وما سمعته قبل لقائه وقد كان بيته «مجمعا» علمياً لكثيرين من طلاب المعرفة من مصريين ووافدين.

وأقول: كان إقدامي على دراسة «الحسن البصري» ذا صلة باختياري موضوع «حياة الزهد وأثرها في الأدب الأموي» ليكون رسالة لنيل الدكتوراه، وكان كل ذلك التوجه نتاج «حقبة الجوع» التي عشتها في القاهرة، وفيها كنت أداوم قراءة سير الزهاد المسلمين وسير رهبان الصحراء المصرية وأحاول أن أرسم لنفسي منهجاً يمنحني القدرة على مصارعة الجوع أو معرفة الوسائل التي تعين على تحمله. وقد تبين لي بعد التورط في الموضوع والمضي في انجازه ومناقشته أنه لا يصلح أن يكون محوراً لبحث علمي، إذ بينما كنت أهدف منه في الغاية الأخيرة ان انصف الدولة الأموية التي ظلمتها الروايات المغرضة كثيراً وجدتني أبرز دور الخوارج وهم أشد الثائرين نقمة على تلك الدولة واغراني هذا التوجه بجمع ديوان لشعر الخوارج وكتابة مقدمة له. ومن أجل ذلك طويت الرسالة ولم أنشرها، وأدركت ان عدم وضوح التعارض في البناء هو الذي أنتج رسالة غير مستوية.

وفي زياراتي المتكررة لمصر تنبهت الى أني أستطيع ان اقدم خدمة لجامعة الخرطوم إذ كانت تنقصها مكتبة تليق بجامعة. ولما سمع مستر جوليف مدير المكتبة بهذا الاقتراح بادر إلى تنفيذه، فعهد اليَّ بشراء كل ما أراه ضرورياً، وتجليد الكتب التي

تباع غير مجلدة، فكنت أقضي اكثر الاجازة الصيفية مترددا على دور بيع الكتب – وهي كثيرة العدد في القاهرة – وأقضي الساعات وأنا أنتقي وأفرز ما لا بد منه، على حدة، وأحوّل ما يحتاج تجليداً الى المجلد المشهور حينئذ «سعد خضر» وكانت الكتب قبل ذلك ترسل الى انجلترا لتجليدها وتقضي في غيبتها مدة عام أو أكثر وكانت تكلفة تجليد الكتاب الواحد لا تقل عن جنيه استرليني، بينما يتقاضى المجلد في مصر عن كل كتاب ذي كعب من الجلد ربع تلك القيمة.

وفي العام (١٩٥٥) اتفقت وصديقي الدكتور صبحي سدراك على أن نقوم برحلة طويلة – في اجازة الصيف –. كانت رحلة تعرّف بدأناها من ايطاليا، فزرنا روما وتجولنا في اكثر أحيائها مشياً وكانت زيارتي لكنيسة القديس بطرس ذات أثر بالغ في نفسي، وقضينا في مدينة فلورنسة حوالي أسبوعين، وفي فينيسيا بضعة أيام، وكذلك في ميلان، وانتقلنا بعد ذلك الى المانيا، وكانت مدينة فرانكفوت على المين ما تزال تشكو اثار الحرب، وقد عمّر جانب منها وما يزال جانب آخر مهدماً، وكنا نتناول طعامنا أحياناً في مطاعم خشبية مؤقتة تنتظر البناء، ومن ثمّ توجهنا الى لندن وأمضينا فيها من الزمن مدة غير قصيرة، ولعلّ الرحلة كلها استغرقت شهرين، وفي لندن دعانا

ساندي الى حفلة بمناسبة خطبته فتاة ارستقراطية لكن يبدو أن الخطبة لم تدم طويلاً. وكان صبحي قد خبر الحياة في بعض المناطق التي زرناها، وكان يمتاز بحسن التدبير ولذلك سلمته نقودي ليتولى الانفاق المشترك، فكان نعم الرفيق طوال الرحلة لا يضع قرشاً في غير محله، ويقابل كل تجهم بنكتة تبدد كل ما قد يعرض من منغصات، وعند العودة توجهت أنا الى بيروت، وهي أول مرة أراها، وحين رأيتها ورأيت جمال جبل لبنان قلت في نفسي: من هنا كان الحق أن نبدأ لا من ايطاليا.

واعلمت محمد نجم بوصولي فكان خير رفيق في التعرف الى بيروت ودور النشر فيها ومصايف الجبل.

كنت قد أنبأت أهلي في بغداد انني سأقوم برحلة طويلة في اوروبا وانجلترا وانني سأعود الى بيروت وفيما انا احاول ان اقطع شارع بلس الى الجامعة الاميركية رأيت على الجانب الاخر من الشارع والدي، فأسرعت اقطع الشارع للقائه، وسررت كثيراً لأني وجدته في صحة جيدة، وذهبنا معاً للقاء والدتي، ثم توجهنا كلنا الى شقة كنت استأجرتها في رأس بيروت، وهناك لقي والدي زوجتي واطفالي الثلاثة (وكنت قد رزقت بالابن الثالث في الخرطوم) وسرّ الوالدان بحفدتهما سروراً بالغاً. وقضينا معاً أياماً في بيروت .

كانت الحياة في الخرطوم مريحة بدقة ما فيها من نظام في جميع الشؤون والمجالات، وتوافر كل ما يحتاجه المرء من لباس ودواء وطعام فاذا جمعت الى ذلك لطف الشعب السوداني ودماثة أبنائه وصدق العلاقات بين الناس كنت تصف جواً مثالياً للعيش. وحين دخل السودان في عهد الاستقلال (١٩٥٦) استبشرنا كثيراً، ووافق هذا العام صدّ العدوان الثلاثي على مصر، وكانت عواطف السودانيين جياشة؛ بالغيرة على مصر وشعبها حتى لقد تطوع بعض السودانيين ليشاركوا اخوانهم ابناء مصر في وقفتهم ضد العدوان. وقد أصبح واضحاً الميل الى «سودنة» المناصب الادارية فيها فاستقال محمد النويهي من رئاسة قسم اللغة العربية وعاد الى مصر، وعين خلفاً له الدكتور عبدالله الطيب، واصبح نصر الحاج علي رئيساً للجامعة وكان صديقاي جمال محمد أحمد وسعد الدين فوزي ينصحاني بالحصول على الجنسية السودانية واستخراج جواز سفر سوداني، وكنت اقول لهما: لا يراني الله انتهازياً. هذه المناصب الادارية لكم ولا أنافس احداً فيها وأنا راض ان اظل استاذاً، فذلك حسبي. وقد انضمّ الى قسم اللغة العربية أستاذان سودانيان وهما مصطفى عوض الكريم ومحمد المجذوب .

وفي السنة التالية (أي ١٩٥٧) أنشئت جامعة القاهرة/ فرع الخرطوم - واتصل بي المسؤولون فيها لأدرس الأدب الاندلسي، فاعتذرت عن ذلك لأنه لم تكن لي علاقة بذلك الأدب، ولكن اعتذاري لم يقبل، فانصرفت الى المصادر الاندلسية وجعلتها رفيقتي في المغدى والرواح، وأخذت أهيء محاضرات صالحة لهذه الغاية على الرغم من أن أعبائي التدريسية في جامعة الخرطوم كانت قد زادت، إذ عهد اليّ بتدريس كتاب ابن رشد الفيلسوف في الفقه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» كما استحدث موضوع اخر هو عوامل التطور والتغير في الشعر العربي الحديث وأضيفت سنة خامسة الى السنوات الأربع لتخرج الطلاب. ورحبت بالأعباء الجديدة، وعددت نفسي محظوظاً اذ عهد بها اليّ.

دخلت عالم الأدب الاندلسي فأوصلني الى ابن حزم، ووقفت عند هذا المفكر الذكي الجريء وقفة المتعرف المتأمل المعجب. أعجبني الفكر الظاهري لانه يلائم شخصيتي ، فأنا اعتقد ان الدين - في جانب منه - اوامر يتلقاها الانسان بالقبول دون ان يفكر في الحكمة الكامنة وراء كل منها، ولكني - مثل ابن حزم - لا يكف فكري عن التأويل والقياس وتجاوز الظاهر في الأمور غير الدينية، وملكت إعجابي شخصية الرجل وما تتمتع به من جرأة وحدة -

أحس أني أفتقر اليهما، وسعدت بصحبته على مرّ الزمن وشغلتني رسائله وما فيها من مقدمات تمهد لفكر ابن حيان مؤرخ الاندلس ثم لفكر ابن خلدون شيخ مؤرخي الاسلام.

وفي هذه السنة نفسها كتب اليّ اخي بكر من بغداد يذكر أنه يقضي أوقاتاً صعبة في السجن أو في المنفى دون تهمة توجه اليه، وقدّرت أن الحكومة العراقية غضبت عليه بسبب كتابي عن البياتي، ولم يكن تقديري صحيحاً . وكان جمال محمد احمد قد اصبح سفيراً للسودان في البلاد العربية المشرقية ومركزه بغداد، فكتبت اليه ان يمنح أخي تأشيرة دخول الى السودان ففعل، وجاء بكر فقضى سنتين مدرساً في مدارس الأحفاد الأهلية بأم درمان، وكان مديرها العام الصديق يوسف بدري وكانت صحبة بكر في هاتين السنتين رفقة محببة لدينا معاً، وساعدتني السيارة في أن أتردد الى أم درمان لأزوره وأزور المدرسين الفلسطينيين واللبنانيين من زملائه، وكان هو يجيء الى الخرطوم في نهاية الأسبوع.

وأذكر مرة انني وصلت واياه – عائدين الى الخرطوم، فلما وصلنا المحطة الوسطى دخلت مكتبة هنالك، وبقي بكر في الخارج ينتظرني، ومرّ به شخص سوداني فسلّم عليه يحسبه أنا

لشدة الشبه بيننا. وما كاد الرجل يفارقه حتى خرجت من المكتبة، فلما رآني أخذ يقلب نظره بيني وبين بكر، فلا يعرف أأخطأ أم أصاب.

وما كادت تحل السنة الدراسية (١٩٥٩–١٩٦٠) حتى واجهتني مشكلة تجديد العقد. كان العقد مع الجامعة يجدد كل خمس سنوات، وقد أمضيت عشراً واصبح بقائي في السودان مرهوناً بتجديد عقد لخمسٍ ثالثة واستشار رئيس الجامعة نصر الحاج علي رئيس قسم اللغة العربية في أمر تجديد عقدي فأبدى هذا الثاني عدم رغبة في ذلك الا بشرط واحدٍ غريب جداً وهو فصل الاستاذين السودانيين عوض الكريم والمجذوب، كما حدثني بذلك رئيس الجامعة نفسه، وكان رئيس الجامعة يدرك أن ذلك الشرط تعجيزي، وكنت لا أرضى أن ابني بقائي على هدم مصير أستاذين صديقين. ولم يفلح رئيس الجامعة في اقناع رئيس القسم بالتجديد، فعرض عليّ على مسؤوليته حلاً وسطا هو التجديد لمدة سنتين، فكان ردّي انني مع تقديري لجهده وشكري له أعتذر عن توقيع عقد بهذا الشكل أولاً لان الجامعة تعطي لكل مدرس عقداً لخمس سنوات، وأنا لا ادلّ بخدماتي للسودان وللجامعة ولكني أطلب المساواة بغيري. ولو كنت مقصراً في عملي لفهمت سرّ تصلّب رئيس القسم،

والشرط الذي يصر عليه لا علاقة لي به، ثم لو قبلت العمل بعقد سنتين فمعنى ذلك ثانياً أنني أبقى كل تلك المدة على غير رضىً من رئيس القسم، وهذا قد يجرّ الى مشكلات بيننا.

كان رئيس القسم قد استاء مني لأنه كان يراني اكثر الجلوس في مكتب أحد الاستاذين اللذين اشترط طردهما، ظناً منه أننا لا نجتمع معاً الا لاستغابته، واذا كان هو عند نفسه مهماً فلم يكن عندنا كذلك، وكان وقتنا أثمن من ان نبدده في أمور هامشية. وكان هناك أديب لبناني اسمه أحمد أبو سعد قد بدأ مشروع إصدار مختارات من الشعر العربي المعاصر لكل بلد عربي على حدة، وأصدر في تلك السلسلة جزءاً يحتوي مختارات من الشعر السوداني، وذكر عبدالله الطيب، وذكر أنه يكثر الهجاء لوطنه وأهل وطنه وأضاف: وذلك لا يليق بعباد الله الطيبين. وسألني (البروفسور) عبدالله ان كنت رأيت هذا الكتاب فأنبأته أنه عندي وأعرته النسخة التي أهدانيها المصنف فوقر في نفسه أن لي يداً في ما كتبه أبو سعد عنه، والله يعلم أنني لم أكن أعرف المؤلف ولم تكن لي به أدنى علاقة، (وإن قامت بيننا صداقة بعد رحيلي من الخرطوم الى بيروت). وهذه من الهنات، وإنما أذكرها هنا لأنها قد توضح لمن يتساءلون اسباب مغادرتي للسودان، والملابسات التي أحاطت بها.

حزمت أمري على أن أغادر الخرطوم، وحرصت على أن أشحن كتبي معي الى بيروت، وكنت مدعواً لحضور مؤتمر في الجامعة الاميركية اتحدث فيه عن جهود المؤلفين العرب في ميدان الادب الاندلسي في المائة سنة الأخيرة. وأخذت كتبي لاستصدار إذن بشحنها، وكان المسؤول عن ذلك فتى سودانياً لا تسمح سنّه بان يكون من خريجي الجامعة. وبعد انتظار غير قصير لم أحصل على الأذن فقلت للفتى: ليتك توقع لي الأذن لأنصرف الى عملي، فقال: هل أفهم من شحنك لكتبك أنك مغادر بلدنا نهائياً؟ قلت: لا أظن ذلك، وانما انا انقل عائلتي ومعها كتبي لكي يدخل أبنائي مدارس لبنانية، عند ذلك تنهد هذا الفتى بارتياح وقال: الحمد لله. قلت: ومن أين تعرفني مع أنك لم تكن أحد تلامذتي في الجامعة؟ قال: لم تفتني اية محاضرة من محاضراتك في العاصمة المثلثة.

تأثرت كثيراً من كلمات هذا الفتى وحمدت الله أني أخفيت عن أصدقائي السودانيين الكثيرين خبر مغادرتي النهائية، فاني لا أحب ان أثير حول تلك المغادرة جواً عاطفياً لا أرى له داعياً، وبخاصة حين يسألني الناس عن سبب الرحيل، وأنا لا أحسن أن اخترع أسباباً لا وجود لها.

وحين وصلنا الى بيروت أنا وعائلتي أرسلت الى رئيس الجامعة بالخرطوم رسالة أنبئه فيها باستقالتي من الجامعة.

وشاركت في المؤتمر، بنشاط واضح مبالغ فيه بعض الشيء، اذ كنت اعلم ان هذا المؤتمر في جانب منه امتحان لي، ولم أشأ أن أخسر ذلك الامتحان، فقد كان يتوقف عليه جانب غير قليل من مستقبلي فيما أقدّر. وكانت الجامعة قد دعت المستشرق الألماني هلموت ريتر ليلقي على طلبة قسم اللغة العربية محاضرات في تحقيق النصوص، فكنت أحضر محاضراته مع الطلاب، وكان هو مشغولاً بتحقيق كتاب في التصوف، فيه الكثير من الصعوبات – لجهل الناسخ – فقرأت الأصل وهو يسمع، ويصحّح حسب قراءتي النصّ المنسوخ بين يديه، ويبدي استغرابه حين أحلُّ ما يعدّه من المعميات.

XV

في الجامعة الاميركية ببيروت

لو أن جامعة الخرطوم جدّدت لي عقدي خمس سنوات لثالث مرة هل كنت مستعداً للوفاء بها كاملة؟ سؤال أستطيع أن أجيب عنه بعد أن رأيت بيروت وعشت فيها. أما ونحن مسافرون من الخرطوم فلم يكن هناك مجال للاجابة عنه الا بالايجاب. كان منظرنا ونحن ننتظر في مطار الخرطوم للمغادرة مثيراً للأسى، وكانت تتردد في خاطري كلمات بيرم التونسي «وشبعت يارب غربة» وكنت أنا وزوجتي نبكي في صمت، وكان الاطفال ينشجون وحين وصلنا بيروت، وتوجهنا الى الشقة التي اختارها لنا الدكتور محمد نجم، أدرك الاطفال انهم قد فقدوا الحديقة التي كانت ساحة للعبهم، وبدا للوهلة الأولى أنهم غير مسرورين بهذه الشقة التي لا تمتد أمام انظارهم وليس فيها أشجار. وحاولت ان اطمئنهم بأن حديقة الصنايع – الحديقة الوحيدة العامة في بيروت حينئذ – قريبة من البيت. وأنا

استطيع أن اصاحبهم اليها كل يوم أو كلما شاءوا ذلك. ولم يفطن الأطفال الى السؤال عن النوادي وهل هي قريبة أيضا أو بعيدة، قياساً على النادي السوري والنادي العربي (المصري) في الخرطوم ولكنهم سيفطنون الى ذلك بعد قليل عندما لا يجدون لديهم متنفساً. وكان ابني الاكبر يطالبني في الخرطوم بان يكون له كلب، ثم زاد به الطموح فأخذ يطالب بحصان، كان الكلب من السهل اقتناؤه، ولكن في بيروت، لا يمكن اقتناء كلب فكيف باقتناء حصان.

المسألة الصعبة هي هل افكر من زاوية الاطفال او افكر من زاويتي؟ كنت اعيش على الهامش الافريقي الجنوبي من الشرق الاوسط هل كان يمكنني ان أظلّ كذلك أو قل هل كان في مصلحتي العلمية والأدبية ان أظل كذلك؟ لا أحد ينكر أنني انتقلت الى قلب الشرق الأوسط، الى الواحة الجميلة الوحيدة في العالم العربي كله يومئذ. هنا اطل على البحر المتوسط، وأصعد الى مناخ جبلي في دقائق.

كان في استقبالنا حين وصلنا مطار بيروت الدكتور محمد نجم ورئيس دائرة اللغة العربية حينئذ الدكتور أنيس فريحة، وطالت اجراءات الدخول حتى كدنا نيأس من الاذن لنا بذلك. بيروت جميلة ولكن الفوضى تعكر صفاء جمالها هل يأتي يوم

نألف فيه هذه الفوضى الى درجة المحبة؟ من كان يدري أن مقامي في بيروت قد يمتد الى ما يزيد عن ربع قرن. لم تكن أول مرة أرى فيها حرم الجامعة الجميل ولذلك كنت قد استوعبت جماله من قبل:

لكني من ناحية أخرى قبلت براتب شهري لا يبلغ ثلث راتبي في الخرطوم، وهذا سيلجئني الى البحث عن موارد رزق أخرى، وبخاصة وأني فارقت الخرطوم دون ان أوفر شيئاً، مع انه كان في استطاعتي ان أعود بوفرٍ ينفعني في المستقبل. وضحكت حين قال لي أحد أصحابي أول وصولي الى بيروت، تعال نشترك في مشروع تجاري، ولم يصدق حين قلت له: انني لا أملك شيئاً، سوى ما اشتري به اثاثاً ضرورياً للبيت، وأدفع منه اجرة الشقة، وأقساط الأولاد في المدارس، ولم يصدّقني، وكان موقفه سليماً مع أنني كنت صادقاً في ما قلته له. سهوت في كل حياتي عن قيمة المال، وحين دخلت في مرحلة الشيخوخة بعد بيروت أدركت خطأي، وكان تدارك الأمر قد فات أوانه. هنالك أحسست أني فرّطت كثيراً.، إذ كثرت حاجتي الى مشاورة الأطباء والى شراء الأدوية، والى الظهور بمظهر اجتماعي لائق. والى أشياء كثيرة لا يحققها الا المال. وعجبت حين قرأت متأخراً لأحد الزهاد - أصدقائي - نعم المال معيناً

على تقوى الله تعالى. كان المال حقيقاً أن يصنع لي جاهاً، لا يصنعه العلم الذي أخلصت له طوال حياتي.

في هذا الموطن أتذكر قول أحد أصدقائي: لماذا توجهت الى التحقيق، مع أنك قادر على انجاز إبداعات بعيدة عن مجال التحقيق؟

قلت: اقول: لك عندي جوابان أحدهما على سبيل الفكاهة والثاني على سبيل الجد؛ أما الأول فأقول: ليس من حقك أن تنتقص من فضل التحقيق عليّ؟ ذات يوم وأنا في مكتبي بالجامعة الأمريكية دخل عليّ رجل كبير في علمه ومنزلته الاجتماعية وقال لي دون مقدمات: إلى متى ستظل مشغولاً بالتحقيق؟! فقلت له: دعني أحدثك ما للتحقيق عليّ من فضل: وصلني مؤخراً كتاب من بلد عربي يتضمن دعوتي الى مؤتمر لمكافحة الجريمة، فتملكتني الدهشة. بأي وجه أدعى إلى مثل هذا المؤتمر وفكرت طويلاً وأخيراً اهتديت الى أن القوم قرأوا اسمي على بعض الكتب «تحقيق احسان عباس» فقالوا لأنفسهم قد ضبطناه، إنه «محقق» فلا أقلّ من أن يقدم لنا شيئاً عن أساليبه في التحقيق مع المجرمين. وبهذا الحلّ زالت الدهشة. وأما الجواب الثاني فأقول لك اذا سلمت معك بإن قولك هذا صحيح اختصاراً للجدل فاني أفسر لك تاريخ صلتي بالتحقيق

تدريجاً... كانت صلتي بالتراث على مراحل: حين درست أدب صقلية الاسلامية وجدت هناك تراثاً لا يتحقق درسه بغير احيائه، ثم اتصلت بالاستاذ احمد امين فقدم لي رسالة مخطوطة للمعري وقال: ليتك تحققها، فحققتها مع انها كانت قد نشرت من قبل مرتين. وحين توجهت الى الخرطوم كان الدكتور عبد المجيد عابدين يكتب رسالته للدكتوراه عن «الامثال» وطلب مني أن اشاركه في تحقيق كتاب «فصل المقال في شرح الأمثال» للبكري، وحين انتدبت لتدريس الأدب الاندلسي في جامعة القاهرة - فرع الخرطوم لم يكن أمامي سوى احياء ما لم ينشر من التراث الاندلسي أو ما كان يستحق ان يعاد نشره محققاً، إذن كان التراث بالنسبة لي مؤازراً لعملي الأكاديمي، وكان ضرورة لا بدّ منها لاستكمال بعض جوانب المعرفة، وحين عملت في بيروت جعلت اكثر همي في ميدان التحقيق نشر المكتبة الأندلسية، لأني في الجامعة الاميركية كلّفت بتدريس الأدب الاندلسي، وهو حقلٌ لم أرتده في دراستي الجامعية. وقد أحسن الناس بي الظنّ حتى صاروا يعتقدون في البلاد العربية وفي خارجها - خطأ أو صواباً - أنني حجة في كل ما يتصل بالأندلس. إن هذه الثقة تستحق ان تقابل بما يوازيها ومع ذلك فان التراث لم يحجب عن عينيّ ما يجدُّ في الأدب العربي

الحديث، كما أنني على الرغم من كلّ ما حققته من كتب لا أعدّ نفسي محترفاً في هذا الميدان، بل ظلّ التحقيق لديّ «هواية»، تجذبني ولكنها لا تستطيع ان تتملكني . وقد كان اكبر أهدافي في الحياة العلمية أن أوسّع نطاق المعرفة لديّ، إذ على الرغم من ايماني بالتخصص الدقيق الجامعي، فانا احب ان أقرأ مؤلفات خارج نطاق الأدب والنقد، واكره التخصص الذي يعني «الانغلاق» المطلق – وقد كفل لي التحقيق اطلاعاً واسعاً على شؤونٍ معرفية، كان يمكن ان تظلّ مغلقة دوني. ولا أنكر أنني ظننت في بعض المراحل أن التحقيق قد يكون مصدر دخل إضافي ولكني أدركت بعد التجربة أنني كنت واهماً، فان الكتاب قد أصبح سلعة بائرة، وأصبح عرضة للتزوير والسرقة، ثمّ مرّ عليّ وقت شعرت فيه ان التحقيق قد أصبح لديّ تسلية ، مثل لعب الورق أو مثل لعبة تقاطع الكلمات. مهما يكن من شيء، فأنا أحب التراث العربي، ولا يقف بيني وبينه حجاب، وأنا أعتز بالجيد منه، ولكني أيضاً اعتقد انه ليس مقدساً وان فيه غثاء كثيراً لا يستحق الاحياء، وقد جعلتني هذه النظرة الموضوعية أقبل على تحقيق ما فيه فائدة اكيدة، وهذا يقتضي معرفة دقيقة

بالمخطوطات. وقد حصرت مجال تحقيقي في الأدب والتاريخ والتراجم ولم أتعد هذا المجال الا استجابة لظروف لا أستطيع تجنبها. وكنت لا أتهيب الاقبال على تحقيق الكتاب الذي اختاره مهما يكن حجمه ولهذا حققت وفيات الاعيان (٨ أجزاء مع الفهارس) ونفح الطيب (٨ أجزاء مع الفهارس) والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٨ أجزاء) ومعجم الادباء لياقوت (٧ أجزاء مع الفهارس).

ومع ذلك أقول إنه خامرني شعور - متأخر - ليس بسبب التحقيق ، أنني لم أعش عصري. وقد نجم هذا الشعور عن أمرين أو ثلاثة.

اولها: انني نشأت في عصر فرويد، ووجدتني أومن مع الزهاد بأن قمع الرغبات والشهوات هو الطريقة المثلى في الحياة. وهذا خارج عن نطاق العصر الذي يرى أن الكبت مضرّ بالنفس والشخصية الانسانية. (من هنا جاء تقديري لقدرة التحمل لدى المعري، حين تفوق على أزهد زاهد عرف في تاريخ الحضارة الاسلامية، بارادته الفولاذية. كان يعجبني أن يقدر المرء على أن يمتنع عن بعض أنواع الحلال، ليثبت إرادته).

وثانيها: أني منذ البداية انصرفت الى نقد الشعر، ولم أمارس نقد الرواية ودراستها، وعصرنا هو عصر الرواية دون أدنى ريب. والسبب في انصرافي عن دراسة الرواية أني اتفقت وصديقي محمد نجم - دون عهد مكتوب - أن ميداني هو الشعر، وأن ميدانه هو دراسة القصة والرواية والمسرحية، وأنني لن أنافسه في ميدانه أبداً، وهناك سبب ثانٍ وهو أن الرواية أثناء نشأتي لم تكن ذات سيطرة واضحة على الميدان الأدبي العربي، وكنت لا أجد رواية عربية تستحق مني الاهتمام والدراسة الا استثناءات يسيرة وكان مفزعي في القراءة الى الروايات المكتوبة بالانجليزية، ومع الزمن أصبحت الرواية في حياتي - هي الظلّ المريح الذي أفيء اليه من تعب البحث، فاذا تحوّلت الرواية في حياتي الى موضوع للدراسة تطلبت مني - لدراستها - بعد ان بدأت ذاكرتي تضعف، أن أعيد قراءتها مرتين أو ثلاثاً أو اكثر، وهذا امر معجز، ولهذا بقيت قارئاً مدمناً للرواية، ولكني أحجم عن جعلها موضوعاً للنقد والدراسة.

وقد تقول أيضاً من ناحية حضارية اني لم اعش عصري - فأنا لا أعرف أشهر ممثلي السينما - من الرجال والنساء - ولا أعرف

أبطال التنس، ولم أشهد المباريات الاولمبية العالمية في كرة القدم. وأنا لا أطيق التلفزيون ولا تظرّف المذيعين ولا لهجة المذيعات ، وتبعث الغصة في نفسي كثير من الأغاني فاذا كانت كل هذه الأمور سمة العصر، فاني بعيد عما يدمغني بسمة العصر .

وإذا قبل تصوري لبداياتي النقدية فانني أراها بدأت بُعيد انفصالي عن حياة الطلب، ولست أعني بذلك حين أصبحت مدرساً في مدرسة ثانوية وإنما حين عكفت لأول مرة في حياتي على التأليف، فكتبت دراستي عن ابي حيان التوحيدي أي وضعت نفسي أمام تصوّر كامل للحكم على نتاج كاتب مبدع، ومن البديهي أن يتوجه تفكيري منذ البداية الى مشكلة المثقف الذي نشأ في بيئة فقيرة وظل الفقر يحاصره على مرّ السنين. لقد كان اختياري لأبي حيان استشرافاً تنبؤياً لحال المثقف العربي في كل العصور؛ إن الطبيعة رسمت له أن يكون ضد التيار، ولكن وقفته هذه لا بدّ أن تنحنيَ للتيار لأنها غير طبيعية ولا بد أن يقف فقره مع العوامل الأخرى في عصره ضده، ويضعف تمرده وتفرده .

ولكن بعد ذلك لم أتابع العمل في النثر، لأن الأدب العربي لم يكن يتضمن فنوناً نثرية غنية متنوعة ، ولهذا اتجهت الى الشعر – يستوي في ذلك أن يكون قديماً أو حديثاً – إذ مطلبي الوحيد فيه الجودة الابداعية.

ومع أني اتخذت الشعر ميداناً للنقد، فاني لم أكتب في هذا المجال الا أشياء قليلة، والسبب في ذلك أن الشعر فن صعب، بل هو أصعب فنون القول، ولا أسمح لنفسي بالكتابة عن الشعر الا اذا وجدت فيه ما يحفزني الى القول . وغالباً ما أطلب فيه ظاهرة بارزة جامعة - فنية أو موضوعية أو فكرية فاذا لم أجدها لم يتيسر لي طريق للكتابة عنه. وقد يطول العهد بالشاعر، وهو يجري التحولات في تجربته الشعرية. خذ مثلاً محمود درويش تجد أنه تأخر حتى اكتشف مجال موهبته الشعرية، فلو أنَّ ناقداً كتب عنه في مراحله الأولى لما وفىّ حقيقته الشعرية حقها. إن طريقتي في النظر الى الشعر هي التي تجعل إسهامي في نقده محدوداً ، وهذا شيء لا يدركه الشاعر الذي يجيء بمجموعاته الشعرية ويقول أريد أن تكتب لي مقدمة لديوان شعري؛ وطريقتي هذه - طريقتي في النظر الى الشعر تعني أني قد أنفق زمناً طويلاً قبل أن أهتدي الى الظاهرة التي تحفزني الى الكتابة.

وقد كانت لي تجربة مبكرة في دراسة شعر البياتي اعتماداً على ديوان واحد أصدره أيضا في بوادي اتجاهه الى الشعر الحديث، وأنا على يقين أنني في دراستي هذه أثرت قضايا ووضعت أصولاً لم تكن مما يلفت انتباه الدارسين والنقاد، ومع ذلك كله فان الدراسة لا تمثل البياتي في مراحله اللاحقة - وهي كثيرة - وإن كانت تلك الدراسة نفسها تجربة ريادية في النقد.

وقبل دراستي لهذا النموذج من الشعر الحديث، كتبت دراسة موجزة بسيطة عن «فن الشعر»، ومن الواضح في هذا الكتاب الذي كان حلقة من سلسلة اتفقنا على اصدارها أنا والدكتور محمد نجم أنه كان يمهد لاتجاه حديث ممكن في الشعر وهذا يعني أن اصداري لهذا العمل الصغير «فن الشعر» ثم ما تلاه من دراساتي في الشعر الحديث – وبخاصة دراستي عن البياتي – تتمة لذلك الاتجاه الاستشرافي التنبؤي الرصدي الذي بدأته في «أبي حيان». وكانت الطاقة الاستشرافية التنبؤية لديّ في أوجها حينئذ . ولكنها أخذت تنحسر مع الزمن ، ولم يلتفت ذلك الكتاب الصغير الى الشعر القديم الا في تطبيق بعض قواعد النقد الحديث على ذلك الشعر القديم. وكنت أحسُّ ان الشعر القديم الذي يتقبّل قواعد النقد الحديث هو الشعر الذي يمكنه البقاء، وكانت هذه الدعوة في حينها تعدّ ثورية في الدراسة الأدبية وفي المجال النقدي. وكل ذلك كان هو صلب تدريسي لطلابي في بيروت، وقد كان سبيلاً مريحاً – على صعوبته – لتقريب الشعر القديم إلى نفوسهم. كان الإبقاء على تقدير الجيد من الشعر القديم موازياً في نفسي من حيث الأهمية للكشف عن الجوانب الجديدة في الشعر الحديث، وكان يعز عليّ انقطاع الصلة بين طلابي – وهم الجمهور الذي يستطيع أن يقرأ الشعر القديم

– وبين تراثهم الشعري، وكنت أحسّ بابتهاج خفي في نفوسهم وأنا أقودهم خطوة خطوة الى اكتشاف اسرار قصيدة للمتنبي أو المعري أو لبيد بن ربيعة أو ذي الرمة أو الراعي النميري أو غيرهم.

وكان لا بد لهذا الاتجاه من تكملة اساسية، وهي ترجمة كتب نقدية مهمة. تبرز الجانب التطبيقي مع وضع بعض الأسس النظرية، وقد عملت أنا وزميلي د. محمد نجم في هذا الميدان، متعاونين، ومن الطبيعي – بحسب ثقافتنا – أن يكون النقد الانجليزي هو الميدان الملائم للترجمة في حالتنا وقد اشتركنا في ترجمة كتاب النقد الادبي ومدارسه الحديثة لستانلي هايمن– وكان استعراضا لأهم النقاد الانجليز والاميركيين وطرائقهم في مقاربة النقد، ثم ترجمت أنا عدة كتب عظيمة الفائدة في هذا الميدان منها: مقال في الانسان لكاسيرر وهو ذو طابع فلسفي، وكتاب عن ت. س. اليوت لما تيسّن وكتاب عن همنغواي لكارلوس بيكر، وترجم محمد كتاب مناهج النقد الأدبي لديفد ديتشز. وكان نقل هذه الكتب الى العربية تعريفاً بالمدارس والمذاهب النقدية الحديثة والافادة منها في حياة النقد في العالم العربي.

ومع كل هذا الجهد فنحن لم نبلغ مرحلة الثورة الحديثة في النقد الأدبي الحديث، أين هي الكتب التي تتصل بالبنيوية وما بعد البنيوية والتفكيكية والحداثة وما بعد الحداثة. أين الأسماء اللامعة أمثال بارت وجاك دريدا ولاكان وادوارد سعيد وايهاب حسن. أين أثر بختين ودراسات تودوروف ؟ هذا كله قد جدّ بعد الفترة التي كنا من روادها أو معاصريها. إن النقد الأدبي ميدان واسع سريع التجدد والتحوّل وليس في مقدورنا أن نعيش عصرنا وعصر الأجيال التالية لنا. وأقول إن هذه المدارس الأحدث والأسماء اللامعة لم يفتنا الاطلاع عليها وعلى نتاجها، ولكن ذلك تأخر في الزمن، فلم نستطع ان نتجاوز فيها مرحلة الاطلاع الى العرض والتطبيق، ثم ان الميدان الصالح لهذه المدارس هو الرواية – في الاكثر – وقد ظلت الرواية بمنأى عن جهودنا النقدية، لأن تطورها البطيء كان مبنياً على التجريب الذي يجعل الباب مفتوحاً لجديد ولا يتوقف عند غاية نهائية ثم انك اذا استثنيت البنيوية وجدت الموضوعات الأخرى مثل التفكيكية والحداثة وما بعد الحداثة..الخ مجرد عناوين مستمدة مما يردده النقاد في الغرب، وليس لها أي صدىً في واقعنا العربي سوى الشهوة للتشبه بمن بلغوا اليها. وإذا أنت استثنيت الشعر – وهو ظاهرة إشكالية – وجدت ان الحداثة لم تطرق مجالات حياتنا الأخرى، أضف الى ذلك أننا لا نملك المصطلح

النقدي الذي خلقته هذه الاتجاهات ولا يمكن بغير مصطلح محدد نقل مدلولات تلك العناوين وما تفرع عنها، وجعلها مادة للحوار الفكري بين المثقفين . وقد قرأت اكثر ما نقل منها، فوجدت الخطأ المضلل هو الأغلب عليه. إن وضع مصطلح متفق عليه قد يتطلب سنوات وسنوات، وهذا يعني أننا سنظل متأخرين في ميدان النقد - كحالنا في ميادين أخرى - عقداً أو عقدين من الزمان أو اكثر. ومعظم ما يترجم اليوم من النقد فهو أشبه بأشباح للأصول التي ترجم عنها.

كانت النقلة من الخرطوم الى بيروت ومن جامعة الخرطوم الى الجامعة الاميركية، نقلة من الهدوء السكوني الى الحركة الدينامية المتفجرة - كانت الجامعة الاميركية ملتقى لمختلف الجنسيات والقوميات العربية وغير العربية ، وكان اكثر ما يميز حياة المدينة وحياة الجامعة نفسها حضور المرأة ، بالنسبة لما كان عليه الحال في الخرطوم وجامعتها. وكانت بيروت مركزاً ثقافياً، يصل اليها أحدث ما صدر من كتب وتصدر فيها نسبة كبيرة من أحدث المؤلفات والمحققات والمترجمات بالعربية. وكانت تضم نخبة من المثقفين من مختلف الأقطار العربية ودور نشر تعد بالعشرات، ومجلات وصحفا أدبية وفكرية،

ومقاهي يلتقي فيها المفكرون والنقاد والمبدعون . وكنت قد ألفت حياة الهدوء والبعد عن الصخب، وفي الخرطوم اعترف بي الناس واعترفوا بدوري فيهم وأنكرني شخص واحد، وفي بيروت اعترف بي شخص واحد هو الدكتور حليم بركات الروائي المشهور وعالم الاجتماع (من بعد) أخذني الى الاذاعة اللبنانية وسألني بعض أسئلة أجبت عنها. وأنكرني الجمهور، وحين وجدت الأمر كذلك آثرت الابتعاد والعمل في ما هيئت له، من تدريس الطلبة وتخريجهم وكتابة البحوث، وعدم التدخل في أي أمر لا أحسنه، كالعمل في السياسة أو معالجة القضايا التي تشغل بال الجماهير، في الصحافة . والاكتفاء بدور المتفرج على تلك البانوراما العجيبة دون الانزلاق الى تضاعيفها.

على أنني – في بيروت – اذا اخترت العزلة، فان الناس لا يسمحون لي بها. إنهم يأتون الى المدينة من كل صوب، ويخرجونني من عزلتي، وأنا لا أحسن استقبالهم بوجه متجهم. وما دمت قد اخترت بيروت مستقراً فليس من الانصاف لنفسي ألا أشارك في حياة هذا المجتمع الجديد، دون أن أتجاوز حدودي.

وواجهتني أول مشكلة، ولم أكن حسبت لها حساباً وهي أنني لا أملك جواز سفر وإنما أتنقل بموجب وثيقة سفر سودانية (ليسيه باسيه) صالحة لستة اشهر. هنا سعيت الى السفارة السودانية في بيروت وعرضت الأمر على الصديق مصطفى مدني فقال: سأجدد لك وثيقة السفر ستة اشهر أخرى، وإن كان هذا ممنوعاً، ومن ثم تحاول ان تتدبر أمرك. هنا نظرت في الأمر فوجدت ان الجهة الوحيدة التي يصدر عنها الضوء هي الأردن، فكتبت الى صديقيَّ الشيخ ابراهيم القطان والمحامي محمد اليحيى - رحمهما الله - فكان لجهودهما الخيرة أن حصلت على جواز سفر، وبذلك حلّت مشكلة الاقامة في لبنان.

ونظرت الى حال الاطفال وهم لا يجدون مجالاً للحركة واللعب فقررت أن نصعد الى أحد المصايف، ونقضي هنالك فترة غير طويلة فذهبنا الى حمانا وأمضينا قرابة شهر، وكان في المصيف مغنية من الدرجة الرابعة وملحّن، وكان ذلك كله شيئاً جديداً مسلياً بالنسبة للأطفال، وأعتقد ان هذه هي المرة الوحيدة التي قصدنا فيها مصيفاً طوال اقامتنا في لبنان. ومرة ذهبت وحدي الى سوق الغرب ونزلت في فندق هناك، وكنت أنفرد في غرفتي اكثر الوقت لأحقق «كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» أي جزيرة الأندلس.

وجاءني – وأنا في الجامعة – اشعار – بأني مطلوب للأمن العام، فذهبت لمقابلة مسؤول هنالك، فأخبرني ان الأمن العام يشتبه في تحركاتي، لأني كثير الأسفار، فأنبأته بكل صدق وصراحة أني أسافر للمشاركة في مؤتمرات علمية، فقال: ولكنك شاركت في بيروت نفسها في مؤتمر الأدباء الافريقيين والآسيويين قلت: هذا صحيح، ولكن أنتم الذين سمحتم بعقد المؤتمر في بيروت، فلماذا أواخذ أنا على حضوره؟ اخيراً قال الرجل المسؤول: بين يديَّ تقرير طويل ينسب اليك أشياء كثيرة، قلت: ليتك تعرِّفني بعض هذه الأشياء لأقدم لك إجابة واضحة عنها، فلم يفعل، وإنما أمرني بالانصراف فعدت الى الجامعة دون أن أعرف ما هي التهمة الموجهة اليّ.

حين أعود الى استذكار الحقبة البيروتية في حياتي أجدها تنقسم في قسمين متضادين: قسم فردوسي يمتد من ١٩٦٠ – ١٩٧٤ وقسم جهنمي من ١٩٧٤ – ١٩٨٥ وكان سبب تغير القسم الثاني أحداث الحرب الأهلية في لبنان التي شهدت عدة مراحل من التحول في طبيعة المتحاربين والأسباب المحركة لاستمرار الحرب. أيا كان الأمر فقد ذقنا حلاوة العيش في بيروت، كما ذقنا مرارته، ورأينا «الجامعة الاميركية» في عصرها الذهبي كما شهدنا مرحلة انحدارها وانحسار دورها العلميّ.

وأحسست بعد أن قضيت بضع سنوات في بيروت انني كبرت في السن، كنت في الأربعين حين التحقت بالجامعة، ولم يكن هذا الاحساس ناشئاً عن اضافة بضع سنوات الى الأربعين، بل كان السبب الأول فيه انني اكتسبت ثقة الطالبات وأصبحت مرجعهن في مشكلاتهن: هذه تسألني رأيي في الزواج من فتى على غير دينها، وتلك تخبرني انها غير سعيدة بزواجها من ابن عمها، وثالثة.... الخ وكنت أشير على كل منهن بما أراه صواباً، واقول لنفسي بعد ذلك: «طبيب يداوي الناس وهو عليل». وقد أفادتني هذه الثقة اذ دفعتني الى احترام هذا الموقع الأبوي وتقديره.

كانت الحقبة الأولى في بيروت - بالنسبة اليّ - استمراراً من بعض النواحي للحقبة التي قضيتها في الخرطوم، التعاقد بين نفسي وبين العمل المستمرّ، إذ كنت أجد في العمل عملاً وراحة وتسلية، وكان الكتاب هو الصديق الذي لا تملّ صحبته، وكان أحياناً يساورني الشعور بأني أعيش في حيفا، وكثيراً ما رأيت مشاهد كانت تعيد الى ذاكرتي ما كانت حيفا تعرضه، ولكن على مستوى أقلّ من حيث الحضارة، وكان هذا شعوري الخاصّ بي الذي لا أحدث به أحداً؛ وكنت أحسّ - باخلاص - أنني أينما

عملت، فاني أعمل من اجل ابناء أمتي العربية، كان هذا الشعور حقيقةً لا يحتاج مني الى وقفة أو تأمل، وكنت في ذلك مخلصاً وإن كنت لا أنتمي لحزب، لأن الأمة العربية اكبر من كل الأحزاب مجتمعة، ولكن ما أسرع ما تغير ذلك من حولي.

وكان أول تغير أحسّ به على المستوى الخاص حين احتاجت دائرة اللغة العربية الى استاذٍ قدير يقوم بتدريس اللغات السامية فيها. ووقع اختياري واختيار محمد نجم على شخص متميز الكفاية في هذا الميدان، هو محمود الغول. كان محمود صديقي منذ أيام الكلية العربية، ولكن لم يكن لصداقتي دخل في ترشيحه إلا بمقدار ما تمكنني الصداقة من معرفة صلاحيته للمنصب. وكانت معركة حامية استعملت فيها أسلحة مختلفة، ولكنها كشفت لنا عن خبايا نفوس لم نكن نقدر أنها تنطوي على غلّ حاقد مرير، وكان العيب الكبير في محمود في نظر المعارضين، أنه فلسطيني مسلم، ولولا أن آزرنا نبيه أمين فارس رحمه الله في هذه المعركة لما نجحنا فيها وزاد الأمر تعقيداً ما حدده محمود من شروط ثلاثة: أن يكون في درجة أستاذ عند تعيينه، وأن يكون ذا عقد دائم، وأن يمنح مرتباً لم يبلغه حينئذ أي أستاذ في الجامعة، وقبلت الجامعة بهذه الشروط، وجاء محمود من سنت أندروز وألقى محاضرة افتتاحية استقطبت جمهوراً

كبيراً، وكانت محاضرة ناجحة جداً، أظهرت أن شروط محمود لم تكن شيئاً صعباً، إذا رؤيت في ضوء علمه وسعة اطلاعه؛ ولكن محموداً لم يكن يدوّن علمه - أو بعضه - في بحوث ومؤلفات. وبعد سنوات غير كثيرة لم تعد هذه الوقفة الهمجية في وجه محمود، إلا فصلاً صغيراً من فصول المأساة العامة في لبنان.

ومع ذلك كله رحبت بالعبء التدريسي الذي ألقي على كاهلي تدريجياً في الجامعة الاميركية، كما رحبت بمثيله في الخرطوم. فقد أصبحت مسؤولاً بعد الأدب الاندلسي عن تدريس الأدب الجاهلي والأدب الأموي والدراسات القرآنية، وفي احدى السنوات حين غاب استاذ الأدب العباسي خصصت سنة كاملة لتدريس شعر المتنبي، وكان لديّ في تلك السنة فريق من الطلاب الذين يندر اجتماع مثلهم في سنة واحدة، درسوا شعر المتنبي دراسة تطورية فنية، وخرجوا بنتائج باهرة حقاً، وكنت أخصص لطلبة الدراسات العليا تدريس سقط الزند واللزوميات للمعري، مع تدريس المناهج والأصول. وكان الطلبة يعرفون ان الواجبات المترتبة على دروسي كبيرة، ومع ذلك فانهم قلما كانوا يتذمرون منها، وقد جعلت مكتبتي - في البيت - مثابة للجادين من الطلاب وخصصت لهم فيها أربع طاولات، تصلح

لأربعة طلاب في وقت واحد، يدرسون عليها ويكتبون بحوثهم ورسائلهم، في أي وقت يشاءون، كما كانوا بعد فراغهم من العمل يقضون جانباً من الليل يتحدثون أو يتحاورون وكان لابد من مساعدة زوجتي لي في هذا الاتجاه وتقبلها له، وقد أبدت استعدادها التام للقيام بواجبات الضيافة والرعاية. وان لم تسمح لها ثقافتها بمشاركة أكثر، وأظنه آن الأوان لأقول كلمة أنصاف في زوجتي فانها هي التي تولت تنشئة الأولاد حين كنت طالباً، ولم توفر من جهدها في سبيل ذلك شيئاً، وقد تحملت معي تقلبات الحياة بصبرٍ وتفهم، وعلى أنها لم تشاركني أعمالي العلمية فانها هي التي منحتني الوقت اللازم للانصراف الى عملي وضحّت طويلاً وكثيراً في سبيل إحاطتي بالهدوء اللازم للعمل، واختزلت كثيراً من النشاط الاجتماعي من أجل تلك الغاية، ورعت طلابي وكانت لهم «أما» وكانوا يخاطبونها كذلك .

في هذه المكتبة عملت وداد القاضي وعز الدين أحمد موسى ويوسف عبدالله وسميرة خوري وصالح آغا وناهد جعفر وأخيراً محيي الدين صبحي وكثيرون قبله.

واكتفي هنا بايراد نبذة عن أول هؤلاء الطلبة اذ لا يتسع المجال للحديث عنهم أجمعين:

دخلت وداد القاضي دائرة اللغة العربية بمحض رغبتها واختيارها وكان في مقدورها أن تدخل المدرسة الطبية أو كلية الهندسة، ولكنها آثرت التوجه الى الدراسات الانسانية، ومنذ البداية تميزت في دراستها، وفي ما يكلفها به الاساتذة من بحوث، كان أول بحث كتبته بتوجيهي حول فرقة الجاحظية، وقد أحسنت في صياغة البحث وترتيبه وتدرج الحقائق فيه بعد فترة قصيرة من التدريب على كتابة البحوث. وبعد أن أكملت الدروس المطلوبة لنيل الشهادة الجامعية الأولى سجلت رسالة للماجستير باشرافي عن ابي حيان التوحيدي، وقامت بكتابة كل فصول الرسالة وأنا أقضي إجازة سنة في استانبول (١٩٦٨) وأعمل يومياً في مكتبة السليمانية، حيث جمعت عشرات المكتبات التي تحوي مخطوطات عربية، أطلع وأقرأ وأدون ما أجده مهماً. كانت صداقتي لمحمد بن تاويت الطنجي الذي يدرس في كلية الالهيات باستانبول وأنقرة تسهل عليّ الوصول الى ما اريده في بلد لا أحسن لغة أهله، وكان ابن تاويت عارفاً بالمكتبات، فزرت معظمها بصحبته، كما كنا نقضي الأمسيات معاً في المقاهي، ونخصص بعض الأيام لركوب المركب الذي ينقل الركاب بين استانبول واسكدار أو نذهب الى الجزائر القريبة (بويوك أضا وأخواتها)؛ وأذكر أنني استأذنت ابن تاويت في الذهاب الى

بورسه، وهناك نزلت في فندق في طابقه السفلي حمامات معدنية، فكنت استمتع بزيارتها يومياً، وزرت مكتبة بورسة للمخطوطات وصعدت الى جبل قريب منها بالتلفريك، وحاكيت أهل البلد في شواء اللحم هنالك، وأعجبني في استانبول جمال المنشآت الأثرية من مساجد وقصور وغيرها، ومهارة الأتراك في اعداد الأطعمة. وقد طالت إقامتي في استانبول حتى تجاوزت ثمانية شهور. وعندما رجعت الى بيروت أطلعتني وداد على الرسالة، وبعد قراءتها قلت لها: من الخير أن تعيدي النظر فيها وأن تختصري اكثر من نصفها، فكان قولي هذا صدمةً لها لما بذلته من جهد، وتلقته بشيء غير قليل من الحزن والكآبة والدموع، ولكنها حين رأت وجه الصواب في ما أقول عادت على رسالتها بالتصحيح والاختصار. ثم وجدت الفرصة بعد سنتين سانحة لها لتذهب الى توبنغن، وتدرس على المستشرق الكبير يوسف فان إس، فأفادت كثيراً من الناحية العلمية والمنهجية، وسجلت ببيروت للدكتوراه موضوع «الكيسانية في التاريخ والأدب» وحين قدمتها اليّ لم أجد مجالاً لتغيير أي شيء فيها أو توجيه أي نقد لما كتبته وناقشتها لجنة من كبار الأساتذة وأجازوها ونوّهوا بتفوّقها .

لا شك أني اعتنيت بوداد لأني كنت أجدها طالبة نموذجية وقلّما أجد عند غيرها من الطلبة والطالبات ما وجدته لديها من الاخلاص للعلم، والتفاني فيه وقد مكنتها الايام من أن تقابل هذه العناية بمثلها أو أحسن منها فعندما بلغت أنا سن الستين تولّت إعداد كتاب تكريمي لي استكتبت فيه ستة وخمسين عالماً من الأصدقاء العرب وغير العرب، وجمعت لنشره مالاً من بعض أصدقائي، وخرج كتاباً عجيباً في حجمه وفي مادته. ثم كانت حماستها بالغة لاقامة حفل تكريمي لي في الجامعة بمناسبة نيلي جائزة الملك فيصل العالمية (سنة ١٩٨٠). وفي الثمانينات حين وكلت اليّ الجامعة أمر تحرير مجلة الابحاث وأمر ادارة مركز دراسات الشرق الأوسط كانت هي التي تحمل العبء الأكبر من تحرير المجلة ومن إدارة المركز.

وقد غادرت وداد بيروت والجامعة الاميركية سنة ١٩٨٥ استجابة لدعوة من جامعة كولومبيا بنيويورك، ثم اختطفتها جامعة ييل ثم جامعة تشيكاغو، وفي هذه الأخيرة أصبحت رئيسة قسم الدراسات الاسلامية، وقد بذلت جهوداً متوالية من أجل أن تقنع هيئة أمناء هذه الجامعة بأني أستحق الدكتوراه الفخرية، وكتبت في ذلك تقريراً عجيباً في صياغته وقوة الحجة فيه وشموله مرّ في طريقه على عدة لجان ، حتى وصل هيئة الأمناء ونال موافقتها فدعيت سنة ١٩٩٣ الى تشيكاغو وكنت

واحداً من ثمانية من مختلف بلدان العالم، منحوا شهادة الدكتوراه الفخرية. وكان ذلك حقاً تتويجاً لعملٍ دائب، كما أن هذا اعتراف بما أسدته اليّ الدكتورة وداد القاضي من فضل، جزاها الله عني كلّ خير. ولست أقول: ردّ الله غربتها إذ الغريب الحقيقي من أحس أنه غريب في وطنه. أما وداد فقد عرفت الجامعات الأميركية مقدار علمها واخلاصها في العمل، فتنافست على الاستئثار بها أول وصولها الى امريكا، وهي تكتب اليوم بحوثها ودراساتها وكتبها باللغة الانجليزية وطلابها وزملاؤها يعرفون منزلتها العلمية، واظنها سعيدة حيث هي.

تميز النصف الأول من حقبة بيروت، بكثرة الاسفار الى المؤتمرات العلمية وبكثرة الدعوات الى الجامعات، فقد كنت في صيف كل عام – أشارك في مؤتمرات المستشرقين، وأقدم بحوثاً تتناسب والموضوع المقترح في كل مؤتمر وكان السفر الى هذه المؤتمرات والاقامة على حسابي، وهذا كان يستنزف وفر كل عام وعادت مشكلة الصراع بين يدي وبين المال الى الظهور، ولكن حرصي على المؤتمرات كان اكثر من حرصي على النقود.

كما دعيت سنة ١٩٧٠ لزيارة الجامعات البريطانية والقاء المحاضرات فيها على حسب الترتيب الآتي:

جامعة لندن - كيمبردج - اكسفورد - مانشستر، ادنبره ولقيت كثيراً من علماء هذه الجامعات وبخاصة العاملين بالدراسات الاستشراقية، وفي كيمبردج التقيت بطلاب الدراسات العليا من العرب، وعددهم يقارب الأربعين وتحدثت الى كل منهم حول ميدان تخصصه، وفي اكسفورد دعيت الى ما يسمونه «الطاولة العليا» وكنت ضيف الشرف، وكان مضيفي دليلي في الخطوات المتعددة التي تتم في ذلك الحفل، وفي الشعائر التي تجب مراعاتها. وفي السنة التالية (١٩٧١) دعيت لزيارة الجامعات الالمانية ومراكز الدراسات الاستشراقية في فرايبورغ وتوبنغن وكولن ومانهايم وغوتنغن وبرلين (الغربية آنذاك). ولم ألق محاضرات، وكانت بيروت قد وثقت الصلة بيني وبين المستشرقين الالمان، اذ كان المعهد الألماني للبحوث في بيروت قريباً من منزلي، ولذلك كنت أتردد على المعهد كثيراً، وأصبحت صديقاً لكل مدرائه على التوالي كما كان منزلي دائم الاستقبال لأولئك العلماء، وأصبحت عضو شرف في جمعية المستشرقين الألمان.

وفي عام ١٩٧٥ دعيت لأكون أستاذاً زائراً بجامعة برنستون فسافرت اليها وحدي، تاركاً أسرتي في بيروت، وفي الجامعة الجديدة درّست أربعة من طلاب الدراسات العليا كلاً في

موضوع تخصصه، وطلب مني أساتذة مركز دراسات الشرق الأدنى ان اجتمع بهم مرة في الأسبوع لنقرأ نصاً عربياً فاخترت لهم «المقابسات» للتوحيدي ، ووجدناه نصاً صعباً ليس من السهل إخضاعه للترجمة ، وقد نعمت بصحبة عدد كبير من أساتذة المركز، وبخاصة صديقي رودلف ماخ رحمه الله الذي فتح أمامي خزائن المخطوطات في مكتبة جامعة برنستون، وهناك كتبت كتابيّ اتجاهات الشعر العربي المعاصر وكتاب ملامح يونانية في الأدب العربي، وكانت نواة الثاني محاضرة ألقيتها في جامعة هارفارد ثم طورتها الى كتاب.

وعند نهاية السنة الدراسية، سافرت الى روما عائداً الى بيروت، ولكني لم أجد السبيل مفتوحة للوصول اليها فبقيت في روما شهرين، ثم أبرقت الى جامعة برنستون أستأذنهم في إمضاء سنة أخرى عندهم، فرحبوا بذلك، وهكذا قضيت هنالك سنة ثانية عدت بعدها الى الجامعة الأمريكية في بيروت.

١- وأثناء الاجتياح الاسرائيلي لبيروت (١٩٨٢) حصلت على تأشيرة دخول الى المانيا بواسطة أحد أصدقائي من الألمان وكان لا بد من السفر الى دمشق، وركوب الطائرة منها، ومررت في سفري الى دمشق بمنطقة تسيطر عليها الكتائب، ففتشوا حقيبتي الصغيرة ووجدوا فيها أجندة قد

وضعت فيها صورة تظهرني وأنا أسلم على جلالة الملك الحسين بن طلال حفظه الله فلما رأوها نظروا اليّ ممعنين وقالوا: أهذا أنت؟ قلت: هل تجدون شبهاً بيننا؟ فابتسموا وسمحوا لسيارة الأجرة بالاستمرارفي طريقها.

٢- وفي السنة التالية (١٩٨٣) دعتني الجامعة الاميركية بالقاهرة لأكون أستاذاً زائراً متميزاً لمدة تقارب الاسبوعين، فكانت فرصة لتجديد العهد بالصديق العلامة محمود محمد شاكر ومجلسه العامر وباصدقائي في مصر، بعد غيبة طويلة.

٣- وقبل أن تبتلع الحرب هدوء بيروت، تسلمت إدارة دار الفتى العربي، يساعدني في ذلك عصبة صغيرة من الأصدقاء المخلصين، واستطعنا ان نصدر عدداً يتجاوز الستين بين كتاب وكتيّب للأطفال، وكان في ما أصدرته الدار نماذج جديدة توجه الى الاطفال، لأول مرة، وقد منحني هذا العمل رضىً نفسياً كبيراً اذ كان مجالاً لتقديم خدمة مخلصة لأبناء الوطن العزيز.

٤- وأقيمت في بيروت أمسية شعرية لتكريم ذكرى الشاعر ابو سلمى، وكنت عريف الحفل، وكانت تلك الأمسية تقديراً لدور أحد طلائع الشعر الفلسطيني المعاصر. وقد أتيح لي

أن أشهد أمسيات شعرية أخرى، كان لي فيها دور الناقد، وتلك الطريقة لا أستحسنها كثيراً لأني أحب أن أطيل التأمل في القصيدة قبل الحكم عليها.

وقد زرت بعض البلاد العربية، وأعجبت كثيراً بجمال البلدان المغربية (المغرب الأقصى) كما زرت تونس، ودعيت الى الملتقى الاسلامي في الجزائر عدة مرات، وتعرفت الى كثير من المدن الجزائرية وألقيت في تلك المدن محاضرات ضمن الملتقى العام. وزرت تونس عدة مرات أيضاً، وفي سنة ١٩٧٧ شاركت في مؤتمر الأدباء العرب في طرابلس، وزرت بنغازي. وكانت مهرجانات المربد في العراق تجذبني لمواكبة «سوق الشعر الحديث» وبعد نيلي جائزة الملك فيصل العالمية صرت عضواً في لجنة محكمي الجائزة أزور الرياض - كل عام - أو ادعى الى موسم الجنادرية ولما حصلت على جائزة الشيخ سلطان العويس سنة ١٩٩٣، تمت لي زيارة دبي والشارقة وأبوظبي ودعيت الى جامعة العين مراراً بحسن ترتيب صديقي الدكتور محمد حور وكان عميد كلية الآداب هنالك لسنوات؛ أما الكويت فكانت أول زياراتي لها سنة ١٩٥٩ بدعوة من وزارة المعارف، وقد ألقيت هنالك محاضرة ودعيت لزيارة منطقة الاحمدي وأمير تلك المنطقة، وكان السؤال الوحيد الذي وجهه اليّ الأمير

هو: كيف ترى بلدنا؟ قلت: انه بلد نام كبير الامكانيات، ومستقبله مرهون بالعمل المنظم على تطويره، ولكني لم أر فيه أثراً لخضرة الشجر وجمال الأزهار، وكان حوله صحفيون كثيرون، فاستدعاهم قائلاً أنتم يا من تقولون لنا إن بلدكم هو سويسرة الشرق، تعالوا اسمعوا ما يقوله الدكتور. كان الأمير يومئذ هو شيخ الكويت الحالي، وقد تلقى كلمتي التي لا تنطوي على أية مجاملة بسرور وتقدير. ثم تكررت تلك الزيارات الى الكويت، حتى سنة ١٩٧٤ حين قضيت في جامعتها أستاذاً زائراً مدة شهر. وفي هذا العام نفسه كنت أسافر أسبوعياً الى دمشق وألقي محاضرات في جامعتها عن الشعر العربي الحديث، وكان صديقي الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع العلمي بدمشق. صاحب الفضل في ترتيب تلك الزيارات الأسبوعية. تلك أيام خلت كانت فيها جذوة النشاط لا تعرف التعب ولا تتوقع الخمود.

٥ – لم أجد في الحقبة البيروتية عناء في تعليم ابنتي نرمين وابني الأصغر أسامة. أما إياس فقد كانت النقلة الى بيروت في غير مصلحته، إذ بلغ طور المراهقة بعد انتقالنا الى بيروت، وشغله اللهو وفتنة البيئة الجديدة عن دروسه، وكنت بين الحين والحين أذكره بأن الجد لبلوغ غاية هو خير سلاح لدينا نحن الفلسطينيين بعد فقد الوطن، ولكنه

كان يستثقل هذه النصائح ويعرض عنها وأنا لا ألومه، فالوعظ ثقيل سمج ولم يوفق لاجتياز امتحان الدخول الى الجامعة الاميركية ببيروت، حيث يدرس على حساب الجامعة حتى ينال الشهادة (B.A) وكان يتشبث بأن العلم لا يجيء لصاحبه بمالٍ ويستشهد بحالتي، ويذكر في المقابل حالة ناس أميين أصبحوا من أصحاب الملايين. وكنت أوضح له موضع المغالطة الذاتية في هذا الجدل فلا يقتنع. وعندما وجد نفسه «صايعاً» في بيروت، طلب مني أن أبعثه الى امريكا، وأبديت له استغرابي لهذا الطلب. ومع ذلك رأيت أن لا أحرمه من تحقيق رغبته فذهب الى الولايات المتحدة ودخل كلية في أوكلاهوما، وأرسل اليّ نتائج أول امتحان وكانت كل درجاته هنالك (A) واستمر يكافح عدة سنوات، حتى نال شهادة الدكتوراه في التربية ووجد لنفسه عملاً في ولاية ألبرتا بكندا، واستقر هنالك هو وزوجته وابناه ناديه وطارق، واستطاع تحقيق أمنيته الكبرى وهي اقتناء الخيول واضاف اليها اقباله على لعبة الصولجان (البولو).

٦- كان من النتائج الايجابية للطريقة التي دخلت فيها الحياة الزوجية أنني ابتعدت عن أيّ تدخل في ما يختاره أبنائي

لأنفسهم. ولهذا أعتقد أنهم كانوا مرتاحين، في ما انتهوا اليه، كذلك تركت لهم الحرية في ما يختارون من تخصصات، فدرست ابنتي علم النفس ونالت فيه درجة الماجستير وقبيل سفري الى برنستون تقدم لخطبتها فنان (رسام) مصري هو الاستاذ حلمي التوني، وهو شاب مثقف دؤوب في عمله قومي عربي في نظرته للأمور، وقد تزوجا وكان من ثمرة هذا الزواج حفيدتي التي سمياها «لارا» وقد كان لقربها مني ومن جدتها أن تعلقنا بها كثيراً حتى صدق فينا المثل السائر «ما أغلى من الولد الا ولد الولد». وقد كانت في طفولتها مصدر سعادة لي ولجدتها، وفقها الله، ودرس أسامة الابن الأصغر: الهندسة الكيماوية ونال فيها شهادة الماجستير، وعرضت عليه أن يكمل دراسته حتى ينال الدكتوراه، فأوضح لي أن ذلك ليس في مصلحته عملياً وأقنعني بما قال وقد تزوج أسامة في الثمانينات من فتاة لبنانية من أسرة كريمة ورزقا بطفل سمياه «احسان» وقد شارك «احسان» الصغير «لارا» في الاستئثاء باهتمامنا وقسط كبير من محبتنا. فأما ابنا اياس فانا لم نرهما الا مرتين لأنهما عاشا بعيدين عنا، ولكنهما ملء السمع والبصر ولهما منا المحبة

والدعوات المستمرة بالتوفيق والشوق المستمر الذي يستثير الحب ويحفظ بقاء توهجه.

واقتبس هنا بعض ما دونته من مذكرات لي قديمة - وبعضه ذو صلة بما تقدم.

أ- جاءني أسامة ذات يوم وهو في نحو الخامسة من عمره وقال لي: هل تأذن لي أن أحب عمي (بكر عباس) بمقدار حبي لك؟ قلت: يابني، في كل شيء يجوز الاستئذان الا في الحب؛ ثم ان عمك يحبك فأقل حقوقه عليك ان تحبه بمقدار حبه لك، ان لم يكن أكثر.

وأيضاً في بعض مذكرات قديمة:

ب- «ابني الأصغر هذا يقدس الكلمة الجديدة، فهو لا يفتأ يرددها على نفسه أو على مسمع من الناس، كأنما ينتشي بحلاوة جدّتها. أرجو أن لا يشقيه ما أشقى أباه: الكلمة إنها أمانة إنسانية غالية.

وكتبت أيضاً:

جـ- في حياتي نقطة ضعف واضحة هي حبي الشديد لأسامة، ابني الأصغر. أخشى أن يكون هذا الحب مانعاً من توجيهه في الحياة بشيء من الحزم كما أخشى أن يسيء

أخـواه تقـدير هذا الحب فـيـعـداه تحـيـزاً ومـحـاباة. لكن مـا أصنـع؟ ان التـعب يزول عني حـالما أراه أو اسـمـعـه يتكلم أو يضـحك أو يأتي الي باقتراحاته الصـغيرة وأسئلته المحيرة المضـحكة احياناً.

٧- ومن الخواطر المرسلة التي دونتها أيضـاً.

- ليس في الموت عبرة ، كان الشـاعر الجاهلي (أبو ذؤيب مثلاً) يحدثنا عن موت ثور الوحش وبقرة الوحش وحمار الوحش والفـارس القـوي المدجج بالسـلاح ليتـعزّى بـأن كل شـيء مـهما تكن قوته يدركه الموت. أمـا نحن فليست لهذه التـعزية قـيمـة لدينا. الذين مـاتوا ونحن لا نعرفـهم كـأنما لـم يموتوا لأنهم لم يوجدوا بالنسبة لنا،

والذين مـاتوا ممن نعـرف، مـوتهم حـادث جـديد، في كلّ مـرة نبكي كل من مـات منـهم كـأننا لم نتـوهـم قط أنه قـد يفـارق هذه الأرض في يوم من الايام.

هذه المقولة - من حيثما نظرت اليها - لا تنطبق على موت أهلي ببـغـداد تبـاعـاً الا في حـالة واحـدة، هنالك توفي خـالي شـحـادة ووالدي ووالدتي وأحـمـد عـبـاس زوج أخـتـي ، وخـالي علـي

عباس، وتوفي أحمد سلامة. كل هؤلاء فارقوا هذه الدنيا ولم يصلني خبر وفاة كل منهم في حينه، ولعلّ الاقرباء الأحياء لم يحبوا اخباري لئلا أجد نفسي عاجزاً عن المشاركة بشيء نحوهم. لكن وصلني خبر وفاة أحمد سلامة وكنت قد زرته قبل ذلك ببضعة أشهر فقيل لي يومئذ إنه مريض، في مستشفى خارج بغداد، فلما التقيت به في حديقة المستشفى وجدته ذابلاً متغيراً، وكأنما الأقدار ساقتني لأودعه ، اذ كان ذلك آخر لقاء لنا. وبعد ذلك أبرق إليّ أحد ابنائه يقول إنه توفي، وصادف أن جاء أخي بكر الى بيروت في تاريخ مقارب لتاريخ وفاته وقضينا ليلة كاملة نتذكر فيها هذا الصديق الغالي، ونبكي ونستعيد بعض الذكريات عنه، وكأننا لم نتوهم قط أنه قد فارق هذه الأرض؛ رحم الله أحمد سلامة فقد كان وجه عين غزال المشرق وثغرها المبتسم دائماً.

XVI

في عمان

كدت أن أجعل عنوان هذا الفصل «السنوات العجاف» لولا أن ذلك يندرج في باب العقوق ويعدّ ظلماً لهذه الحقبة التي حفلت بأنواع كثيرة من الخير.

صحيح إن حرب الخليج وحصار العراق قد طمسا بقية من التفاؤل والتطلع للمستقبل، وأغلقت معاهدة السلام الاضطرارية المفروضة علينا من ناحيتين، من قوة القوي ومن ضعفنا في آن واحد، باباً كان يمكن أن تفتحه حسابات التقدم والتحوّل الى الأفضل. حقا يعز عليّ أن يكون صوتي نشازاً بين أصوات فرح اهلي لدى تحرر مدن فلسطينية من الاحتلال. ولكني أعلم أن القوي أقدر الناس على أن يسخر من المعاهدات ويقلب شروطها لصالحه. وصحيح أيضاً أنني عدت على المستوى الشخصي

فجدّدت صداقات قديمة فلقيت الدكاترة محمود السمرة وناصر الدين الأسد وعبد العزيز الدوري ومصطفى الحياري والطبيب جميل مرقة وأنشأت صداقات جديدة، والتقى في مجلسي نخبة من خيرة المفكرين، في طليعتهم الدكاترة ابراهيم السعافين ومحمد شاهين وعبد الجليل عبد المهدي والأساتذة ابراهيم شبوح وفتحي البس وصدقي حطاب والشاعر الكبير مريد البرغوثي والشاعر المبدع إبراهيم نصر الله والمهندس محمد عبدالله حداد وانضم الى هذه المجموعة الطيبة من خلان الوفاء أخي بكر عباس الذي لم يختر الاقامة في عمان إلا ليكون الى جانبي؛ وجددت العهد بأبناء قريتي عين غزال: الدكتور محمد عصفور والدكتور فهمي جدعان والطبيب الصديق مدحت جدعان وسائر آل جدعان الكرام.

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم　　مثل النجوم التي يسري بها الساري

إن مكاناً ضمّ جميع هؤلاء لمكان طيب، وإن زماناً جاد عليّ بصداقتهم لزمان كريم معطاء، وحين أجدهم جميعا من حولي لا أحسُّ أني مهيض الجناح ولا آسى على أني تأخرت في الأجل حتى أدركت هذه الحقبة المظلمة في تاريخ أمتي وأنا عاجز عن تقديم أية خدمة اليها؛ ذلك أن كثافة تلك الظلمة يجب ألا تقف بنا

عند الأوضاع السياسية، بل علينا أن ننظر الى النواحي الحضارية الآخذة في التبلور في الامور الثقافية والفكرية والاقتصادية واليقظة على كل ما هو مفيد وضروري للتقدم.

جئت الى عمان سنة ١٩٨٦، ومنذ هذا التاريخ حتى اليوم وضعت في خطتي ان لا أستسلم لما يفرضه حال الوضع السياسي في البلاد العربية على الأفراد والجماعات من شعور بالاحباط فتابعت منهجي في الميدان الذي أحسنه، فكتبت خمسة كتب في تاريخ بلاد الشام ونشرتها والسادس ناجز وإن لم يذهب الى المطبعة بعد، وترجمت في الموضوع نفسه (تاريخ بلاد الشام) بحثين وكتبت بحثاً ونشرته، وقدمت للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية (آل البيت) بحثين أحدهما في فلسفة التربية الاسلامية والثاني في نظام الشورى في الأندلس، وأصدرت نشرة محققة مزيدة مفهرسة من كتاب معجم الأدباء لياقوت في سبعة أجزاء، وحققت مع أخي بكر تسعة أجزاء من التذكرة الحمدونية - وهي على وشك الصدور مجتمعةً، وترجمت بمشاركة أخي بكر كتاباً في «أبعاد الرواية الحديثة» وكتبت في نقد القصة القصيرة في الأردن عدة مقالات نشرت تباعاً في صحيفة الدستور الأردنية، وناقشت عدداً من الرسائل الجامعية في الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك،

وشاركت في بعض النشاطات التلفزيونية، وعملت في المجمع الملكي على انجاز «موسوعة الحضارة الاسلامية» وصدر منها فصلتان ، ثم اضطررت لظروف قاهرة الى أن اتخلى عن متابعة هذا المشروع المهمّ الذي أعده أهم مشروع حاوله المجمع الملكي حتى اليوم، وبه يضمن المجمع حسن الذكر العلمي الى الأبد. ولست أعدّ كل هذه الانجازات مكاثرة، فأنا استقل كلّ ما عملت لأني كنت أرجو أن اكون اكثر قدرة على مزيد من العطاء.

وقد اكتشفت منذ سنة ١٩٩٤ أنني أصبحت فريسة لأمراض الشيخوخة، وقد قال لي طبيب نفسي إن مشكلتك هي الكآبة فقلت له: لا عجب في ذلك بعد شهود كل هذه المآسي في حياة أمتي ، ثم انني أحسّ أني فقدت جذوة كانت تتأجج في نفسي ، وبها كنت أعمل وأعيش، وإذا كان صحيحاً أن القلب تتناقص فيه الكهرباء بتزايد السنّ، فتلك هي الجذوة التي فقدتها.

وعلى الرغم من كل شيء، فقد أحسست بسعادة لأنّ الحقبة العمّانية كانت مظللة برضى سمو الأمير الحسن بن طلال ولي العهد المعظم وبثقته، حين عهد إليّ بالعمل على تحقيق مشروع «تاريخ بلاد الشام» وبتقدير المؤسسات العلمية، وفي مقدمتها : الجامعة الأردنية؛ وفيها نلت تكريم مؤسسة شومان وغاليري الفينيق ودار الشروق باصدارها عددها الأول من

مجلة الجديد عن إحسان عباس ، وبالثقة التي وجدتها لدى جميع من تعاملت معهم على مستوى العلاقات اليومية وقد كان من اكبر ألوان التكريم أن زارني في «معتكفي» أصدقاء لم ألقهم من قبل ، كان في طليعتهم المفكر الكبير نصر حامد أبو زيد والدكتورة رضوى عاشور والدكتور جابر عصفور والدكتور صلاح فضل ، وشاعر العصر الحديث غير منازع : محمود درويش صديقي منذ أيام بيروت وزميلي العزيز الدكتور حنا أبو حنا ، والدكتور حنا ناصر رئيس جامعة بير زيت، وغيرهم من أعلام الأدباء والمفكرين.

وقد وضّحت لي كتابة هذه السيرة مدى أخطائي في رحلة طويلة، ولكنها من جهة أخرى كشفت لي عن استمراري طويلاً في الخضوع لقيم القرية دون محاكمتها أو مراجعتها، كما أبانت لي أن كل ما لقيته من آلام في تلك الرحلة لا يقف في طول مليمتر واحد الى جانب آلاف أمتار الآلام التي عاناها الشعب الفلسطيني، ولكني لم أكتب هذه السيرة لتصوير الالام، وانما كتبتها لنقل جُلّ التجارب التي واجهتها بصدقٍ، كما أني لست أرمي منها الى تبيان آرائي ومواقفي من قضايا كبرى أو الاجابة عن أسئلة مهمة تعرّضت لها الأمة العربية، فتلك أمور كان يجب أن تتمّ قبل الأخذ في تدوين هذه السيرة.

وإذا كان هناك من أحد أتقدم اليه بالاعتذار فاني إليك يا مريم سالم خليل أتوجه بأسفي واعتذاري، كنت مغموراً بقيم العائلة المستمدة من قيم الريف حين لم أستطع أن أرى في موقفك ثورة على تقاليد هي القيود بعينها، حين لم أقدّر الاشارة القوية التي حاولت إرسالها الى الغافلين كي يتنبهوا. إن مجتمعاً وقف كله يرى في قتلك تطهيراً لشرف العائلة، لم يكن ليقف عند قتل امرأة واحدة، وإنما كان مليئاً بالحقد على كل فرد، امرأة كان أو رجلاً، يحمل على وجهه ايماءة التحرر. اليوم وأنا أتطلع الى الماضي البعيد أجدك لم تقنعي بالثورة من أجل الحبّ بل أمعنت في التحدي، حين أحببت قاتل عمك. كيف غفلتُ عن كلّ هذه الإرادة يوم حققت ذاتها. حين مشيت في دروب الحياة معطّل الارادة، ممزق النفس بين رسوم الطاعة وواجب العصيان. اليوم فقط وأنا أتطلع الى الماضي البعيد. سقط عن عيني حجاب الغفلة الكثيف؛ لقد سخر الزمن مني، حين امتد بي الى هذه اللحظة التي تحطمت فيها جميع البُنى المادية والمعنوية، وعجزتُ عن الوقوف على اطلالها.

قد يكون هذا الاعتذار جاء متأخراً كثيراً، ولكنه كان يدور في نفسي منذ مدة غير قصيرة وانما تأخر كما تأخرت كتابة هذه الاعترافات .

إنني يا مريم أومن بأني لم أجد في الحياة شيئاً إيجابياً الا وجدت شيئاً سالبياً يجاوره أو يوازيه أو يتولد عنه. حين قررت أنت التحرر كان ذلك التحرر مبنياً على إذلال أسرة بأكملها. قد تقولين: كانت الأسرة مخطئة في شعورها ذاك، ولكنها لم تكن تملك – في عيون الآخرين – الا ذلك، وكان خطأها في نظر نفسها ونظر الآخرين هو الصواب يومئذ. ولو شئت أن أورد عليك أمثلة من تجربتي، لأعدت عليك قراءة هذه السيرة. ولكن أرجو أن لا تكلفيني ذلك.

إننا يا مريم – أعني بني البشر جميعاً – محكومون بشيئين: هما تغيب المستقبل عن عيوننا، والموت، وهذان جداران يحجبان عنّا كل شيء، ولذلك كان من السهل علينا أن نسلم قيادنا لكل متنبئ، على الرغم من أننا عالمون بأنه لا يفترق عنا بشيء، اذ هو يقبع مثلنا وراء هذين الجدارين.

إنني أخاطبك كأني أعرفك، ولكني اليوم أخاطبك بهدوء الشيوخ غير أني قبل سنوات قمت من النوم مفزعاً وكتبت اليك خطاباً أؤنبك فيه بشدة، وأتبنى مثل الآخرين تجريح سمعتك. كنت حينئذ ما أزال أعد التسامح ضعفاً، والمغفرة المقترنة بالضعف بعيدةً عن الفضيلة.

هل عاد اليّ التردد الهاملتي الذي صاحبني من قديم

معذرة مرة أخرى!!

قد يخطر للقارئ في هذا الموقف بالذات أنني ركزت نظرتي في الماضي وتحدثت الى الماضي وأصخت الى اصوات الماضي – ولم أعر المستقبل اي اهتمام – في عصر كثر فيه الحديث عن المستقبل ، وعذري أنني اكتب «سيرة» والسيرة – تعني قبل كل شيء – حكاية الماضي على نحوٍ ما، ثم انني لا أحبّ أن أسابق الذين يتحدثون عن مصلحة الأجيال المقبلة وأزايد عليهم، لأني أعتقد أن الاجيال المقبلة ستدرك مصالحها ضمن ظروفها وبيئاتها، فأمّا هؤلاء الأوصياء على الأجيال المقبلة فلست منهم في شيء. إني حين أجد أن حياتي كانت تقررها الظروف المتغيرة يوماً بيوم أو عاماً بعام أعتقد أنه ليس من حقي أن أفرض مفهومات عصري على عصور تالية ولا أن أرسم لها منهجاً أعده – غير صالح لها – قبل أن أرسمه على الورق. هذا هو رأيي وأرجو أن أكون مخطئاً.

وخير ما أختم به هذا الفصل قول شاعر العربية الكبير محمود درويش

هـهنا حاضر.

لا زمان له

وفي.........

أي وقت وقعنا عن الأمس فانكسر

الأمس فوق البلاط شظايا يركبها

الآخرون مرايا لصورتهم بعدنا

(لماذا تركت الحصان وحيداً: ص ٣٠).

حكمة ختامية

منطق الشجرات الثلاث

(الشجرة - الحياة - المحبوبة)

قاسية هي الحياة

جاسية عروقها

وأعجرٌ لحاؤها

صليبة كالسنديانة العتيقة

كالبُطْمِ، كالسرّيس، كالقندول، فهي شجره

شاخت على القسوة،

حين تغدو عاقراً أو حين تعطي ثمره

والظلم في أحشائها العميقة

أن تمزج الخيال بالحقيقه

لكنها تُحبُ إذ يفيءُ ظلُّها في الهاجرة

وفي الأصيلْ

يُحبُّ فيها دِقُّها وَجِلُّها

تغريك بالممكن من قطافها والمستحيل

تعطيك وهي مانعهْ تكرُّمَ البخيل

تغريك بالمعسول من ثمارها

تحبوك بالخبيء من أسرارها

فتغتدي الصفيَّ من ألافّها

مصيخةً لما تقول سامعه

في ظلِّها طاب المقيل

قاسيةٌ إذ ترحمُ

مرضعةٌ إذ تقطمُ

معطيةٌ إذ تحرمُ

قاسية رضعت المرَّ من حليبها

من بعد أن رضعت شهدها

وغُصتُ في الشذيِّ من لذيذ طيبها

لكنني حين اقتضيت وعدها

حين لمست صدرها ونهدها

وقلت قد آن الأوان أن أصير عندها

وأن أنال في الخضوع في الخشوع سعدها

ولا أعاني ختلها وصدّها

طالعني من خدها الأسيل

وثغرها القاسي الصقيل

حكمة من ينتحل الرحمة إذ يقول:

عشْ مفردا

لا تعشق الموتَ ولا ترجُ الردى

لا شـيء يجدي عنك إن متَّ غدا

إن التي من أجلها تموت

إنسانةٌ يابسة أو شـجره

تصـوّحت فيـها الغـصـون اليانعه

جفَّ العطاء في عروق حبها

كأنـها قد نسيت كلَّ الليالي الرائعه

واحتقرت قلبك حين لم تعد في قلبـها

خانتك، خـانت عهد حبٍ

كنت مـخطئاً حين ظننت إنه ليس يموت



غربة الراعي

فاتحني عدد غير قليل من الأصدقاء في أن اكتب سيرتي الذاتية، فأخذ اقتراحهم يمثل هاجسا يدور في نفسي، ويستثير ذاكرتي، ولذا توجهت إلى أخي بكر عباس أسأله رأيه في الأمر، فكان جوابه المباشر أن قال: لا أنصحك بذلك، لأن حياتك تخلو أو تكاد من أحداث بارزة، تثير اهتمام القارئ وتطلعاته.

كان ما قاله أخي وصديقي بكر صحيحاً، فأنا أعرف أنني لم أشارك في أحداث سياسية، ولم أتولَّ مناصب إدارية، ولم أكن عضواً في حزب، ولم أكن مسؤولاً عن مشروعات اقتصادية؛ إلى آخر ما هنالك من نشاطات تعرِّض الفرد للمسؤوليات الاجتماعية والوظيفية.

وعلى الرغم من ذلك كله وجدتني أميل إلى كتابة سيرتي، ومنهجي فيها إلتزام الصدق، فيما أسرده. لا لأن ما أكتبه تاريخ مهمّ، بل لأنه يمثل تجربة إنسان حاول في كل خطواته أن يخلص للعلم بصدق ومحبة.

دار الشروق للنشر والتوزيع
المركز الرئيسي - عمان/ الأردن - تلفون ٤٦١٨١٩٠-٤٦١٨١٩١-٤٦٢٤٣٢١
فاكس ٤٦١٠٠٦٥ ص.ب ٩٢٦٤٦٣ عمان ١١١١٨ الأردن
فرع الجامعة الأردنية هاتف: ٥٣٥٨٣٥٢
E-mail:shorokjo@nol.com.jo
www.shorok.com
وكلاؤنا في فلسطين
دار الشروق للنشر والتوزيع - رام الله - المنارة - تلفاكس: ٠٢/٢٩٦١٦١٤
دار الشروق للنشر والتوزيع - غزة - الرمال الجنوبي - تلفون: ٠٦/٢٨٤٧٠٠٣